



عَبْدُ رُبِّ الْعِصَاءِ

عباس محمد العفاد



الحنوان: عمرو بن العاص.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثالثة يونيو 2005م .

رقم الإيداع: 2003/ 16066

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2392-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد هاني - المنسج - الجيزة
ت: 3466434-(02)-3472864 فاكس: 3462576-(02) هـ.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmiser.com

المطابع: 30 المنطقة الصناعية الزاوية - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287-(02) - 8333289-(02) - فاكس: 8330296-(02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmiser.com

مركز التوزيع الرئيس: 18 ش كامل مصطفى - اللجاة -
القاهرة - هـ.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5949827-(02) - 5914895-(02) - فاكس: 5903295-(03)

مركز خدمة العملاء الرقم المجاني: 09002220222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmiser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569-(03)
مركز التوزيع بالصويرة: 41 شارع عبد السلام - عارف
ت: 2259675-(050)

www.nahdetmiser.com
www.enahda.com

موقع الشركة على الإنترنت
موقع البيع على الإنترنت



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1978

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بئية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نشأة عمرو بن العاص

نشأ عمرو بن العاص في بطن من البطون القرشية المشهورة ، وهم بنو سَهْم .
والبطون القرشية كثيرة ، تتفاوت في الضعف والقوة ، والقلّة والكثرة . ولكن
البطون التي انتهى إليها الشرف - كما قال النسابة الكلبي - عشرة ، اتصل
شرفها في الجاهلية والإسلام ، وهم : هاشم ، وأمّية ، وعبد الدار ، وأسَد ،
ومخزوم ، وعدى ، وجُمَح ، وسهم .

والظاهر من بعض أنباء « سَهْم » أنهم كانوا على كثرة في العدد ، وإن لم يحسبوا
من ذوى الصدارة في قريش ، إلى جانب بني هاشم أو بني أمّية أو بني عبد الدار .
فلما انقسمت قريش إلى حزين ، في أحدهما بنو عبد مناف ، وفي الآخر بنو
عبد الدار عَمِي بنو سهم لبني عبد مناف ، وهم أكبر هؤلاء الأَحلاف ، كأنهم ندُّ
لهم كثرة وقوة في الصلح والخلاف .

وتفاخر بنو سهم وبنو عبد مناف مرة ، فقال كل حى منهما : « نحن أكثر سيّدا ،
وأعظم رجالا ، وأكثر قائدا » . . . فكثر بنو عبد مناف بنى سهم بعدد الأحياء ،
لم تكاثروا بالأموات ، فجعلوا يشيرون إلى القبر فيقولون : أفيكم مثل هذا ؟
أفيكم مثل هذا ؟ ويذكر كل منهم أنه أكثر مالا وأعز نفرا ، كما جاء في القرآن
الكريم ، ونزلت في ذلك الآية : « أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » على إحدى
الروايات .

فعمرو بن العاص ينتمى - على هذا - إلى بطن يعد من أكبر بطون قريش ،
ويطمح إلى مساواة بني عبد مناف بوفرة الرجال والأموال وكثرة السادة والقادة ،
وبوصل شرفه في الجاهلية بشرفه في الإسلام .

أما حصتهم من شرف الجاهلية فقد كانت إليهم الحكومة ، والأموال المخجّرة التي سموها لآلهم ، وهي أموال حبسوها على الأرباب والمعابد وخيراتها ، كأنها الأوقاف في العصور الإسلامية ، وكأن الرؤساء من بني سهم طائفة من نظار الأوقاف يعرفون بحسناتهم أوسيتانهم التي انصف بها نظار الأوقاف في جميع الأزمان .

ولا نعلم على التحقيق ما هي تلك الحكومة التي وُكلت إلى بني سهم في الجاهلية ، كما وُكلت الشورى والرفادة والسقاية وغيرها من مهام الحجاز إلى البطون القرشية الأخرى .

ولكننا نستطيع أن نقيسها إلى بعض ما ندب له ابن العاص في الإسلام ، على حكم المادة الموروثة التي قلما تتغير في مآثورات القبائل المحفوظة ، ويؤخذ من هذه المهام أن المرجع في حكومة بني سهم إلى اللباقة في تناول الأمور ، والتلطف في حسم الشقاق ، والغلب على حرج النفوس في الشئون الدقيقة التي تتصل بالمصاهرة ومعاذير الراغبين فيها أو الراغبين عنها من الرجال والنساء ، كما تتصل بالإقناع فيما يمس المروءة والعقيدة ، أو يرد الإقناع فيه على النفس من طريق التهوين والتسوية على سنن الدهاة من الساسة بين سائر الأمم وفي سائر العصور .

وجماع ذلك كله أن الحكم على هذه الطريقة هو الرجل « الأريب » الذي يعرف « من أين تؤكل الكتف » ويتفرق بعلاج النفوس وتناول الأمور .

خطب سلمان الفارسي إلى عمر بن الخطاب ، فأجمع على تزويجه ، فشق ذلك على عبد الله بن عمر ، وشكاه إلى عمرو بن العاص فها هنا مسألة دقيقة بين أب وابنه في تزويج رجل لا تحسن الإساءة إليه بعد وعده ، ولا بد للحكم فيها من رفق وإربة ، حتى يرضى الأب والابن والخطيب وما منهم من يسخط على زميله . قال عمرو لعبد الله بن عمر : على أن أردّه عنك راضياً وأنى سلمان فضرب بين كتفيه بيده ، ثم قال : هنيئاً لك أبا عبد الله ! هذا أمير

المؤمنين يتزوجك .. ! فالتفت سلمان مغضبا وقال : أئى يتواضع ؟ والله لا تزوجتها أبدا .

وخطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أخيها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقالت له : الأمر إليك ! ثم سألت أخيها فأبته وهى تقول : لا حاجة لى إليه . فزجرتها قائلة : أترغين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إنه يحسن العيش ، شديد على النساء .. !

وهنا مسألة دقيقة من قبيل ما تقدم : أمير المؤمنين ترفضه أم المؤمنين ، ولا ينبغي أن يواجه بالرفض ، وإن كان لا سبيل إلى اكراه أم كلثوم على قبوله .

فلجأت السيدة عائشة إلى عمرو بن العاص ليحتال فى الأمر برفقه ودهائه ، فجاء عمر وفاجأه قائلا : بلغنى خير أعينك بأفه منه ، قال : ما هو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال : نعم ، أفرغبت لى عنها أم رغبت بها عنى ! قال : لا واحدة . ولكنها حدثت نثأت تحت كنف أمير المؤمنين فى ليل ورفق ، وفبك غلظة ، ونحن نهابك وما تقدر أن تردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !

ولاشك أن عمر قد فطن إلى ما وراء هذه الوساطة ، وفهم أن ابن العاص لا يقدم عليها من عند نفسه ، فسأله كأنه يستطلع ما وراءه : كيف بعائشة وقد كلمتها ؟

قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله .

فهى إذن حكومة الإرضاء والتناول الرفيق لكل شائك مخرج من العلاقات التى يصعب الحكم فيها بغير هراة وحنكة .. !

وشبيه بهذا - وإن لم يكن من شئون المصاهرة - إيقاد عمرو لى نجاشى الحبشة

لإقناعه بتسليم من قتله من المسلمين إلى مشركي قريش ، وهو أمر فيه من
المساس بأصول الضيافة ما تصعب المفاتحة فيه فضلا عن الإقناع به ، إلا أن
تكون لباقة ورفق مدخل وقدرة على التخلص السريع . .

وشبه بهذا أيضا إيفاد عمرو إلى أنحوال أبيه في عهد الإسلام لأقناعهم
بالخروج من دينهم والدخول في الدين الجديد .

ويتفق مع هذا وذلك أن تكون الوساطة على النحر المعهود بين طلاب
الوساطات في جميع قضايا الخلاف ، فيتخاصم الرجلان على ضيعة أو حق
منصوب ، ويرجعان إلى حكومة الحكم المختار لعلمها بقدرته على فض
الخصومات واستلال الأضغان .

ومن ذلك حكومة عمرو بن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حين اختلفا
على واد يدعيان ملكه بالمدينة . فقال عمرو لها :

« أنتم في فضلكما وقديم سوابقكما ونعمة الله عليكما تختلفان ! لقد سمعنا من
رسول الله ﷺ مثل ما سمعت ، وحضرتما من قوله مثل ما حضرت - فيمن اقتطع
شبرا من أرض أخيه بغير حق إنه بطوقه من سبع أرضين ! والمحكم أخرج إلى
العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحكم إذا جار رزى دينه ، والمحكوم عليه
إذا جبر عليه رزى عرض الدنيا إن شئنا فأدليا بحجتكما ، وإن شئنا فأصلحا
ذات بينكما » .

فأصلحا وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضا .

فهذه حكومة معهودة في قضية من القضايا الشائعة التي لا تمس المخرجات
النفسية ولا تشوك اليدين في تناول الدعوى بين الطرفين وما هما بعد بمخصمين .
ولكننا نتأمل هذه الحكومة أيضا فنلمح فيها حب الاستعانة باللباقة والكيس قبل
الاستعانة بالعدل والإنصاف ، كأنما كان الخصمان يريدان الوفاق بغير غضاضة
على أحد منهما ، فاختارا الحكم الذي يمنع هذه الغضاضة ويسر لها سبيل
الوفاق .

وقد جاء في الأثر أن النبي - عليه السلام - أمر عمرًا بالفصل بين رجلين اختصما إليه ، فكانه عُرِف بهذه المقدرة وبقيت له شهرتها في حضرة النبي عليه السلام .

• • •

وليست حكومة القهر والإكراه على أية حال بالحكومة التي كان العرب يرتضونها ويسعون إليها . فهم إذا لجأوا إلى الحكم لم يلجأوا إليه لأنهم ينتظرون منه أن يقهرهم على سماع حكمه ، ويلتزمهم أن يتبعوه في قوله وفعله ، بل لعلمهم بتعمدون أن يختاروا لحكومتهم رجلا لا يُخشى ولا يُهاب ، ولا يقع العار على من يخضع له بالخوف والإذعان . فإذا أطاعوه قيل إنهم بطيعون كلمتهم ويتزلون باختيارهم على الحكم الذي ارتضوه ، ولم يقل قائل إنهم مطيعون عن ذلة ، ومستمعون لأمره مسوقون إلى استماعه .

فالحكم الذي يختارونه - على هذا - إنما يكون على خصلة من خصلتين : رجل يأنسون إلى عدله وإنصافه ، أو رجل يأنسون إلى لباقة وجلته وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع الإرضاء . والثاني بيني سهم أشبه وأمثل ، لأنهم لم يشتهروا بالعدل والإنصاف ، بل كان من زعمائهم من يَعتَطل أصحاب الحقوق ، ويلوى الضعيف بديونه ويلج في ذلك لجاجة حملت السادة من قريش على التحالف فيما بينهم ليردن المظالم ويأخذن للضعيف حقّه حيث كان ، وسمّوه حلف الفضول المشهور ، وهو الحلف الذي قال عنه النبي عليه السلام : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول : ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دُعِيَ إليه في الإسلام لأجبت » !

وسبب هذا الحلف غير بعيد عن عمرو بن العاص نفسه ، لأن الذي مطل الدين أبوه العاص بن وائل من أغني السهميين وأشهرهم بالعزة والعصبية . وكان رجل من بني زبيد في اليمن قد وفد إلى مكة معتمرا ، ومعه بضاعة طيبة ،

فاشترها العاص ، ولواه بحقه ، ولم يحبه إلى رجائه حين سأله ماله أو متاعه . فقام الرجل في الحجر بنشد :

يَا آلَ فِهْرٍ لظُلومِ بضاعته بَطن مكة نائِي الدارِ والنَّفرِ
وأشْمَرِ مُحْرِمٍ لم يقض عُمُرته بين المقام وبين الحجر والحجرِ
أَقائمٌ في بني سهمٍ بذمهم أو ذاهبٌ في ضلالِ مالٍ مُعْتَمِرِ
فخف لنجدته أقطاب قريش ، وكان ذلك من أسباب حلف الفضول .

* * *

تلك جملة المعروف من شأن بني سهم الذين نبت فيهم عمرو بن العاص من بطون قريش .

أما أسرته القرية فأبوه هو العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤي بن غالب ، يرتفع بنسبه إلى النؤابة القرشية .

ويقال في متواتر الروايات إنه كان من ذوى اليسار ، وكان يتجرب في الشام واليمن ، ويحشد لرحلة الصيف ورحلة الشتاء .

وقد كان عمرو بأبيه جد فخور ، حتى لقد كان يفخر به على الخلفاء كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .

فلما أرسل إليه عمر بن الخطاب من يحاسبه ويشاطره ماله ، غضب وقال للرسول : « قبح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل . والله إنى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ! وما منها إلا في نيرة لا تبلغ راسه ! والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يليس الديباج مزورا بالذهب . . . ثم خشي العاقبة ، فاستحلف الرسول ليكتمن عليه ما قال بأمانة الله .

ولما عرله عثمان من ولاية مصر ، دعاه فأسه . وقال له استعملتك على صنعك وكثرة القالة فيك فقال عمرو : قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب هارقي وهو عبي راص . واحتدم جدل بينهما ، فهم عمرو بالخروج معصبا وهو يقول . قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك . . . هو الله للعاص كان أشرف من عمان . ثم رد عثمان على أن قل . مالنا ولدكرا الخاطلية !

وقد أدرك العاص الدعوة المحمدية . ومات بعد المحمد بقبيل وهو في الخامسة والثلاثين ، وبكته - في أشهر الروايات - لم يُسلم ، ولم يزن يصابب النبي وأصحابه العداء ، ويكيد لهم في المهر وخفاء . وهو الذي قال عن النبي عليه السلام حين مات ابنه القاسم وعد الله بن صاحبكم هذا لأثر مرلت فيه الآية . « إن شأيتك هو الأثر » . وكذا كان الكاثر بالدرية والاعترار بالعصية ششمة عامة على هؤلاء السهميين !

* * *

وعلى قدر ذلك المحر يأبى كان شخصه من بسبه إلى أمه واحتراء الناس عليه عنها كلام تعبدوا العضم منه والإساءة إليه

فكان حسده والافسوس عليه يلاحقونه بذكرها وهو عبي دست الإمارة ومير الخطبة ، وحاضر بعضهم رجلا أن يقوم إليه وهو على المير فيأسه . من أم الأمير ؟ فأعست من عصه وقال النافعة بنت عبد الله أنصاتها رماح العرب فيعت بعكاه ، فاشترها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجت . فإن كانوا جعلوا بك شيئا فحده !

ويؤخذ من بعض هذه المعابر أنها كانت تؤجر للنساء بمكة فإن عمر شمر روى بب الحديث بن عبد المطلب بمجلس معاوية ، فأنهرته قائلة « وأنت يا ابن النابغة تتكلم ، وأملك كانت أشهر امرأة نعي بمكة وأحدهن لأجرة ؟ اربع على طلعك ، وعن بشأن نفسي ، هو الله ما أنت من قريش في السلب من

حسبها ولا كرم منصفها ولقد ادعاك حسنة نعر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك ،
فستلت أمك عنهم فقالت . كلهم تأتي ، فانظروا أشبههم به فألقوه به . . !
ومن كلامه عنها في بعض ما نقل عنه « أنها سمي بنت حرملة تلقى
بالنساء من بني عترة ، ثم أخذت بني حلال ، أصابها رماح العرب ، فبيعت
بمكاد ، واشتراها الفاكه بن المغيرة . ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم
صار إلى العاص بن وائل . »

ويروى أنها كانت على صلة بالعاص وأبى لهب وأميمة بن حلف وأبى سفيان .
فولدت عمرا فاحتته بالعاص . وسميت في ذلك فقالت . إنه كان ينطق على
بناني

وإذا كان شأن البالبة في لغة الثب ولتعبير ، فالتفق عليه أنها كانت مبيدة
معلومة على أمرها ، فلم تفارق لعمد منقطا منها وابتدأ لعمدها ، ومثل هذه
لا تحسب عليها رلاتها كما تحسب من امرأة التي تزل ولها مندوحة عن الزلل ،
وتنوي وهي في موضع الصور والكرامة وانجاب هذه وبشلائها للتوايح من النيس
ليس مما يخلف لمألوف من سن النسب والوراثة .

• • •

ولا يظهر من أخبار عمرو أنه تنق مالا كثير من أبيه . فقد كان يحترف الحرارة
ويعمل بمال غير واه في تجارة الأدم ولعطريين اليمن والشام ومصر . على ما
جاء في إحدى الروايات

لا أن القصة التي روت لنا حبر سقرته إلى مصر تروى لنا كذلك أنه خرج في
تلك سمرة إلى بيت المقدس ، وقصارى ما يرجوه أن يصيب ما يشتري به بعيرا
فمكون له ثلاثة أبعرة .

وقد حاسه عمر رضى الله عنه فقال له في كتابه إليه . . . عشت بك
فاشبة من حيل وإبل وعم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل دنت ألا مال لك ، !

فلم يسكر عمرو أنه لم يكن له مال ، بل قال : « . أتأني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما هشام لي ، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي وإني أعلم أمير المؤمنين أني تأرص السعريه رحيص وأنى أعالج من لحرقه والزراعة ما يعالج أهله ، وى رزق أمير المؤمنين سعة » .

فإذا صدقت الرواية عن ثروة العاص بن وائل ، فمن العجيب ألا يبنى لعمرو من هذه الثروة نصيب موهور ، وهو أكبر وئديه ، وليس لأبيه درجة كثيرة من الذكور يقال إن الثروة الكبيرة تبددت بالتوزيع والتقسيم ، وقد أسمى عمرو بعد موت أبيه ، علا يقال إنه حرمة الميراث لإسلامه عصيًا عليه .

نعم إن هشامًا أخاه الأصغر كان أحب إلى أبيه ، وكانت أمه بت هشام بن النخيلة من كرائم قرش وليست سبية مشتراة كأم عمرو ، وكانت إلى هذا محبة إلى زوجها ، وباسم أبيها سمى ولده على غير الشائع المألوف في تسمية الأبناء بين القبائل العربية . ولكننا لم نعرف من أخبار العاص ولا من أخبار وئديه أن هشامًا استأثر بالميراث دون أخيه . والأشبه إذا كان أحدهما قد حُرِم ميراثه أن يكون هو هشامًا لأنه أسلم في حياة أبيه

ولا تنهم قلة المال عند عمرو مع ما اشتهر به أبوه من الثراء - إلا على فروص كثيرة يصح الأخذ بها جميعا ، لأن الاكتفاء بواحد منها غير معقول ، وهي أن ثروته لعاص كانت أقل من شهرتها ، وأنه كان ينفق ولا يحسك ، وأنه أصيب في تجارته قبل موته ، ولا سيما بعد قيام المسلمين على طريق الشام ، وأن صمرا كان كأييه من المتعقبين ، ولم يكن من المقترنين ، وقد يؤخذ هذا من ظهور شكواه بعد عرله من ولاية مصر بأقل من عام ، فقال له عثمان وقد سبه لما بلغه من تخريصه عليه : « ما أكثر ما قل جُرْبَان جِبْتك أى طوق جِبْتك وإعما عهدك بالعمل عامًا أول » !

فلا يبعد أنه أصاب شيئا من اميراث فألفق منه ما ألقى بعد يأسه من بحارة
احشة والشام . ولم يبق له عدد ولايته على مصر إلا اليسير

* * *

والاهتمام بسبب المترحم لهم واحب لارم في كل سيرة من السير . وهو في سيرة
عمرو أوحب وألزم لأن أثر الوراثة فيه أقوى من المعهود الشائع في العظماء عامة
وليس الأثر الذي استفاده من تلقين أبيه وفعل الرياضة انفسية بأقل من أثر
الوراثة التي لا اختيار له فيها

فمن أثر الوراثة مشابة عمرو لأبيه في الخليفة وخليفة . ولولا قوة الشبه في
اخلاقه لما عرفت نسبته الى أبيه وهو وليد

ومن المشابهة في الخليفة حبه لباي والسبادة . واعتداده بالعصبة ونحوه
بقبيلة

إلا أن المعمر لدى كان يؤبه من نفسه إلى أمه قد كان له من قوة الأثر في
تكوين فكره وتوجيه نفسه ما يعدل الوراثة ، أو يزيد .

فاحتياجه إلى مدارة هذا المميز . والعنة على من يقهره بكره الأمومة
هو الذي أعراه فبالغ في إغرائه بلال والرئاسة .

وشعوره بهذا المعمر هو الذي أعزأه عبده . وعنفه بمخره . وألججه باسمه
وسمعة لرائه .

وكان لا اعتداده بأبيه محل في تعويص إسلامه وتأخير شهادته للدين الحديدي
إلى ما بعد موته . وقد كان يعلم ذلك من نفسه ويجهز به إذا هوتج فيه . فسأله
رجل . « ما أبطل بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك » فقال . « إياك كنا
مع قوم لهم علينا تقدم . وكانوا من يوارى حلومهم الحبال . فلما بعث النبي
ﷺ . فأنكروا عليه . فلما هم . فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا بطرنا وتديرتنا .
فإذا حق نبي ، فوقع في قلبي الإسلام » !

بل أصبح اعتداده بأبيه اعتدادًا للعصية بالقبائل الأولى ، كمن فيه من أيام
جاهليته إلى ما بعد إسلامه . وعالجه أحيانًا فلم يستطع أن يحتثه من أصوله
وقع بينه وبين المعيرة بن شعة كلام ، فسه المعيرة ، فقال : يا آل
هَضِيض ! أيسبى ابن شعة ؟ وكان به عبد الله حاصرًا ، وهو من أتقى
لمسلمين ، وقد أسلم قبل أبيه . فقال : يا لله ! دعوت بدعوى القبائل وقد هبى
عنها ! فأعنت عمرو ثلاثين رقة .

وسمع معاوية مرة بأذن للأَنْصار ، فأحب أن يأذن للناس بأسماء قبائلهم
ويردهم إلى أسابهم

وكان من إعراره لأبيه وحضور العصية في ذهنه أنه فكر في الانتقام من
عمارة بن الوليد المخزومي لاحتوائه على تقبل روحته أمامه فلم يقدم على الانتقام
منه - وهما في طريق الحبشة - حتى بعث إلى أبيه أن يبعده لكيلا تحقق به أو بأحد
من أهله ترات العصية التي تدين بها القبائل فيما بينها .

وعصيته هذه هي التي أسسته أن الإسلام يهبط عن كراهة الدرية من
النسب . فأبى أئمة الخاهبة حين رأى معاوية يقبل ابنته عائشة . قال : من
هذه ؟ قال معاوية : هذه تفاحة لقلب ! فقال له : « ابسها عنك . هو الله إسن
ليلدن الأعداء ، ويُقرَّبَن البُعداء ، ويورثن الصعائس » . . .

ولاشك أن ألأم من ذلك المعز في سبته إلى أمه كان من أشد الخوف .
العصية تحتل في سريره ، وأصلحها لتفسير ميوبه وبدوات ومها الحسن والمفيد .
فقد كان خوفه من التعبير به عقل لسانه عن محش القول ، ويُلزمه سميت
الحد والتوقر من مخاطبة الناس .

ولم يبلغ حين اعتذر لمسمية بن مخلد ، وقد ناله بسابه في ساعة حدة ،
فقال له بسترصيه « ما أمحشت قط إلا ثلاث مرات ، مرتين في الخاهلية وهذه

الثالثة ، وما مهن مرة إلا عدت ، وما استحييت من واحدة مهن أشد من استحييت لما قلت ، ووالله إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة .

كدلت كان يتحرج من إسقاط هيئته ونسيانه سمته ، حتى قال عمر بن الخطاب وقد نظر إليه وهو عشي : « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا » .

مهي بلوى في طيها بعمة كما قال أبو تمام .

قد يُعَمُّ الله بالبلوى وإن عظمت
ويستلّي الله بعمس القوم بالثمم

• • •

ولم يحزم المؤرخون بتاريخ مولد عمرو ولا قاربوا لحرم فيه ، فهو عند بعضهم عاش سبعين سنة ، وعند بعضهم بلغ المائة

ورداً صرح أنه كان يذكر الليلة التي ولد فيها عمر بن الخطاب ، وأنه كان له يومئذ من العمر سبع سنين فالأرجح أنه ولد قبل الهجرة بسحو أربع وأربعين سنة ، حوالي سنة ٥٨٠ للميلاد .

على أن المؤرخين مختلفون في سنّ عمر بن الخطاب يوم وفاته ، بعضهم يؤكد أنه قتل وله من العمر خمس وخمسون سنة ، وبعضهم يؤكد أنه كان يومئذ في الثالثة والستين . ونحن نميل إلى الاقتراب من التاريخ الثاني ، لأن عمر رضى الله عنه كان يشكو الكبر في سنة وفاته ، ويسأل الله أن يقبضه إليه لأنه شاح وانتشرت رعيته ، والمرء في بنية عمر وقوته لا يشكو الهرم في الرابعة والخمسين أو الخامسة والخمسين ، لذلك لما بعد الستين وفق وأقرب إلى القول

وعلى هذا تكون السنة التي رحلنا ولادة عمرو فيها هي أقرب للتواريخ إلى المعقول ، ويكون عمرو قد جاوز الثمانين بسوات ولم يرتفع إلى المائة ، لأنه عاش

بعد عُمر عشرين سنة ، وولد فيه سبع سنين ، وقد كانت سنّ عمر عند وفاته
حوالي الستين فقد عاش عمرو بن العاص الى قرب من السابعة والثمانين
وإذا شككنا في سن عمرو يوم مولد عمر ، وحسناتها دون السابعة فهو إذن
قد تجاوز الثمانين بقليل .

ويسعون الى الشك في هذه السن أن اعتدّار عمرو من تأخر إسلامه باتباع كبار
قومه لا يقبل من رجل في نحو الخمسين ، وهي سنة عبد إسلامه ، وإن كان مع
ذلك ليستعرب حتى ممن بلغ الأربعين

وليس في نشأة عمرو من تاريخ يستوقف المرجح له بعد سنة ميلاده غير سنة
روحه . ويظهر أنه كان من المبكرين بالزواج ، لأن ابن قتية يقول « إن
الفارق في المولد بينه وبين عبد الله اثنتا عشرة سنة » وهو فارق غير معقول ،
ولكنه يدل على صغر سنه حين بنى بأم عبد الله ، وهي فتاة من قبيلة اسمها ربيعة
ست مئة بن الحجاج .

التعريف بعمرو بن العاص

التعريف بنشأة عمرو بن العاص ، مهيد لارم لتعريف بصفاته وطباعه ،
والتعريف بهذه الصفات والطباع مهيد لارم لتعريف بأعماله ومساعيه ، لأن
الأعمال والمسعى لن تنهم على حقيقتها إلا بفهم الطباع التي توحىها ، والبيات
التي تسبقها ، والغايات التي ترمى إليها . وقد تنشأه الأعمال والمساعي في ظاهر
الأمر وهي في الحقيقة مختلفة أشد اختلاف ، مفترقة كما يفترق الخير والشر أو يفترق
الرفعة والصفة ، راعما ساطد ذلك كله بالفرق بين باعث وباعث ، ولاختلاف
بين نية ونية .

وأدنى إلى القصد في هذه السبيل أن يُسم بالصفات وانطباع ، ثم ينتج الأعمال
الصادرة عنها مفهومة واضحة البواعث ولأعراض ، من أن يتم بالأعمال مهمة
متشابهة ، ثم يعود إلى تفسيرها كما يستخلصه من طباع صاحبها وبياته
لهذا بدأنا قبل سرد الأعمال بهذا التعريف الذي يُسبغ الدلالة على تلك
الأعمال .

* * *

ولمحموظ لنا من صفات عمرو والحسنة دليل ، ولكنه كاف إذا لم يكن بد من
الاكتماء بها بقسط له دلالة .

فهو كما يؤخذ من جملة الأقوال التي وصف بها . « أدعج ، أبلج وافر
اهامة . رُبعة ، أقرب إلى قصر القامة ، خصب بالسواد » عليه مهابة وشمال
بهاة وسيادة ، كما يدل عليه ما تقدم من قول عمر فيه « ما يسعى أن يمشی أبو
عد الله إلا أميرا . . »

وإذا حار أن يكون لهذا الكوين الجسدى أثر فى أخلاقه ودخائل طبعه ،
فذلك أثر آخر يعين أثر النسب المعمور من جانب أمه ، وهو القاس « التعويض »
بكل ما فى النفس من حول وحيلة ، وحصر مهمة إلى مكان يسطع فيه المرء سطوعاً
يدارى العمرى السب والنقص فى المظهر ، فيروع القلب بالسطوة والبشارة إذا
احترأت عيه العيون أول نظرة ، أو احترأت عليه الألسنة بالثلب والمهامة . رحل
منهم السب قصير ، ولكنه لا يصار بذلك فى مقام المحررين دوى الحبس
والبسطة من عطاء الرجال .

وإذا اعزم الرجل هذه العرمة ، وكان من أصحاب مهمة والشهامة ، أو ما
سميه اليوم بالقوة الحيوية ، فأخلق به أن يلع ما يهسو إليه وأن يذهب بعيداً فى
مساعاه الذى توفر عيه .

أما أن عمرا كان من أصحاب « القوة الحيوية » فذلك ظاهر من احتفاظه
محصور دمه ومضء عرمة ، إلى تلك الس اعالية التى تجاورها قوم التسعين ،
وم يهبط بها أحد إلى ما دون السعين ، فإنه ليحيش به هذا الطبع وقد أضاف على
الخامسة والأربعين إلى فتح البلاد ، وتقليب الدول ، واقتراح مساعى إلى الحد
ولرئاسة ، كأنه ناشئ لما يزل فى «درة انشباب ومسهن المعامرات والمخارقات فى
سبيل الشهرة والسلطان !

وقد وُصفت لما شارة عمروها وهماك ، فإذا هوى كل صبة من هذا القليل
عظيم العاية مما يروع الناس من هيئته ومهامة مرآه ، وليست مشيته التى شار إليها
العاروق بأقل ما احتفل به لتلك الشارة والمهامة

قال أبو مخنف : « حج عمرو بن العاصى مر بعد الله بن عباس ، فحسده
مكانه وما رأى من هيئه لباس له وموقعه من قلوبهم ، فقال له يا ابن عباس !
ما لك إذا رأيتى ربيسى القصرة ، وكأن بين عبيث «درة » ؟ (أى أعرضت
واروررت عني) فأحانه بن عباس حواناً مقدعاً فيه من الحرّة مثل ما فيه من

الدهاء ، وانتهى منه قائلا : « حملت معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطع بحلمه ، وتسمو بكرمه » .

ولم يشأ عمرو - وقد ذهب دور البفاحاة - أن يبره بن عباس في الدهاء ، فعاد يقول : « أما والله إني لمسرور بك . فهل يفغى عندك ؟ »

قال ابن عباس . « حيث مال الحق منا ، وحيث سلك قصدنا ! »

ووصفه بـحجير بن داحر المعافى وهو مقبل إلى لمسجد يحطب الناس يوم الجمعة فقال : « فأطنا الركوع ، إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يرجرون الناس ، فصررت . فقام عمرو بن العاص على المبر . وعليه ثياب موشية ، كأن به العفیان يأنق ، عليه حلة وعمامة وجة . . »

فهذه الأمية المقصودة ولا سيما قبل استقرار السلطان له هي أثر من آثار ذلك النسب المعمور وتلك القامة المحدودة .

. . .

أما صفاته السبية فبدأها بما وصف به نفسه ، أو يقول الرواة الذين وصعوه هذا الوصف ، وهم يدعون من المعرفة به ما يقول الرجل حين يصف نفسه بلسانه

روى هشام بن الكلبي أن أباسا لاموا معاوية على تقديمه عمرا ، فلمت ملامتهم ، فقال بعد استشهاده : « قد علمتم أنني الكثر في الحرب ، وأننى الصبور على غير الدهر ، لا أنام عن طلب ، كأنا أما الأهمي عبد أصل الشجرة . ولعمري لست بالوالى أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا يشاء لمن عصته ، ولا يرقد من لسعته وإن ما صررت لا فريت ، ولا يحجو ما شئت عرفى أصحاب يوم ليرير (محرب صعب) أنني أشدهم قلبا ، وأثبتهم يدا ، أحمى اللواء وأدود عن الحمى ، فكأننى وشائى عند قول الغائل

وهل عجب إن كان فرعى عسجدا إذا كمت لا أرمى لمأخرة العشب »

وهذا وصف صادق ، إذا أعصنا عن جدب المحر فيه ، مطابق صفاته النفسية التي تشهد بها أقواله وأعماله ومساغيه . وهي مجموعة محكمة من الصفات القوية ، لكسب على قوتها بسبب متناسبة ، يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هذه النفس العظيمة . وأعماقها جدا هو أظهرها جدا ! وهو الذي تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينصح على قسبات وجهه وحركات جسده . وهو الطموح إلى الهيبة والثراء ، وطسب السلطة في الحياء والمال . ما نخاله وقف في الطموح عد حد ، ولا فقد عن الخلافة وهو مختار ، بل هو قد طمح إليها وأعد عدته لإقصاء بني أمية عنها ، فلما أياسه مغر النسب ورجحان بني أمية على بني سهم في العصية انقرضية ، طوى الصدر عن كظم ، وقعد عنها وهو كاره يعرى نفسه بقوله المأثور عنه : « ان ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »

وكان سعيه إلى الرئاسة واثال باديا منه في الإسلام ، كما بدا منه في الخاهلية ، فلم يعرف له موقف قط نزل فيه عن الرئاسة باختياره .

فما بعث به النبي عليه السلام إلى عزرة ذات السلاسل ، أرسل في طلب المدد ، فجاءه المدد من المهاجرين ، وميهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح أمير ، فقال عمرو : « أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم ، فأنف المهاجرون أن يؤثروه وميهم من ميهم من جنة الصحابة ، وقالوا : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أميرنا . قال عمرو : إنما أنتم مدد مددت بكم . وأشفق أبو عبيدة أن يتحادلوا وهم على أمة الحرب ، فقال له : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى رسول الله أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاولوا ، وإيت إن عصيتي لأطيعك . قال عمرو : إذن أنا أعصيك . قال أبو عبيدة : وأنا أطيعك .

وعاد إلى متارعة أبي عبيدة الرئاسة والإمارة يوم أقدم أبو بكر رضي الله عنه على فتح الشام ، فسمى عبد صر ليقع الخليفة تأثيره على لألونة

جميعا ، وكان يوشك أن يملح في مساعاه لولا إكثار عمر لأبي عبيدة ، حتى لقد همَّ بمبايعته بعد النبي عليه السلام ، قال إنه ليستحمه بعده لو عاش .
وقد كان حب المال يملؤه ويتمكن منه ، حتى لم يبال أن يحميه ، ولم يرل يتكلم - كلما دعاه داعي الكلام - بما يكشفه ويم عليه .

سأله معاوية وقد شاخا وبطلت بدات الشباب عندهما : ما بقي من لذة الدنيا تلهه ؟ قال : محادثة أهل العلم وحبر صالح يأتي من ضيعتي

وفي حديث آخر أنه دخل يوما على معاوية ، وقد كبر ودق ، ومعه مولاة وردان ، عندا كرا الأيام ، واستطرد عمرو سائلا : يا أمير المؤمنين ، بقي لنا تستلذه ؟ قال معاوية : « أما النساء فلا أرب لي فيهن ، وأما الثياب فقد لست منها حتى وهي بها جلدي ، فما أدري أيها ألبس ، وأما الطعام فقد أكلت من لسه وطيبه حتى ما أدري أيه ألد وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل حياشيمي منه حتى ما أدري أيه أطيّب . فما شئ ألد عدى من شراب بارد في يوم صائف ، ومن أن أنظر إلى نتي وبني سي يدورون حولي . فما بقي مث يا عمرو ! » فقال : « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وعلمته ! » .

وقد اشتهر به هذا الحب للمال حتى عرصه لظنون الخفاء واحداً بعد واحد . فقاسمه عمر ماله ، وعمره عثمان من ولاية مصر وهو يحسب أنه قد استأثر بحراجها دون بيت المال . وقال له معاوية يوما وهو يذكر له الحساب والعقاب والأوزار التي يثمل بها ميزان السيئات : هل رأيت شيئا من دنابر مصر ؟

ومن ثم تسبق الرواة في تفريغ ثروته يوم وفاته ، واعتدل صاحب « مروح الذهب » في وصفها بعض الاعتدال ، وبالع صاحب « حياة الحيوان » فقال : أنه حلف « سبعين سارًا دنابر » والهار من حلد الثيران ، قبل إنه سمع ردين !

ولقد كان النبي عليه السلام يرى الناس هذه الصفة في عمرو بن العاص قبل أن يعرفه المسلمون أو المشركون بطول المراس وتعايب لأعماه والمساغي وتفتق

المطامع والآمال ، فولاه الإمارة في غروة ذات السلاسل ، وقال به وهو يعرضها عليه « إلى أريد أن أبعث على جيش فيسُمك الله ويعُمتك ، وأرعب لك من المال رغبة صالحة »^(١) فأحابه عمرو ، وهو يشفق أن يرضى السى بإسلامه الظنون : « يا رسول الله ، ما أسلمت من نحل المال ، بل أسمت رغبة في الإسلام » فهو عليه النبي ما حامره من الطر ، ودفع عنه وهمه وهو يقول : « يا عمرو يعماً بالمال الصالح للمرء الصالح »

ثم عهد إليه في ولاية الصدقة بعمان ، فقيت له إلى أن تولى أبو بكر خلافة مرعته فيما هو خير بها

وطل الرجل يسائل نفسه عن حقاره السى به إلى آخر حياته . عروى الحسن البصرى أن بعضهم قال له أي عمرو - أرايت رجلاً مات رسول الله ﷺ وهو يحبه . أليس رجلاً صالحاً ؟ قال بلى فقال محدثه قد مات رسول الله ﷺ وهو يحبك ، وقد استعملك قال بلى فوالله ما أدري أحياً كان لي منه أو استعانة لي .

□ □ □

ومن خصائص هذا الطموح الذي لزمه من صباه إلى حتام حياته ، أنه كان كما رأينا طموحاً قائماً على مطالب الواقع في بوعته ومراميه . فكانت نظرتة إلى الدنيا نظرة عملية معروفة بالموارد والمصادر ، ولم تكن تلك لنظرية خيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من دوى الطموح

ومناط الرجحان في تلك النظرة العملية إنما هو للأخذ بالأحوط والأضعف في كل أمر من الأمور . ما كبر وما صغر ، حتى ليكاد الأحوال والأضعف أن يكون عنده مقياس للحق أو بصحة الأشياء على نحو يشبه مقياس القائلين بفلسفة الدرائع Pragmatism في عصرنا الحديث .

(١) الرغبة من المال بالفتح والنصب . الدعة والمقعدة

هم يعرف قط حكما من أحكامه في أحلّ الأشياء فارقته تلك النظرة العملية ،
أودلك المقياس لموكل بالأحوط والأمنع في ترجيح جانب على جانب وطريقة
على طريقة .

وحديث من حلائل الأحكام في أعظم مطالب الحياة حكمه في مسألة
المقيدة الإسلامية وحكمه في مسألة الخلافة ، وهما أعظم ما عرّض له من
المشكلات التي تتطلب إرجيح والتفصيل . وكلاهما قد حكم فيه على سعة
الأحوط والأمنع بين مختلف الوجوه

فلما استراب المشركون في ميله إلى الإسلام أوفدوا إليه من يسأله في ذلك ،
فلم يكاشفه بالحقيقة لأول وهلة ، بل واعده إلى مكان منفرد وقال له : أشدك
الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك ، نحن أهدى أم فارس والروم ؟
قال صاحبه اللهم بل نحن فسأله : أيعجز أطلب معاشا وأوسع ملكا أم
فارس والروم ؟ قال صاحبه بل فارس والروم فقال عمرو : فما ينعما ففصد
عليهم في هدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمرا ثم عاد فقال قد
وقع في نسي أن ما يقول محمد من العث حق . ليجرى المحس في الآخرة
يا حسنه والنسيء بإساءته هـ يا ابن أخي الذي وقع في نسي ولا خبر في
التمادي في الباطل

وحلاصة هذا البرهان العملي أن الإسلام أصح للعرب وأصح لنديا
والآخرة ، فهو أحق بالتصديق وأحدر بالاتباع .

ولست في مشتجر الخلافة لا يميل إلى طرف من أطرافها ، حتى انحسر الخلاف
كله عن حريين اثنين لا ثالث لهما ، هوجب عنه أن يخرج من عرته ليصر أيهما :
وهما حزب عليّ وحزب معاوية .

فلما برئ به عبد الله ومحمد فقال لهما : إني قد رأيت رأيا وستا بالذين ترداني
عن رأبي ، لكن أشيرا عليّ : إني رأيت العرب صاروا عريين يصطربان ، وأنا

طارج نهي بين جراري مكة . وست أرضي هذه استرلة ، هي أي المريقين
أحمد ؟ قال له عبد الله ، وقد عمدنا تقوه . إن كنت لابد فاعلا فإني على قول
إني إن أتيت عليا يقول لي : إني أنت رجل من المسلمين . وإن أتيت معاوية
يخطبي بنفسه ويشركني في أمره .

وعلى هذا الأساس في التفصيل بين الطرق سبب أحب الطريقين إليه
وأجدرهما عنده بالاتباع

• • •

وأعده على هذه نظرة العملية أنه كان مالكا لرماء شعوره ، أمّا أن تُصنَّه
للماسة من ناحيتها أو يصله الحان من ناحيته قائما بعقله على جماعات
المأظمة كما سمها اليوم . أو كما قال هو : « أبلغ الناس من كان رأيه رذًا لغيره .
وأشجع الناس من رذَّ جهنه بحلمه »

هيس في حوامع الشعور ما هو أشد جهاحا ولا أقرب أن ينفلت من فضة
العقل من عصاة العيود على عرصه ، أو حنان الراقف على جثة أحيه ، أو نحوه
المتصدى للقتال بين معسكرين ، هي هي الحوامع التي قلَّ أن تُرصد وأن تثوب
على المشيئة إلى قوام .

وبكن عمرا قد راضها كلها على ما أراده في حبها وبعد حبها وكاست رياضته
ها وهو في عنوان الصبا كرياضته لها وهو في أوج الكهولة قد ناف على
الأربعين .

حرح مع عمارة من الوليد المحرومي إلى أرض الحبشة تاحرين ، وكان عمارة
مولعا بالخمر والساء ، فشرب وهما في السفينة فانتشى ، ونظر إلى امرأة عمرو نظرة
اشتيا . ثم همَّ بتقيلها بل وما إليها أن ثقله في قون صريح . فقال ما عمرو ،
مقيا ما يكون من رجل سكران بين الماء والساء . قبلي ابن صمك ! فقتته
لم يرد ذلك عمارة إلا بعراء بالراودة ، وحرارة على القمعة ، وبع عمرا على حافة
السفينة - وهو سكرة من سكرته - فدفع به إلى الماء يظنه غير قادر على

الساحرة ، كما يعلب بين نساء البادية . فسبح عمرو حتى بجا . وسمع عمارة وهو يقول له غير أنه يحقده عليه . أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحبس الساحرة ما فعلت ! فإذا هو قد جمع سوء النية بخيانته إلى سوء النية بعرضه ومع هذا كله كظم عمرو ما بنفسه . وظل يصبره حتى تمكن من الكيد له عند المحاشي .

فأرسله في الغراء مخبولا يعيش في العربة عيش لأوايد حتى مات . . !

واشترك عمرو وحوه هشام في حرب لثام . وأخوه هذا من علم الناس في الصلاح وصدق السلاع . فإذا ثلثة في الطريق يحفظ احد دعوى من يهجم عليها بالسيف . فهاها العرب وأحجموا عنها . وصال تردددهم بينها . فإذا هشام يقده عليها وهو ينادى في الخيش . يا معشر المسلمين إلىّ إلىّ ! أنا هشام بن العاص ! أمس حبه تفرون ؟ وما ر . يتقدم حتى خرفتيلا متعرضا في ثلث التهمة المزهونة . فلما انتهى المسمون إليها هابوا أن يلوموه كرامة له ولأخيه . فكان عمرو أول من تقدم فدسه وهو يصبح يجده . فيها الدس . إن الله قد استشهد به ورفع روحه . وإنما هي جثة . ثم أوطأه وتبعه الناس . حتى تقطع وهو مشغول عنه بما هو أحدثي وأعظم . فلما انتهت الهرعة عاد إليه وحمل يجمع خيمه وأعصاءه وعظامه بيديه . ثم حمّله في نضع هواراه . !

وبرر على بن ن هالك يومئذ في حومه صعب . وقد طار أمد القتال . فقال يا معاوية ! علام يقتل لدس ؟ ابرر إلىّ أو أبر . لنت . فكول الأمر من عيب وحاء في روبات شائعة أن عمر قد ل المعايبة يومئذ . والله لقد أنصفت الرجل . فطل معاوية أنه يعرر به ويدفع به إلى هلاكه صمعا في دولته . فاقسم عليه ليحرر في الساررة التي عراه بها . فلما عشي على بالسيف رمى نفسه إلى الأرض وأندى له سوءته . فحضر على وجه غرسه وانصرف عنه .

وكل هذه أحوار موافقة بخيل بيتك برك بن العاص وهو يمعنها ويروص وقائعها بإصاة الرجل الذي يعتر بقدرته على هواه . وكأنه يألف لدهانه أن يعبر سروب الساعة كما يعبرها سائر الناس . وكلها تعبر عن حقيقة لاشك في صدورها

عند ابن العاص . وقد تمارى اسد في صدق الروايات . وبنى بها حليقة لظرة
العملية وعلبة العقل على الشعور

ولا شك أن استحصار هذا « الخلق العملي » لآراء حد للمؤرخ في كل
خطوة يعطوها مع عمرو بن العاص في أحوجه لفرديّة وأحواله العامة . لانه يرى
من مراحله إلى سياسته وطريقة انتدابهم بين وبين الناس . سواء كانوا من الرملاء أو
الرعية أو الأعداء . وفيها تظهر لطريقته التي يفتتح بها لرحل من شيء كما تظهر
من الطريقة التي يفتح بها الآخرين .

انصر مثلاً إلى الفرق بينه وبين غداة بن الصامت في إنباع عطية القبط بقاء
العرب في مصر . وأنهم لن يتركوها وقد دجنوها . ولن يرجعوا عن فتحها جميعاً
لرعة في رشوة ولا لرهة من قوة .

فإن عبادة بن الصامت لم يرد على أن احتقر انديا حين حوّل المقوقس عبدة
الأعصاب في يده . فكان تأكيد حب لآخرة هو محور كلامه حين قال : إن عبدة
أحدنا من انديا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليلة ونهاره . وشمة يلتحمها . فإن
كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كعبه . وإن كان له قطار من ذهب أبعقه في طاعة
الله واقتصر على هذا الذي بيده . بما النعيم والرحمة في الآخرة . وبذلك أمرنا الله
وأمرنا به نبيا . وعهد إلينا لا نكون همة أحدنا من انديا إلا ما يمسك حوزته
ويستر عورته . ونكون همة وشعة في رصونه وجهاد عدوه

أما عمرو فإنه وقف مثل هذا الموقف فلجأ بن الصعام بفتح عطية انقط بأن
العرب غير قادرين مصر وقد دخلوها

« أمر كما جاء في الطبرى - بخر - فدخلت . فطبحت بالماء والملح . وأمر
أمرء الأحاد أن يحصروا . وأعمى أصحابهم وحلّس وأذن لأهل مصر
وحىء بالبحم ولمرق فظافروا به على المسلمين . فأكلوا أكلا عرييا . تشلوا وحسوا
وهم في العناء ولا سلاح فاهرق أهل مصر وقد ارد ذو ظمعا وحرارة . ثم

بعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من العدد . و أمرهم أن يجثرو في ثياب أهل مصر وأحديتهم . و أمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك . ففعلوا . و أدن لأهل مصر . فزأوا شيئاً غير مألوف بالأمس . و قام عندهم القوم بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر . و أخذوا بحوهم . فاعتزرو و قد ارتأبوا و تابوا . كذب . و بعث اليهم أى إلى أمراء الجنود أن تسلحوا للعرض عد . و عدل على العرض . و رد عليهم معرضهم عنهم ثم قال . إلى قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم فتفقد العرب و هوون ترحيتهم . فحشيت أن تهكوا . فأحست أن أريكم حاتم و كيف كانت في أرضهم . ثم حاتم في أرضكم . ثم حاتم في أرضكم . فحشيت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني و راجع إلى عيش اليوم الأول .

وإن هذا انصرف من البرهين لقائم عنده هذا . لا يأتي عرضاً في حادث من الحوادث ثم ينقصى بانقصائه و كثير ما ذكر الطعام وهو يلحقاً إلى الإقباغ . فكان من كلامه « أكثروا الطعام . فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم . و ما مصيت عرمة رجل بات بطينا »

بل هو يقوم الأخلاق والمصائل بقيمتها العملية وفائدتها المسموعة . فانهل مثلاً قصيدة جميلة محبوبة . و لكنها عند عمرو محبوبة لأنها سياسة حسنة لتوفير المال كما قال : « لا رجال إلا عمار . ولا مال إلا عماره . ولا عماره إلا عدل » و ذلك لشأنه في تقوم كل قيمة . و نقصيل كل قصيدة

• • •

و في أخلاق عمرو « عقيدة مسموعة » لا تمت تصادفنا عند المفاصلة بين متناقضه . كما تصادفنا في جميع العطاء من أمانته وأشباههم في الطبيعة والملكة . و معنى هم أولئك الذين يلتقي بهم الطموح والحركة ووسط التمس في سبيل المتطالب التي

يطمحون إليها ، فما مهم أحد إلا وجدت له نقائص من الحذر الشديد والاندفاع الشديد ، ومن ضبط النفس كأنه لا يعرف جمادات الشعور ، ومن المجازفة كأنه لا يعرف الروية . وهي نقائص في الظاهر وليست بنقائص في الحقيقة ، لأن قوة الطموح تعمس لنا النقبصين ، فإذا هما مستمدان من ينبوع واحد وهو قوة الطموح . إذ أن هذه القوة الطامحة لا تزال مُحَصِّرة له الأمل شاخصاً باهراً نصب عييه ، فيهرب عنه أن يكبح شعوره خارج في سبيل الوصول إلى أمه العظيم ، أو في سبيل المحافظة عليه بعد الوصول إليه .

لم تفر الكبح على هذا الطامح لقوته فبلمس الروح منه والمتمس من قيده بالمجازفة ، كما يتوق الصائم إلى العيد ، والفرس المنجم إلى المراح فساعة المجازفة هي ساعة التسريح من القيد ، وهي ألزم له من حالة التوسط التي لا هيد فيها ولا انطلاق .

وقد كان الذين يعرفون عمراً بالدهاء وكبح الهوى ، يعرفونه كذلك بالاندفاع والمهجوم على المهالك ، فقال عثمان بن عفان رحمه الله عنهما : « إن عمراً لحريء الحنان ، وهو إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن تخرج في غير ثقة فيعرض المسلمين لهلكة » !

وشاعت عنه روايات في المجازفة ، يحبس إليك منها من أطوار الخفايين أصحاب الخيال ، لولا أن العقال يفرى بالانفلات من ربقته ، فيقدم الرجل الخذور على شطحات قد يحجم عندها صاحب الخيال المشبوب !

قيل إنه تعرض للموت مرات ، لاقتحامه الحصون على أعدائه في هيئة رسول أو محارب من عامة الجندي جيش المسلمين . فلما طلب وإلى قيسارية رسولا من العرب يكمه ذهب عمرو إليه ، فأعجب الرجل بحديثه وعقله ، وخطر له أنه قد يكون أمير العرب فيستريح منهم جميعاً بقتله ، فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث إلى البواب . إذا مر بك فاصرب عنقه وحد ما معه قالوا :

وثبه عمرو ، أو شهه أحد بنى المكيدة ، مرجع إلى الوالى يقول : نظرت فيما أعطيتى فلم أجد ذلك يسع بى عمى ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خير من أن يكون عند واحد فقال : صدقت ! عجل بهم . وبعث إلى الوالى أن حل سبيله

وروا عنه فى الإسكندرية قصة تماثل هذه القصة ، وهى أنه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ، لم ارتدوا وبقى هو وثلاثة من أصحابه ، فعرض عليهم الروم أن يخرجوا إليهم ليعارروهم واحدا لواحد ، فتصدى هو للمدبرة ، بولا أن يمنعه صاحبه مسلمة بن مخلد ، ووقف دونه وهو يقول له : ما هذا ؟ تخطئ مرتين ، فتشد عليك أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة بحرك ، لا يدرون ما أمرك حتى تبارر وتعرض للقتل ، فإن قتلت كان ذلك نلاء على أصحابك . مكنت وأنا أكملك إن شاء الله . . .

قانا ومثل بين يدى البطريق فعجب هذا من أنعمته وقوة حواره ، فالتفت إلى من فى مجلسه وقال هم بايونانية : يظهر من أفعه هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وحوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم فلا يسعى أن يتحلل عن قننه . وكان مولاه وردان يهم اليونانية ، فأحب أن يريهم خطأهم ، ويرى هم أن الذى يكلمهم إنما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع إليه فلطمه صائحا به : ما أنت ولهذا بالكعب ! دع هذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه ! فكانت هذه النطمة سبب نجاته .

وردت عنه روايات أخرى من هذا القيل ، إن صحت كلها ، أو صح بعضها ، أو كانت كلها احتراعا من تلميذ الرواة ، فالدلالة التى لاشك فيها على كل حالة من هذه الحالات أن الرجل كانت له شهرة بالمحاربة تفصل فيها أمثال هذه الروايات ، وتدعو إلى تلميحها بما يشبه الواقع المعهود من أخلاقه . وهو نفسه كان يقول ما يرم على هذا الحسن فيه ، فهو القائل : عليكم بكل أمر مرلقة مهلكة ،

ولعله لم يصح بكلمة من كلماته عن صيفه بقيود الحكمة والسمت وكبح
 الهوى ، كما أفصح عنه بقوله وقد سئل عن أمتع اللذات ، إذ قال : « إسقاط
 المروءة » !

هذه كلمة الرجل الذى تقيد بالوقار ، حتى أصبح طرح الوقار عنده عاية ما
 يستغنى من اللذة ويشتاق إليه ، وتقيد بكبح الهوى حتى أصبحت محاربة فى المراتل
 المهلكة هى فرحة نفسه من ذلك الحجر الذى ضربه عليها .

أفحقون إذن إنه شجاع مقدام ، أم بقول إنه جبان حذور ؟

بل نقول إنه شجاع كما قال معاصروه وقد شهدوه فى مواقف لاستبسال وآرق
 الحرب والصرع ، وكما يعود حقوب إن شجاعته وكل فضيلة فيه إنما كانت فى
 خدمة طموحه إلى المجد الذى كان يسعى إليه ، فهو يصن شجاعته أن يبلطها فى
 غير طائل ، ويتحداها وسيلة إلى عانة ، ولا يجعلها هى العاية التى تنقطع دوما
 الوسائل

وقد سأل هو صاحبه معاوية يوماً : « والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع
 أنت أم جبان ؟ » فقال معاوية :

شجاع إذا ما أمكنتنى فرصة وإن لم تكن لى فرصة فجبان
 ويمثل هذا الخواص يستطيع عمروان يجيب من بسأله مثل ذلك السؤال ، إلا
 إنه كان أحوح إلى الوثوب والمخارعة من معاوية ، فقد كان نسب معاوية
 ومكانته فى بنى أمية مع طول استعداده للملك مُعَيَّبا له عن عجة الوثوب
 والمخارعة ، من حيث لا يستغنى عنه عمرو وهو مغفور النسب ، بخدول العصبية ،
 مضطر إلى إدراك مطلبه قس أن يهونه ، فلا تسع لإدراكه ساعة أخرى
 ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية ، كما قال مرة وهما يتساءلان عن
 العقل قال معاوية : ما سع من عقلك ؟ قال : ما دخلت فى شيء قط إلا
 نخرحت منه فقال معاوية : لكى ما دخلت فى شيء قط وأردت الخروج منه

كل منها بدهائه شفه . عمرو في قتحام الطموح المعاصر ، ومعاوية في تودة
المستقر الوائس ، وعمرو في دفعة العقريّة ، ومعاوية في رويّة التدبير الطويل .
ولعل هذه الحيلة الخاصة التي كانت تجود بها عقريّة عمرو كحافظ
البرق في المآرق المطبقة ، وهي التي كانت تزيّن له الهجوم على المورد وهو واثق
من قدرته على الصدور ، فكان في محارفته شيء من الحيلة المجهولة ، تنقّي مجهولة
حتى تعلم في الوقت المقدور ، فإذا هي مسعفة لا تحب رجاءه فيها واعتياده عليها
ولقد أحصى العرب دهانهم في الإسلام ، فعدوا أربعة هو مهم ، وحلوا
لكل مهم مزنة يمتارها في دهائه فقلوا ، إن معاوية للزّرية ، وعمرو بن العاص
للديبة ، والمغيرة للمعضلات ، ورياد بكل صغيرة وكبيرة

ونظراً لو تكلم العرب باصطلاح هذه الأيام لقالوا : إن حيلة عمرو هي
حيلة العقريّة المطاعة التي تعتق له من حيث يعلم ولا يعلم وآيتها أنها عقريّة معبرة
نهم الخاطر السريع ونهم التعبير عنه في كلم وحبر . وهذه هي العقريّة التي
يحتلظ أمرها أحياناً على من يراقبونها فيتهمونها بالطيامة ، ويرمونها بدفعة الثور ،
لأنهم يسلسلون أساسهم في مطء وتثاقل ، وهي تسلسل أسبابها في سرعة وخفة ،
هيدوها ما يظل حافياً عليهم متبسة في أعينهم ، وبولا أنها واضحة عند صاحبها
كل الوضوح لما تسي له التعبير عما بأسوب يلائم ومصاتها في السرعة والنفاد
قيل لعمرو ما العقل ؟ قل : الإصابة بالظن ، ومعرفة ما سيكون بما قد
كان .

ودلك هو الظن الذي يقول فيه القائل :

الألتمى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعاً
والأصح أن يقال إن التعريف بالعقل هنا هو التعريف بعقل عمرو نفسه ،
لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التحمين واليقين ، ويأخذ من أمامه
باسطرة الخاطفة ، فإذا هو قد وصل ، والذي أمامه لا يراى تتحرى سبل
الوصول .

قيل في غير الرواية التي قدمناها إنه هو الذي وصف نفسه ووصف الدهرة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وأنه اجتمع مع معاوية بن أبي سفيان مرة فقل له معاوية : من الناس ؟ فقال أنا وأنت والمعيرة بن شعبة ورياد قال معاوية : كيف ذلك ؟ قال أما أنت فالتأتى ، وأما أنا فالبديهة ، وأما المعيرة فالحضلات ، وأما زياد فالصغير والكبير قال معاوية ، وأما دانيك فقد عابا ، فهات بديهتك يا عمرو ! قال : أو تريد ذلك ؟ فأجابه نعم ، فسأله ان يُخرج من عنده ، فأخرجهم . فقال عمرو . يا أمير المؤمنين ، أسارك ، فأدنى معاوية رأسه منه . فقال عمرو : هه من داك ! من معا في البيت حتى أسارك ؟ وتصيح هذه الواقعة أو لا تصيح ، فيها يستويان . يد العرص الذي ترمى إلى إثنائه صحيح . وهو أن تفكير عمرو تفكير بديهة حاضرة ، وأن تفكير معاوية تفكير روية بطيئة ، ومرجح ذلك كما قدمنا إلى سير . أحدهما أصيل والآخر عارض ، فالسبب الأصيل أن عمرا يصدر عن وحى البقريّة ، وأن معاوية صاحب عقل من العقول الوسطى التي أفادتها المراتة وتمثلت أمامها قدرة الآباء . كأنها السُّحل المحفوظ الذي ينقل عنه نقل المحاكاة . والسبب العارض أن عمرا مضطر إلى الوثوب والافتحام ، لأنه لن يُفتح له باب غير افتحام . أما معاوية في موضعه وانتظار ساعته على هيئة ووثوق ، فإن وصل فذاك وإن لم يصل فأندى في يده يعني ، والعجلة لا تغني عنه ولا تنفعه كما تنفعه الأناة

• • •

والبديهة الحاضرة في أعماق عمرو لا تخصي شوهدها ، فإنها تلادمه في جميع حالاته ، ولا تبدو منه في حالة دون حالة تدكيها لآرق والخوف من الخطر . ولا نحمدها الطمأنينة والأمان في سرية ويستخدمها لغيره كما يستخدمها لنفسه كما شاء

خرج نمرس بالليل وهو أمير على مصر ، فسمع أناسا يقعون فيه ويتوعدونه ، وعلم أنه إن تركهم إلى عده م يعرفهم ولم يظفر بأجمعهم فأقل عيهم إقل

الحائف الطريد ، وأورهمهم أنه يلود بهم ويصرع إليهم ألا يسلموه إلى الأمير لأنه يتعفه ويمس في طيه ، فاستقوا إلى تقييده وساقوه إلى باب قصره لا يتحلف أحد منهم طمعاً في المثوبة ، فأوصلهم إلى حيث أراد !

وقتل الروم رجلاً من المسلمين حول الإسكندرية ، واحترقوا رأسه وانطدقوا به إلى داخل الحصن ، فأقسم أبناء قبيلته لا يدهن إلا برأسه . قال عمرو : تتعصبون كأنكم تتعصبون على من يبالي بعضبكم ! احمّلوا على لقوم إذا خرجوا ، فاقتلوا منهم رجلاً ، ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم . فلما فعلوا إذا برأس صاحبهم يسقط عليهم . فقال : دويكم الآن فادفنوه برأسه

أما البديهة الخاصره في تعبير عمرو ، فمسطوره الشواهد في مساحلاته وأحويته ورسائله وأوصافه ، فهي جميعاً مثل من أمثلة الإيجاز والمصء ، كأنها صرت من الاختزال لولا أنها وضحة وضوح التفصيل وقد رويت له مقطوعات من الشعر تسلك بين طبقة من الشعراء ، لولا أن كلمات البديهة التي نثرت عنه قد علت على نظمه ونثره ، فكانت أولى بالدلالة على العارضة القوية فيه ، وهي أنسع ملكاته . وحسبك من نبوع هذه الملكة فيه أنها كانت ضد الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه قال : آمت بالله ! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !

* * *

وإذا اجتمع للرجل ذكاء ماض ، وعزيمة ماضية ، ولسان ماض ، وهوى يفيض في رماحه ، وبشئ بعد عرامه ، فذلك الرجل الذي يحسب له حساب في كل زمان وجد فيه

ولكنه أخرى أن يحسب له كل حساب في أيام الفن والقلائل واختلاف الدهاوي والحقوق ، لأنه يستطيع التعرّي والتوهم ، ويستطيع التأنيب والنصيب ، وحسب جده أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله في غيبة الشيع والأحزاب جده عسير .

لهذا لم يظهر عمرو بن العاص شأنه دويال في الترشيع للحلافة بعد الفاروق ، بل عُدَّ دحوله في هذا الأمر من الفصول والتظاهر بما ليس من قدره . فلما اجتمع رهط الشورى في بيت عائشه لانتخاب الخليفة أفضل هو والمغيرة بن شعبة فجلسا بالدب ، فحصى سعد بن أبي وقاص وأقامهما من مكائهما وهو يهرأ بهما قائلا : تريدان أن تقولاً حضربا وكنا في الشورى ؟ !

فما زالت الأيام تدور دوراتها حتى أصبح هذا المحسوب الذي استكبر عليه الخنوس باب أهل الشورى ، فإذا هو قلة القُصَاد في مشكلة الخلافة ، وكل من عداه لا تدون بالأبواب . . !

ولا نغتم الكلام في التعريف بعمر وحقى يومئذ إلى تعريف له طريف من كلام مجاهد عن الشعبي عن قبيصة عن جابر في رواية النجوم الزهرة ، حيث قال بعد كلام في وصف عمر من الصحابة . . . وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت أنصع ظرعا منه ، ولا أنكرم جيسا ولا أشبه سريرة بعلاية منه !

والطريف في هذا الوصف مشابهة السريرة والعلاية في الرجل الذي لم يشتهر بشيء . كما اشتهر بالدهاء

فهل فرط الدهاء حيل إلى الرجل الذي وصفه بذلك الصفة أنه أشبه الناس سرا بعلاية ؟

أو هو الصدق رآه الرجل الطيب بوصفه كما رآه غير ميان عن يستعرب هذه العريية أو تخمره الشكوك فيها ؟

إساق الحق لا يستبعد أن يكون عمرو بن العاص شبيه السر بالعلاية في جميع الأمور التي لا يعيه أن يكتبها أو يود فيها تحييطه ودهائه !

فقد عهد في كثير من الدهاء أنهم يطلقون بالحديث ، ولا يتحررون من

الصراحة و أخطر الأمور . وقد أثر هذا من بسمارك كما أثر من بيكنسفيلد من
دهاء الأوربيين في الزمن الأخير

ومعظم هؤلاء الدهاة يحبون إرسال العرس على السجية ، ويشبهون المهرة من
اللاعبين الذين يلعبون « على المكشوف » ، كما يقولون في عرفهم ، ثقة منهم
بالقدرة على الإصابة والسداد ، أو يشبهون الفارس الذي يخلع شِكَته من حين إلى
حين مباهاة ببأسه واقتداره ، ولا سيما إذا كان هؤلاء الدهاة ممن امتزجت بهم نزعة
المعامرة والطموح العبد

ويلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية عن التخصيص أنها كانت في الصلة
التي بينهما يؤثران اللعب على المكشوف ولا يصيغان الوقت في وراء برعانه ولا
يمهلانه . وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لا مهادنة فيها ، فقال له :
« أتري أننا خالطنا علناً بفضل منا عليه ؟ لا والله ! إن هي إلا الدنيا تنكأ
عليها وإيم الله لتقطعن لي قطعه من ديباك أو لأنا بئسك . . »

وعلى هذا الخط كانت المساومات بينهما في معظم الأحاديث المروية عنها ،
فإذا عمد أحدهما إلى الدائرة لم يبت أن يرتد إلى صراحة وقد رأى عين صاحبه
واقعة على أحسن حماياه !

غير بعيد إذن أن يكون عمرو من الظرفاء الصرخاء في أحاديث المجالس
وعروض الكلام المشاع ، وليس في شيء من هذا ما يناقض صفته التي خرجنا بها
من جملة أحواله ومساغيه ، وهي صفة الرجل العملي ، الطموح ، المدكى ،
الذي يكبح هوه ، وينفقت منه بين الحين والحين في نوبات محازفة ، تغره بها
وثبات العفوية وضرورة الانقحام ، ويهونها عليه اقتداره على رد الزمام إلى يديه ،
وامتناع الحيلة المسعفة حيث شاء

(١) ادو مون بسمارك منشور أناتيا وموحد شعربا في سنة ١٨٧٠ ويكنسفيلد رئيس الوزراء
الذي كان المشهور باسمه الأول جيامون دراهم

من التجارة إلى الإمارة

من الطمع الكثير أن تتطلع إلى تاريخ مفصل لطفولة عمرو بن العاص ، أو لطفولة عظيم من عظماء عصره في البلاد العربية خاصة ، لأن أبناء العصور القديمة قلما حفلوا بالطفولة أو حفلوا بأخبار الرجال - كبارهم وصغارهم - إلا بمقدار اتصالها بالحوادث الجامعة . فهم حينئذ يدحون في حيرة التاريخ ويدكرون في سباق الحوادث التي فهم بها اتصال

ولكننا نستطيع أن نقول على ثقة إن عمراً الطفل قد تعلم كل ما يتعلمه أطفال العرب المقيمين في الحاضرة ، لأنها السنة العامة التي لا موجب للشذوذ عنها . ولأننا نعلم ذلك وزيادة عليه من أخباره وهوى صور الشباب والكهولة ، فعلم أنه كان يحبس ركوب الخيل والسباحة ، ويحس الصرب بالسيف ، ويظم الشعر ، ويعرف الكتابة كما كان يعرفها نفر من أبناء التجار النابيين الذين يرشحهم بأولهم للعمل في التجارة

وقد عصمه اعتزازه بالنسب أن يظم الشعر للتكسب بالمدح والهجاء على عادة « المحترفين » من شعراء زمانه ، وإنما كان ينظمه للتنفيس عن نفسه ، ويحرق به حاطره كما كانت تحرق به حواطر الوجوه من رؤساء العشائر في معرض العظمة والاعتبار

والظاهر من أخبار شأنه الأولى كما أسلفنا أنه بكر بالروح لأن الفارق بين سه وسن إليه عيد الله غير كبير . ومن ثم يجوز لنا أن نعلم أنه ستقل بمعيشته وهوى ميعة الشباب ، ولا سيما إذا ذكرنا أن أمه لم تكن سيدة الدار في كتف أبيه وربما تزوج العتي الناشئ من أهل البادية ، ولم يستقل بالمعيشة بعد زواجه ، لأنه يعمل هو وروجه في رعي الإبل له ولأبيه في محلة واحدة .

أما العري الناشئ في المحصرة فلا لعب لأعم أن يستقل بيته وعمه بعد رواجه ، ويصدق هذا على عمرو خاصة ، لأنها لم تقرأ من أحاده وهو عامل في التجارة أنه كان يصحب أباه في رحلاته إلى الحشة والشام وربما دل على استقلاله معيشته البتة أنه كان يصطحب روجه في سفره ، كما جاء في أنساب المشهور عن إحدى رحلاته إلى الحشة ، وأنه وكذلك دليل على شيعة حارمة غير لاهية ، جذيرة أن تصطلع بأدب الأسرة ، ولا تعيث في العربة عيث الإباحية التي شاعت بين فتوة الدهلية

وقد دل في شبيبته بين الحرارة والتجارة ، وظل يداول بينهما إلى ما بعد إسلامه وانقضاء صدر من الإسلام ، إن قيام الفتنة بين علي ومعاوية ، ففى مشاورته لولديه بين اللحاق بهذا أو بذاك ، كان يشكر معيشته بين جرارى مكة ، ويطمح إلى مقام أكرم له من هذا المقام

وللتجارة في سيرة عمرو شأن أعظم من شأن المرتزق أو الصانع التي يكسبها مؤونة عيشه ، لأنها ولا ريب كانت مدرسته الكبرى التي نعلم فيها ما تعلم من أحوال الحياة وحلائق الناس ، بل كانت مدرسته الكبرى في السياسة والفتوح من سياحاتها تلتى علمه الأول عن الأمم والبلدان ، ومن سياحاتها تعد إلى عيوب الحكم وموانع الخلل في الدول التي كانت له يد في الإشراف بفتحها وسوق الحيوش إليها ، ونهوى الأمر على الخلفاء حين حارهم التردد في القدره عليها

وكانت سياحاته التجارية حليقة أن تطلعه على أسرار دحية ليس يعطى لها كل سائح ، لأميائه بنفاد النصر ونبوغه مرتبة خطوة عند بعض الأمور الدين كانت له بحارة في بلادهم ، ومن تلك خطوة أن عاشى الحشة قد ألقه وعوده أن يلقاه كلما عاد إليه لقاء المودة ، ويستمتع به في خاصة أهله ويدعوه أحياناً بالصدق

وسمحترى من أحوار سياحاته بضعة قليلة فيها العنى عن سائر تلك الأحوار .
وفيها كذلك عنى في الإبانة عن كثير مما يستحق جلاء من حلائقه ومسابحه

خرج إلى الحشنة في شبابه مع فتي عرييد من بني محروم يدعى عمارة بن الوليد . (وقد سبق ذكر هذه الحادثة على إيجاز) مشرباً في السمية حمراً ، فسكر عمارة ويطر إلى امرأة صاحبه بطرة مريبة وسألها أن تقبّه ، فكظم عمرو عيظه وقال لامراته وهو يسرق نفسه شيئاً . قبي ابن عمك ! فقلته

وطمع عمارة مدح في عيّه ، وتنادى في مرادة لمرأة حلوسة وعلاوية ، وهي تتمتع عليه . فطر أن امتناعها لخشيتها من روحها ، وأنه يانع بأربه إذا قدف به إلى البحر على عرة مه ، فأمهل عمراً حتى دنا من حافة السمية ودفع به إلى الماء . ثم أمعن في حماقته فصارع عمر بسوء نصده ، وقد لحا هذا سائحا من العرق وعاد إلى السمية ، فقال له قولة تصيح بالحمق والعقلة أما والله لو عدمت يا عمرو بك تحس السباحة ما فعلت ! أي أنه كان يوى به قتلة لا سلامة منها . فنجوا وهو كاره لنجاته !

وعصى الرواية فتشبا أن عمارة كان وسياً محسباً إلى النساء ، فدفب إلى حرم السجاشي وخرج به بحر لعمرو بفعلته ومحدثه بنجوه مع حيلته ، وعمرو يظهر له التكذيب ليستخرج منه دليل البقيس الذي لا يشك السجاشي في صدقه إذا نعى إليه ، حتى ظهر منه بدئت الدليل ، فأورده موارد الهلكة في حبر طويل لا محل هنا لاستقصائه .

هذا خبر من أخبار رحلاته إلى الحشنة

وخبر آخر من أخبار رحلاته إلى تلك البلاد رواه هو فقال ما سمعوا « جمعت رجالاً من قريش بعد منصرف الأحرار من الخندق فقلت لهم إلى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً مسكراً ، وإلى قد رأيت أن نلحق بالسجاشي فيكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كما عهد السجاشي ، فلأن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتيهم إلا حير قاتوا » إن هذا الرأي قلت « فاجمعوا له ما يهتدى

إليه وكان أحب ما يهدى إليه من رصنا الأدم . فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه وإنا بعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري من قبل رسول الله . قد بعثه إليه في شأن حمير بن أبي طالب وأصحابه فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية الضمري ، لو قد دحيت على النجاشي وسألته إياه فأعطاه مصرت عقه ، رأت قريش أبي أحرأت عنها حين قتلت رسول محمد فدخل عليه فوجدت له كما كنت أصع ، فقال مرحبا بصديق ! أهديت لي شيئا من بلادك ؟ قلت نعم يا أمك قد هديت لك أدما كثيرا . ثم قرنته إليه فاعجبه واشتهاه !

ثم قلت : أيها الملك ! إني قد رأيت رجلا حرح من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطيه لأقننه . فإنه قد أصاب من أشرفنا وخيرنا

ومغصب . ثم مد يده فصر بها أنه صرقة ظلت أنه قد كسره فقلت والله أنها للملك لو ظلت أنك بكره هذا ما سألكه . فقال نسألي أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لدى كاري يأتي موسى لفنله ؟ ! فرعني ما سمعت وسألته أيها الملك أكذلك هو ؟ قال ونحك باعمرو ! أطعني واتعه ، فإنه والله لعني لحق . ولبيطهرن على من حاله كما ظهر موسى على فرعون وحوده . ثم سطر يده فباعته على الإسلام .

• • •

أما رحلاته إلى غير الحبشة فالدلي لا شك فيه أنه قد رحل إلى الشام وبيت المقدس . وحين إليها بصاعة من اليمن والحشة والحجار . ولكن الدلي تحيط به التشكوك رحلة له إلى مصر . بوشك لولا ما فيها من الخرافة أن تكون أقرب الرحلات إلى التصديق . لأن جهته بمصر دعي إلى الشك من بعض الخرافات . فإن لم تكن رحلة إليها فعلم بها على الأقل يساوي العلم بالمشاهدة والاختبار وحلاصه هذه الرحلة ، كم سافرها مؤرخو العهد . أن عمرأ كان يرعى به وإبل أصحابه في حنا بيت المقدس . نوبا به وبين أوثك الأصحاب فيها

هو برعى إذ أقبل إليه شماس يكاد يهلك من العطش ، فسقاه عمرو حتى روى ، وتركه ينام مسترخيا إلى جواره ، وأنه لنا ثم إذ خرجت عليه حية عظيمة ، فقتلها عمرو قبل أن تصل إليه . فاستيقظ الشماس وشكره وقبّل رأسه ، وقال له : لقد أحببني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية . فكم ترجو أن نصيب من تحارتك ؟ قال : أرجو أن أشتري بعيرا فتكون لى ثلاثة أعرة ، وسأله الشماس : كم دية أحكمكم بيبكم ؟ فأجابه عمرو . بها مائة من الإبل فقال الشماس : لسا أصحاب إبل ، نحن أصحاب دبابير . فكم تكون الدية بالدبابير ؟ قال : ألف دينار .

بعد ذلك أبلغ الشماس أنه غريب في بيت المقدس ، قدم إليه وهاء سدر قديم ، وسيعود إلى الإسكندرية بلده ، وعبده عهد الله لن صاحبه إليها يعطينه ديتين ، لأن الله تعالى قد أحياه به مرتين .

وسأله عمرو . كم يكون مكته في هذه الرحلة ؟ فأخبره الشماس أنه شهر ، ينطق في دهبه عشرا ، وبقيم بالإسكندرية عشرا ، ويعود في عشر .

فانطلق عمرو وصاحب له حتى انتهوا إلى الإسكندرية ، فرأى من عمارتها وثروها ما أعجبه ، ووافق دخوله إليها عيداً يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم برامون بكرة من ذهب ، ويحفظون فيها احتشروها منها أن من وقعت في كفه م يمت حتى يملك عليهم . فلما جلس عمرو والشماس على مقربة من ملعب الكرة . أقبلت نهوى حتى وقعت في كم عمرو ، فتعجب القوم لأنها م تكلمهم حبرها في مرة من المرات ، وتساءلوا : أترى هذا الأعرابي يملكنا ؟

ثم حدثت الشماس قومه حديث إيقاده على يدى عمرو ، فجمعوا له الما الذى وعده به ، وردّه محروسا مكرما إلى أن ينف أصحابه

تلك خلاصة القصة الى ساقها المؤرخون عن رحلة عمرو إلى مصر قبل إسلامه ، وهى قصة مريحة لى تليقها ، لأن القارى لا يتعب في الاهتمام بى

مواضع التلخيص بها فلا يحى على قارئ من قراء العصر الحاضر موضع التلخيص من حكاية الكرة ، ولا موضع المبالغة من حكاية الدباير وشفاة القصة الوحيدة أنها تروى لنا مدخل عمرو مصر على أقرب الوجوه أن يكون هو الوجه الصحيح ، وهو النظر إلى شعبها وحكومتها وعمايتها ومحمل أحوالها في صحة شماس بربه مسر أسرار ذلك جميعه ما لا يراه في صحة وحل غيره ، إذ كان الشماسون يومئذ أعرف الناس بمخاتق الخلاف بين الحكومة والكنيسة وبين شعب الكنيسة في دسحلها ، وكان عمرو خليفاً أن يعرف منه مصر تلك المعرفة التي هوت عليه الهجوم على فتحها بذلك العدد القليل من الحمد ، وتلك العدة القليلة من السلاح غير أن هذه القصة على أية حال ليست مرجعنا الوحيد في العلم بربارة عمرو للديار المصرية ، فقد روى الكندي أنه كان يحمل التجارة إليها كما كان يحملها إلى بيت المقدس والشام

والغريب حقا ألا يكون عمرو قد دار مصر في جاهليته مرة أو مرات ، ويتجاوز حد الغربة أن يكون قد وصل إلى تخوم مصر تاسراً ومقاتلاً ولم يسمع من أخبارها الوافية ما فيه غنى عن الزبارة ! !

فلا شك أنه قد علم من أحوالها في جاهليته وبعد إسلامه شيئاً غير قليل

• • •

وفي وسعنا على الحملة أن نتحيل حياة عمرو في الجاهلية على النحو الذي وصفت لنا حكايات الرحلة إلى الحشة والشام ومصر ، بما يتحللها من أهاس الاحترق والترويق ، من تكون على نحو غير النحو المعقول من تلك الحكايات بعد إحلاتها من الأحلاط التي لم تحمل منها قصة قديمة من قبيلها

وقد ظهرت الدعوة صمدية وعمرو بن العاص يعيش في الحجاز هذه المباشرة ، أو يضرب فيها حوله على النحو الذي ربه

فكيف كان لقاؤه الأول للإسلام ؟ وكيف جاب هذا الرجل ثلث الدعوة الطارئة عليه ؟

أوحز ما يقال إنه جابها كما يُنتظر أن يجابها رجل مثله في مثل طبيعته وعمله وحيثته عما حوله

جابها على سة الخبطة العملية ، لتي لا تقدم على الأمر إلا إذا زالت جميع الموانع من طريقه ، وتبينت دوى الإقبال عليه ، فعارض الإسلام في حياة نبيه ، لأنه كان يعتز باسمه ويعتز بالعصية التي تعلق بها جميع محره ، أو جميع سلواه من حطة نسبه إلى أمه

ومات أبوه ، فظل يعارض للإسلام لفية أمل عده في علة قريش وإخضاع هذه الدعوة الواعلة عليها

واسهرت قريش مرة بعد مرة ، فلم يئأس من رجعة النصر إليها ، ولم يستسلم لأمه في تنصاره ، بل فكر في الحشة يودها ويستظر العاقبة فيها ، فيستقي مودة قريش إذا انتصرت ، ولا يصاب بهزيمتها إذا هي أطقت عليها امرئة ، ويأمن على نفسه في الحشة وعند صاحبه الجاشي ما استقر به مقام فيها

لكه لقي الجاشي فإذا هو صديق لئني العرب ، لا يُعضه ولا يهرط في رسله ودعائه . . !

ويجور أن الجاشي قد أحس صدق التي وعى ما بين الإسلام والمسيحية من المقاربة والمناسة ، فاستكر أن ينصر ديانة الأوثان على ديانة التوحيد !

ويجور أنه نظر إلى الدعوة النامية نظرة حكمة وسداد ، فأبى أن يناهض صاحبها وهو موشك أن يسود الطريق بين الحشة ودولتي العرس والروم ، وأن يشرف على مسالك التجارة بين أقطار العالم المعمور

وعلى كذا حالتين ليس هو بالعمى لسروى تربصه بالإسلام وكيدته لئني الإسلام من قريب ومن بعيد !

وليس عمرو - في حيطته العميقة - بالذي يجارب فضبه تؤيدها هذه الطوبى في بلادها وغير بلادها ، ولا هو بالذي ينصر قصبة بقرش قد حذلتها هذه الخوادم ، وحلق بها المش من نواحيها ، ودميت مولية تمنح في نولها ولا تؤذن بإقبال .

هنا تمنح الحيلة سبيل التأمل والتفكير . . ١

ومن ذاك أصحاب هذه العقول أنهم يستعدون أسباب الحيلة أولاً ، ثم يتأملون ويعكرون ، فلا يجمعهم مانع أن ينمرو إلى اللباب ، وأن يدركوا ما هم أقدر على إدراكه من الآخرين . لولا ما كان يعوقهم من طبيعة التريص والانتظار وإذا أدركوا ، فهم كذلك إنما يدركون على ذيل الحيلة والموارد بين الأمور والمقابلة بين طريق وطريق . . فما ناله لا يفكر في هذا الإسلام الذي لبث من قبل معرضاً عنه مصرّاً على إباته ؟ . .

ألا يجوز أن يكون حيزاً وأبقى ؟ بئى هو خير وأبقى ، لأنه يكس حياة الدنيا والآخرة ، ويعوض العرب عن صك العيش ، فلا تكون قسمتهم دون قسمة الفرس والروم ، وهم أصحاب العيشة الرحيمة في هذه الحياة الدنيا

فهو مرصاة للغة العربية ، ومرصاة للحظة ، وتمس بالأمل فيما بعد الموت ، وفيه الخيص حيث لا مَحِيص

أيهم من هذا أن عمراً لم يُسلم عن يدين وحلوص نية ؟ .

كلا ! بل بهم من أنه أسلم كما يسعى لصاحب هذه الطبيعة أن يسلم أو يؤمن بعقيدة من عقائد الفكر والروح

فالإسلام لا يجمع اختلاف الطوائع وأساليب التفكير ، ولا يستلزم أن يكون طريق الناس إلى فهم العقيدة واحداً لا تعارث فيه

ومن المستحيل أن يكون الرجل مطبوعاً على الحيلة دون أن يكون لذلك الطبع أثر في إسلامه . أو يكون مطبوعاً على الشك والردد لم يجلو منها ساعة

تذكيره في التدين والاعتقاد ، أو يكون شجاعا ويسلم إسلام الحبان ، أو جانا
ويسلم إسلام الشجاع . . . ! !

فإذا أسلم رجل كما يسعى لطلعه وحلقه ، فقد أسلم إسلامه الصحيح ، ولا
عجب أن يحالقه آخرون في دو عيهم التي جذبته إلى الإسلام ، فبما العجب أن
يتفق الناس وهم مطرعون على اختلاف !

ومن سيرة عمرو بعد إسلامه يعلم به كان يتعمد ، ويتصدق ، ويستعمر من
دبوت وقع فيها ، ويقيم الصلاة ، ويسرد لصوم ، ويعيش بين دونه مسلما وكلهم
مسلمون ، وأدركته الوفاة فكى ما أصابع من أيامه في جمع الحطام ، وود لو
يأخذه منه من يحمل ورره ، وهوها أيضا يستقبل الموت استقبال المسلم الذي لا
شك في إسلامه ، ولا لكان رصاء بترك المال لدويه أولى من أسفه لحسه
وحفظه . ولكنه كذلك لم يخرج عن طريقة طمعه الذي لا حيلة له فيه ، فهو يأخذ
بالأحوط في حفظ المال ما قدر على حفظه ، ولا يصيبه إلا وهو قادر على تصييبه
ناحبا من ورره ، آملا أن يسج من حسابه !

• • •

مسلم لا شك في إسلامه ، ولا شك في طمعه ، ولا شك في اختلاف الطبائع
بين المعتقدين جميعا في كل دين من الأديان ورأى من الآراء

فلما فتحت له الخبيطة باب التفكير في الإسلام أقبل عليه وود بوعنه بريثا من
عقائيل الجاهية ، لأنه نعض يديه منها وأيقن بصلاحها

قال وقد اعترم لقاء النبي عليه السلام ما فحوه « فلقيت حالدا فقلت : ما
رأيتك ؟ قد استقام المسير ، والرجل بي فقاه حالك . وأنا أريده قلت
وأما معك . وقال عثمان بن طلحة : وأنا معك . وكنت أسئ منها ،
فقدمنها لأستدبر أمرهما . فبيها على أن يُغفر لها ما تقدم من ذنوبها . فأصحرت
أن أبيها على ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدي ، فقال عليه

السلام . مالك يا عمرو؟ قلت : يا بحث يا رسول الله عني أن يعصروني ما تقدم من ذبي . قال . إن الإسلام والمهجرة بحدان ما كان قديهما . فبايعته ، والله ما ملأت عيني منه وراجعتة كما أريد حتى يحسن ربه ، حياء منه .

وقد كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة على أرحح لأقوال ، وبؤحره بعضهم إلى ما بعد فتح مكة بزمس وجيز

* * *

ولقد كانت رحابة صدر النبي عليه السلام تسع الناس جميعا ، ولا تصبى بأحد من مختلف الطوائف والطوع سنة النبي الكريم الذي يدعو الناس جميعا ، ولا يخص منهم فئة دون فئة ولا خبيقة دون خبيقة ، فكان يثقلهم مرحا بهم مشجعا هم راحيا أحسن الرحاء فيهم ، كلاً وما نضر عليه . وكلاً وما تؤهله له فطرته وشأنه . وقتما ذهبت هذه السباحة مدى في نفس مسلم قبل على الإسلام ، سمح الإقبال أو مشوب السباحة بشيء من عقايل الخاهلية . فكان أول أثر من آثار هذا الكرم النبوي أن يتسامى المسم إلى اسرة التي رفعه ذلك الكرم النبوي إليها ، ومهم من كان يستكثر الثقة الرفيعة التي ظهر بها فيعمل على استحقاقها والحفاظ عليها ، ويشفق أشد ما يشفق أن يداخل النسي طائف من العلم بصدق بيته وخلوص يديه

وطالما أشفق عمرو بن العاص هذا الإشفاق ، وود لو تحصن له ثقة النبي على أحسن ما يتمناها ، لأنه ما زال يستكثر الثقة التي ظهر بها ، ويرى فيها من كرم النبوة أكثر مما يراه من حقه واستحقاقه .

فلما رشحه عليه السلام لعنة يسلم منها ويعم . أسرع قائلا ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة في الإسلام !

وطل إلى ما بعد وفاته عليه السلام يسير عدة بسائل بعنه عن تولية النبي له : والله ما أدري أكان ذلك حيا لي أم استعانة بي !

ومحال أنه لم يكن يملأ عينه من النبي كما قال ، حدرا من هذا الذي يساور
نفسه أن يبدو من لحظة ، فتلتفت به نظرة من تلك النظرات النبوية النفاذة على ما
سها من الطيب والسباحة . . وإن طموحه إلى نقية النبي هو الذي جعله يقول كما قد
قال في بعض أحاديثه : « ما عدد في رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالد بن
الوليد أحدا من أصحابه في حربه منذ أسمت » !

غير أن هذا القلق الذي كان يعتاده من حين إلى حين إنما كان مبعثه ما
ركب في طبعه من ضوء الدهاء ودخيلة الخيطة ، أو المساءلة الباطنية التي لا تريح
أصحابها من جبنوا على غرارها

أما مسلك النبي معه فقد كان قوامه ذلك لأدب الإلهي ، الذي لا يكف
نصا إلا وسعها ، ولا ينتظر من نفس إلا ما هي حليقة أن تعطيه . .

ونقد عرفه عليه السلام كما عرف غيره من الصحابة جد عرفاه

عرفه وعلمه وسعه ، الذي يكلمه ، فعلم أنه وسع كبير فيما يحسن وفيما يسيء ،
وإن وسعه هذا خيرا للإسلام هو وشيك أن يستعين به عليه

وقد سبه لأمو لا يتديه ها إلا من كان على علم واثق بالرجل وما غلب عليه
من ظاهر حصاله واستسرف في مكنون خنده

بديه بعروة ذات السلاسل ، ولخدم الصم « سواع » ، ولدعوة جعفر وعباد
أميرى عمن إلى الإسلام . ثم أقامه على الصدقة في تلك الإمارة ، فإذا هو عليه
السلام قد وعى كل خاصة من خواصه التي ظهرت في تاريخه أجمع : لأنه احتار
له المساعي التي توافق رجلا معتدا بالنسب ولا سيما سب أبيه ، محبا للرئاسة وتلقب
لحال ، لبقا في الخطب ، قديرا على الإقناع ، حنونا في موضع الحدو ،
جرئيا في موضع الاحتراء

كان أحول العاص من وائل من قصاعة ، وعى إلى النبي عليه السلام أنهم
يتأهلون للرحف على المدينة ويعيشون في الطريق فندب لهم عمرا يتألفهم إن

استطاع ، فإن لم يستطع فهو أن يرجعهم أول من أن يحىء رجهم على يد غيره وأرسه في سربه من ثلاثائه رجل سار بهم حتى بلغ ماء يسمى السلاس ، فاستطاع ، فإذا القوم ناهرون مصرون على جفاء ، وإذا بهم أكبر عبدًا من أن يتصدى هم بجيشه الصغير فاستمد النبي عليه السلام ، فأمدته بكتيبة على رأسها أبو عبيدة بن الجراح ، وعيا أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وهم أحل الصحابة وأقرهم إلى خلافة النبي عليه السلام ، وأمرهم أن يطيعوه إذا أتى عليهم الطاعة . فبلغه بذلك رضاء من الإمارة |

واسهرت قصاصة منذ الواقعة الأولى .

فلم يعتر عمرو بالنصر . ولم يس دمة القرية واستبقاء الرحم على ما يبذلون مسكه لدى جمع نه بين لمصلحة والمودة فقد أراد جيشه أن يتعقب المهريين ، فهاهم عن ذلك ، وذهب جماعة من الجيش بصطرون ليلا ، فتوعدهم بن فعلوا ليقدر من صرم نار في انار التي أوقدها ، ووسطوا له أبا بكر فأصر على رأيه ووعده |

ثم شكوه إلى النبي فكان في عذره بلاع يئ ، قال . كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد . وكرهت أن يوقد المسلمون نار فيرى عدوهم قتلهم فيكر عليهم بعد مراره

. . .

ما بعثه إلى سواع ، فقد كانت هدم ذلك الصم الذي عبدته قديلا في اعاملية ، وكان على مقربة من مكة ، يقصدونه للحج والعبادة وقضاء الدور ، وكانت له حزامه يودع فيها ما يودع من الدور ومن مال الحجر الذي وكل به بنو سهم قبل الإسلام ، فكان اختيار رعيم من بني سهم فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك العثة التي لا حرب فيها

سأل سادن الصم : ماذا تريد ؟

قال : أمرني رسول الله أن أهله

قال السادن : إنك لا تقدر على ذلك

فتقدم عمرو إلى الصم وكسره ، وأمر أصحابه بهدم الحراة فإذا هي حاوية !
فأقبل على السادن يسأله . كيف رأيت ؟ قال : أسمت لله رب العالمين

• • •

وكانت رسالته إلى عمان أشبه الرسائل به وأولاهها بانتدبه ، لأنها كانت محالا
مستجما لكن ما فطر عليه من اللباقة والدهاء والحراة وحب الرئاسة والثراء

كتب النبي عليه السلام إلى جعفر وعبد الله بن الحنفدي كتابا يدعوهما به إلى
الإسلام ، قال فيه بعد السلام على من اتبع الهدى : « أما بعد ، فإني أدعوكما
بإدانة الإسلام . أسلمنا إلى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق
القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتا أن تقررا
بالإسلام فإن ملككما راثل ، وحيي تحمل ساحتكما ، وتظهر نبوتى على
ملككما . . »

فحمل الكتاب عمرو بن العاص ، وكان عند طرس النبي به في مقره
ودعائه ، فبدأ بأصغر الأخوين عدا ، لأنه لم يكن على ولاية المسد . فهو أقرب
إلى حسن الإصغاء ، فدحتني به وأصغى إلي ، ووعدني أن يوصيه إلى أخيه ويمهد به
عنده

ثم لقي جعفرا فإذا هو أصعب مراسا من عباد . فطفق يسأل عمرا عن نفسه
وعن أبيه : هل أسلم من قبله أو مات على غير الإسلام ؟ وسأله عما صنعت
قريش ، فلخص له موقفها أوقع تلخيص حيث قال : « بما راغب في الدين
وبما مفهور بأسيف » . . ثم عصب بكلام وجيز فيه وعد ووعد . فقال له :
« وأنت ، إن لم تسلم اليوم وتبته يوطئك الخيل . فأسلم تسلم ، فيوليك على

مهلك ، وتبقى على ملكك مع الإسلام ، ولا تدخل عليك الخيل
والرجال ، وفي هذا ، ومع سعادة الدارين راحة من القتال »

وأنتع هذا الوعد بما يوائمه من قلة الاكثراث لخير حين لج هذا في عناده ،
وعلمته ببقاء المسلمين دون أرضه وصدهم عن حوزة ملكه ، فاصرف وقد
ألقى في روح عباد ما ألقى ، فإد عباد قد أمم له ما بدأه من الديار والصيحة ،
وذا بالأخريين ومن تبعها مستجيون للإسلام .

وكان جراء عمرو على هذا التوفيق أن عقد له السى ولاية الزكاة ، يأخذها من
الأغنياء ويرفقها على الفقراء ، وهو عمل حبيب إلى طبعه لما فيه من تدبير المال
ومشابهة للمهمة التي تولاهما رجاء بنى سهم في إعماله ، وله منها نصيب
يرضيه ، لأن الزكاة كما نص القرآن الكريم في الصدقات : « إنما الصدقات
للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والعاملين في سبيل الله
وابن السبيل . »

فله حظ نصيب العاملين . .

* * *

فإذا كان النبي عليه السلام قد احتاره لتلك المهام المرتبة ، فإما اختاره وهو
يعرف من احتار ، ولم تكن مرصاته كل ما توخاه عليه السلام بل هي مرصاته من
طريق الخير لجميع المسلمين .

وقد أنقذه عليه السلام على ولاية الصدقة حتى توفاه الله ، فلم يشأ أبو بكر
رضي الله عنه أن يصره عنها إلا برأيه ومرصاته ، يثأراً للسنة التي التزمها من إقرار
كل ما أقره النبي عليه السلام في حياته . وألا يحل عقلاً عقله رسول الله صلى الله
عنه وسلم ، ولا يعمل عمالاً لم يعمل به ، كما أوصى عمرأ نفسه يوم أنعه نبي النبي
الكريم .

ولم ير عمرو قط في حرب كالجزل الذي عمره يوم ورد إليه ذلك الكتاب
فبكى طويلا ، وجلس يطلق المراء كما يتلقاه في أقرب الناس إليه .

فم جاءت حروب الردة ، فكان موقعه منها الموقف المنتظر من مثله كيما نظرا
إلى أسباب تلك الحروب ، فقد كانت ثورة على الإسلام وثورة من البادية على
الحاضرة ، وثورة من القبائل على قرش ، وثورة على الزكاة من فرائض الدين
خاصة . وإن أحق الناس أن ييغض تلك الردة هو عمرو المسلم القرشي العامل
على الزكاة

فما كان في طريقه من عمان إلى المدينة ، نزل بني عامر ، فإذا برعيها قرة من
هيرة بهم بالردة ويقول له . « يا عمرو ! إن العرب لا تطيع لكم نصا
بالإبادة ، فإن أعينتموها فستسمع لكم وتطيع . وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم » .
فلم تأخذه في الأمر هوادة ، بل اشتد فيه كما اشتد أبو بكر ، وصاح يزعم بني
عامر . « ويحك ! أكفرت يا قرة ؟ بحرفنا بردة العرب ! هو الله لأوطئ عليك
الحيل في حَفَش أملك » أي في حيلها !

ثم أبى إلا أن يسي الخبيثة كما سمع من قرة ، غير متيق منه بقية يسترها مخافة
عليه فلما جرى بالرجل مأسورا ، وانطلق عمرو يروى ما سمع منه ، ووصل إلى
ذكر الزكاة صاح به الرجل . مهلا يا عمرو . فقال . كلا والله ! لأخبرنه بجميعه
وكان هذا الموقف منه أول ما استحق به الثقة والرعاية في عهد الخلافة

• • •

وواقع الأمر أن ثقة الخبيثة الأول كانت مكشولة لكن من تولى عملا للنبي
عنه السلام ، ومات النبي وهو راض عنه

فما وقف عمرو من حروب الردة ذلك الموقف الذي حمده أبو بكر خاصة ،
لاشتماده في قمع هذه الحركة الخبيثة . أصبح عمرو من أقرب المقربين في العهد
الحديد ، ونظر أبو بكر فيمن يوليه حرب فصاعه ، فم ير أمامه خيرا من صاحبه

عمرو ، وقد تولى حربها قبل ذلك في عهد النبي ، وكان الخليفة الأول يومئذ من جوده . فأبلى في تأديب فصاعة أحسن بلاء ولم يرجع عنها إلا وقد سلمت بحق الزكاة وثابت إلى شرعة الإسلام

والظاهر من بعض الروايات أن عمراً بولى لأبي بكر عمالاً أخرى تدل على ثقة الخليفة به واعتماده عليه . ففي رواية الخافظ أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي أنه « قدم دمشق رسولا من أبي بكر إلى هرقل » ويعتبر على الظن أن صحباً هذه الرسالة - أنه إنما أوفد من قبل الخليفة لاستطلاع حال العرب في طريق الشام ، مستنصراً بهم إلى حرب الروم إذا وقع المتوقع من الحرب بينهم وبين المسلمين ، فذلك أشبه المهام مما يتدب له عمرو بن العاص ، وليس في تواريخ الإفرنج أو العرب ما يعرر بها رسالة من الرسائل حملها إلى هرقل من أبي بكر الصديق

ثم تراءت أحوار الأهمية الكبيرة التي تأهب بها هرقل للقضاء على الدولة الإسلامية في شأنتها . وعى إلى الخليفة أنه جمع مائة ألف أو يزيدون على مقربة من حدود فلسطين ، فجرد جيشاً من ثقافة المسلمين الذين لم يختلط بهم في نادئ الأمر أحد من أهل الردة ، وعقد نواءه خالد بن سعيد بن العاص . أحنى عمرو لأمره وأمره أن يستعين بالعرب في طريقه ، وأن ينزل بشيء متوقفاً لا يبرح مكانه إلا بأمره ، ولا يقاتل إلا من بدأ بقتاله ، ولعله أراد بتجريد هذا الجيش تأمين الطريق من انتفاص أهل البادية حينما سمعوا بتحصن الروم للهجوم على بلاد المسلمين ، ثم استطلاع الخبر وتعويق حركة الروم حتى يجمع هم كهابتهم من الحند وانقواد

وقد كره عربى الخطابات ولاية خالد . لأنه رجع محذور يحمل أمره على دعابة والتعصب . فسمى عند الخليفة في عمله ، فعزله وعقد نواءه يريد من أبي سفيان

هنالك جاشت مطامع عمرو ، فسب به همنه إلى قيادة الحيوش الإسلامية التي تصد الروم وتفتح الشام ، ورأى أن خالد بن الوليد صاحبه القديم تكفل بدولة الأكاسرة ، فليكن هو إذن كميل المسمين بدولة القياصرة ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يبرم الرأي في مسألة القيادة العليا وهو عائب عنها ، فلما أخذ الخليفة في تحرير الحيوش وعقد الأولوية لها ، ذهب إلى عمرو بن الخطاب فقال له متطعاً : « يا أبا حفص ! أنت تعلم شذقي على العدو ، وصبري على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً على أبي عبيدة ، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ، وإلى أرجو أن يعتنق الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء »

فأحابه عمر بصراحته الصادقة .

« كلا ! ما كنت لأكذبت ! وما كنت نالتي أكلمه في ذلك ، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير ! ولأبو عبيدة عندما أفصل منزله منك وأقدم سابقة ، والتي صلى الله عليه وسلم قال فيه . أبو عبيدة أمين الأمة » . فلم ييأس عمرو من إقناعه بعد ما سمع ، وراح يقول له : « ما بتقص من منزلته إذا كنت والنّا عليه » فاستهره عمر قائلاً : « ريلك يا عمرو ! إبت ما تطلب بقولك هذا إلا الرئاسة والشرف ، فاتق الله ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى »

واستقر رأى الخليفة على النهوض وتواديها ، فأخذ أبا عبيدة بن الجراح إلى حمص ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، وحشي بن يقم الخلاف مرة أخرى على الرئاسة ، فقال له وهو يودعه : « كاتبٌ بأبي عبيدة ، وأنجده إذا أرادك ، ولا تقطع أمرٌ إلا بمشورته » وأوصاه أن يذهب في طريق العقبة إلى فلسطين

ويقدر عدد الجيش الذي قاده عمرو وتسعة آلاف مقاتل ، معظمهم من أهل مكة والطائف وهوز وبني كلاب ، وعدد الحيوش الإسلامية كافة بسبعة وعشرين ألفاً من الفرسان والمشاة .

وكان ذلك في أواخر السنة الثامنة عشرة للهجرة ، على القول المشهور ، أو في
أوائل السنة التي بعدها ، على قول آخر .

* * *

إلا أن دهاء عمرو نزل من هذه الحيوث منزلة أشوره والراححة ، وإن لم
ينزل بينها منزلة الرئاسة العامة والقيادة العليا .

فلما اقترب حشد المسلمين من مواقعهم التي قصدوا إليها ، سمعوا بأهة العدو ،
فإذا هو يرحف إليهم في حواصل جرارة تلح عدتها مائة وخمسين ألفاً ، من حاملي
الشكة السابعة والعدة الكاملة . فترددوا وتشاوروا وكتبوا إلى عمرو بن العاص وإلى
الخليعة ، فوافاهم الجواب منها ممأ بالاجتماع للقاء الروم في موقع واحد ، وكان
رأى عمرو أن يراجعوا إلى اليرموك ، ويبتعدوا حيوش الروم هناك

وأقبل خالد بن الوليد يطوى الصحراء بأمر الخليعة لنجدة القود من إخوانه
المبعوثين لحرب الشام ، فأقدم منفرق لا يجمعون على قيادة ، وفتح عليهم
ذلك الرأي الذي نواترت به الروابات ، وهو تداوى الإمارة بينهم ، وأن تكون
الإمارة إليه في اليوم الأول ، وقد وقع في تعيين تاريخه خلاف كبير

فيل إن عدة المسلمين يومئذ لم تجاوز خمسين ألفاً ، وارتفع الطبرى بعده
جيش الروم إلى مائتين وأربعين ألفاً ، وهبط بها بعضهم إلى أقل من نصف هذا
العدد ، وليس هو بقليل

وكانت ملحمة الرجاء المستميت ، وليأس المستميت ، وتنادى أبطال
المسلمين على عهد الموت لا يرجعون إلا منتصرين ، أو يقيموا مكانهم
مستشهدين ، وترمل اليائسون من الروم في أماكن ينتظرون انقراض إثارة له على
المرور ، فاجلجى الهار عن هزيمة اليأس وعلية الرجاء ، واشتهرت هذه المعركة باسم
معركة أحناديين ، على اختلاف في الموقع والتاريخ لا يعيا هنا أن نقصه

ويؤخذ من المصادر المختلفة أن عمرًا قد اشترك في أكثر حروب الشام بين دمشق وفلسطين ، وأن شجاعته فيها جميعا كانت كهاء دهائه وجرمه ، فلم يكن يرضى لنفسه مقاما في الشجاعة دون مقام أحد من القواديا كان حفظه من سمعة الناس والإقدام . ودكروا في وصف وقعة انيموك أن الروم هجموا في بعض حملاتها بقصصهم وقصصهم على فريق من المسلمين ، فاكشف المسلمون وولى صاحب رأيهم ، فلحق به خالد بن لوند وعمرو بن العاص بتسابق لأحدها من يده ، فأحدها عمرو واندفع بها يقاتل المتقسمين من الروم حتى كثر إليه المسلمون وتجمعوا حوله ، فأدبر الروم منهزمين

• • •

وكانما شاءت الأقدار سبحانه الأول أنى بكر الصديق أن يعرق الدنيا وقد اطمأن إلى عروة الروم ، التي اصطلع بتبعاتها المرهوبة وهو عظيم أهمها ، شديد التقى من عواصمها . فانتبت أيامه بهذا النصر المؤزر الذي أوشك أن يكون حاسما كل الحسم في معارك الشام وفلسطين

وأسم الرمام إلى حيريد تلتى إليها الأرمّة من بعده ، فبوع لعمر بن الخطاب «خلافة والبصر مقبل ، والحوادث مواتية لمن يتولاها بالحرم الذي هو أهله ، وبالروية التي كانت قرينة حرمه

وكان عمر بن الخطاب من أعظم الناس ثقة بأبي عبيدة بن الجراح ، لما سمع من تركية السبي له ، واحتر من أمانته وإيمانه في طويل الصحة بين الرحلين العظيمين وكان يبلغ من هذه الثقة أنه هم أن يبايعه بالخلافة في عجلة الموقف بعد وفاة النبي عليه السلام ، وبه كان يقول وهو يجود بنفسه « لو كان أبو عبيدة حيا لمهدت إليه »

هم يست غير قليل أن وضع هذه الثقة في موضعها ، فأسد إليه القيادة العامة في حرب الروم ، واعتمد على رأيه فيما يأتيه من أحوار ذلك الميدان الفسيح

والظاهر أن توحيد القيادة كان أعون على توزيع العمل بين القوادى أنحاء الميدان كله ، فاستقل عمرو بن العاص بعرواب فلسطين وما جاورها ، وعم على يديه فتح سواحلها وحاصر بيت المقدس ومنازل أصحابها « اريطيون » ، باخرة تارة ، وبالسكينة تارة أخرى ، وكلتاها من الصفات التي اشتهر بها عمرو بن العاص

واتعمقت اصداد على التزويه بلاء عمرو في هذه العروات ، فوضح منها جميعاً أنه م يكن يألو ذلك العمل الحسام الذي وكل إليه جهداً من شجاعته ولا من تدبيره ، وربما جشمته موارد للتدبير محاصر لم يتجشمها في موارد القتال ! من أمثلة ذلك ما رواه ابن الكثير حيث قال : « لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غرة » بعث إليه عليهما أن بعث إلى رجل من أصحابك أكنمه ، ففكر عمرو وقال : ما لهذا أحد غيري ! وخرج حتى دخل على العليج فكلّمه . فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله ! فقال لعليج حدثني . هل في أصحابك أحد مثلك ؟ قال . لا سأل عن هذا ، إني هين عليهم إذ بعثوا إلى إليك ، وعرضوني لما عرضوني به ولا يدرون ما تصعب لي . فأمر له بخاتمة وكسوة وبعث إلى البواب إذا مر بك فاحصر عنقه وخذ ما معه فخرج من عنده ، فمر برجل من نصارى غسان يعرفه . فقال . يا عمرو . قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، ورجع ، فقال له العليج ما ردك اليها ؟ قال . نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة حيرا من أن يكون عند واحد ! فقال . صدقت ، وبعث إلى البواب أن حلّ سبله فخرج عمرو وهو تلمّص ، حتى إذا من قال . لا عدت لمثلها أبداً . فلما صالحه عمرو ودخل عليه العليج قال له . أنت هو ؟ قال . نعم ، على ما كان من عندك . اهـ

وهذه القصة التي أشربا إليها غير مرة . لا تؤخذ على علائها في تفصيلاتها ، ولا يلزم أن تصح أصولها ولا فروعها ، ولكنها تدل - ولو كانت مؤلفة - على

أشياء قريبة من الحقيقة ، بل لابد ان تكون قريبة منها ، لأن صدق أخبار عامة لا يستقيم ولا يتطعم بعيرها ، فن تلك الأشياء شهرة عمرو بالدحول في أمثال هذه المداحل العريضة التي يحرب فيها حبيته كما يحرب إعدامه ، ومنها أن عرب الشام كان فريق منهم على الأقل ينظر إلى الحرب بين الروم والمسلمين نظرة العصبية الجنسية ، على ما بينهم من الفارق في العقيدة ، فلم يعتدروا كذبا حين رعموا بعد هزيمة الروم أنهم أكرهوا على لقتال في صفوفهم وهم يودون هم الهزيمة ، ويتمنون الطفر لآحوهم في الأصل والذعة ومن تلك الأشياء أن عمراً كان معروفاً بين أهل عسار ، فلا يبعد أن يصدق ما خطر لما عن رسالته إلى أنحاء دمشق من قبل الخليفة الصديق ، وإياها كانت رسالة إلى عرب القائل الشامية لتحريضها واستصلاح أحوالها قبل الشروع في قتال الروم .

وجماع تلك الأخبار التي لا خلاف في ناسها وان وقع الخلاف على قشورها أن عمراً كان بطل العروة الشامية في ميدان فلسطين ، وأنه ربما كان بطل العروة من طلائعها الأولى ، يوم كانت بعد في طور التآهب والاستطلاع وليس رأى الخليفة الحديدي عمرو مجهول ، ربما كانت ثقته باقتداره واستعداده لعظائم الأمور أكبر من ثقة أبي بكر الذي تابع في امتحاله سنة لسي عليه السلام ، فعمرب الخطاب هو الذي قال فيه : « لا يسمى أن يمشي أبو عبد الله على الأرض إلا أميراً » ، وهو الذي كان يقول كلما رأى رجلاً يلجلج في كلامه - « حائن هذا وخائف عمرو واحد » وهو الذي تيس صوت هذه الثقة في غزوات فلسطين نفسها ، فحمل يقول لإخوته : « رمينا أرطون الروم بأرطون العرب » ، يعني أرطيون الذي كانت تصحبه قنة النقطة والشكل في الحروف العربية يومئذ إلى أرطون .

وما زالت ثقة الماروق بكفاءة عمرو ودرايته تعظم وتتمكن كلما صحب الوفين في فتح مدينة بعد مدينة ، والعملة على جيش بعد جيش ، حتى فرغ من

السوخل والمشارف ، وتجه بعزمه كله إلى حصار إيلياء ، أربيت المقدس
حاصرة البلاد

وقد شدد الحصار عليها حتى شمس أربطيون من مقاومتها وفر منها إلى الديار
لمصرية ، وقيل إن بطريقة لم يؤخذ تسيبها للقائد العربي إلا لأنه أراد أن يكون
التسليم بمحصر من الخليفة ، فكتب عمرو يستدعيه ويعينه برعبه الطريق ، وم
الصلح في السنة الخامسة عشرة للهجرة لمحصور القاروق

وما هو إلا أن سكنت الشام إلى الحكم العربي ، وحف الطاعون الذي مشا في
أرجائها بين السنة السابعة عشرة والثامنة عشرة للهجرة ، حتى تطلعت بفس عمرو
إلى فتح أكبر وأخطر ، وبارعته إلى منزلة أشبهه وأحدر إلى فتح الديار المصرية
التي يعلم المسلمون من القرآن الكريم أنها كرمى فرعون دى الأوتاد ، ويعلمون من
أخبار ناهم أنها دره انتح في دولة هرقس ، وأن الروم لا بدعوسه وبو عليه
عليه ، لأنهم عادو إليها فانتزعوها من الفرس بعد مقامهم بها اثني عشرة سنة ،
وهذا لوعده القرآن أن الروم من بعد عليهم سيقبلون

وهنا تشترك المصادفة والتعدير اشتراكهما في كل عمل حسام من أعمال لتاريخ
القديم والحديث |
نرى كيف كان يحظر هذا الخطر على باب القاروق لو لم يفتح فيه عمرو بن
العاص ؟

ونرى كيف كان يحظر هذا الخطر على بال عمرو بن العاص لو لم يكن فاتح
فلسطين على طريق مصر ، وكان فاتح دمشق أو فاتح السودان ؟
ونرى كيف كان الردد منتهيا بالخليفة لوم ينته وعمرو بعد السير في طريقه إلى
النجوم المصرية ؟ !

أقصى الفاتح الحسود بأمله وأمل الإسلام إلى الخليفة ، فاستمع إليه ، وتردد
فيه بين ما عرف من كفاية عمرو ، وما عرف من إقدامه على العظام في سبيل
الشرف والرئاسة

بل تردد فيه بين دواعي الحرب ، وهو لا يرى داعية للحرب إلا درءاً لخطر أو
نقصاً من عدوان

وكان أقرب الناس إلى القاروق يترددون مثله ، ويرون في طماعة عمرو بن
العاص مثل رأيه ، منهم من يخلص في حذره ، ومنهم من يعار من عمرو أن
يكتب هذا الفتح لخليل على يديه !

وفي طليعة المخلصين حذراً من هواقب هذا الطموح الحموح ، عثمان بن
عصاف ، فقد كان يذكر القاروق بجرأة ابن العاص ، وأنه يرد المهالك في سبيل
طمعه ، وما بالقاروق من حاجة إلى تدكير .

أما ابن العاص ، فقد كان أخيراً بالخليفة ومحصراً من أن تفوته وسيلة الإقناع في
هذا المقام !

إنه ليعلم حرص القاروق على جند المسلمين أن ينفك دم واحد منهم في غير
خطر واقع أو عدوان محذور

فلنذكر عروته بمصر إذن دعاء لخطر الواقع ، وصحابة لأرواح المسلمين ، ونقد
كانت هي كدنت لا مرأى

ولم يكن عمرو معزراً بالقاروق ، ولا كان القاروق ممن يجوز عليهم التعرير ،
فإنه ألقى إلى الخليفة أن « ربيطيون » داهية الروم قد مر إلى مصر ليجمع بها قوة
الدولة الرومانية ويكرها على الشام ، فلا أمام للمسلمين في فلسطين أو الشام أو
الحجاز نفسه وباب هذا الخطر مفتوح ! ! وإنما يوصد الباب إذا ضربت الدولة
الرومانية في مصر ، وامتنع منها مدد خبز ولبان والطعام لتلك لدولة المتداعية

فعلم القاروق أنه يستمع إلى صواب ، واستجاب لرأي عمرو وهو يسير الإقدام
والإححام ، فأذن له في المسير ، وأنظره كتاباً آخر يأتيه به في الطريق ، وقال
له « سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي آمرك به

بالإصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها ، فأصرف ، وإن أتت
دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فأصص لوجهك واستمع بالله واستنصره ٥

□ □ □

ولا يعتقد أن الفاروق قد ترك الأمر للفرقة المجهولة ، نرى فيه وتنقص حسب
اتفاقها ، ليسم إليها العنان في هذا العمل العظيم ، ولكنه أراد أن يستزيد من
المشاورة والتذكير ، وأن يشارك معه دوى الرأي في التبعة التي هو مقدم عليها ، فإذا
كف عمر بعد ذلك قبل أن يطرق أرض مصر فلا خير من كفه ، وإذا جاءه
الكتاب وهو في أرضها فقد امسح الرجوع ووحى المسير ، لأن الرجوع عن أرض
بعد دخولها يكشف للروم صغها من العرب ورهبة من العدو ، ويعرهم بالكرة
على الشام ، ويعيهم على جمع الجموع لاستئناف القتال ولو لم يعكروا فيه قبل
ذلك ، ويخيف أهل مصر أن يستسلموا للعرب إذا أقلوا مرة أخرى ، لأن العرب
أنفسهم يقدمون على بلدهم بين الشك واليقين

فيل إن كتاب الفاروق أدرك عمر في رجع ، فأعصى عن الرسول حتى بلغ إلى
مكان من مصر غير مختلف فيه ، فقرأ الكتاب وقال حده . لم يدققى كتاب أمير
المؤمنين حتى دخلوا أرض مصر ، فسيروا مضوا على بركة الله وعونه . وكذلك
التقى التدبير والمصادفة مرة أخرى في الصفحة الأولى من هذا التاريخ الكبير .

فتح مصر

كان الصدام بين العرب والدولة الرومانية قصاء موعودا منذ اللحظة التي
نشأت فيها الدعوة الإسلامية وكتب لها انبقاء ، لأن الإسلام رسالة تنبئ إلى أسماع
الناس وقدرهم ، ولأن الدولة الرومانية سلطان قائم يحول بين رسالته وبين الأسماع
والقلوب

فلا مناص من التقائهما يوما من الأيام ، على سلام أو على حصار
وهما إذ التقيا على حصار أو على سلام دخل الإسلام مصر مدافعا أو غير
مدافع

ويمتدح الإسلام مصر على كلتا الخاليتين فتح رصوا أو فتح تسليم . . وإيما هو
كتاب مؤجل إلى أوانه المقدور

لح الهى عليه السلام هذا المصير بلحظ العيب قبل أن يحين أجله المقدور
ببضع عشرة سنة

وكتب إلى المقوقس ، عظيم القبط ، يدعو إلى الدين الجديد دعوة أهل
الكتاب . « اسلم تسلم يؤثك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط
يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به
شيئا ولا يتحد بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا
مسلمون »

وقد تلقى جواب المقوقس مؤدبا بالأمل ، غير قاطع بالإباء ، يقول فيه كما جاء
في بعض نصوصه « همت ما تدعوا إليه . وقد علمت أن سيايتي ، وقد
كنت أظن أنه يخرج بالشام » . . ثم يقول . « وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك

يجاريين لها مقام في القبط العظيم ، ومكوة ، وأهديت إليك بغلة لتركها ،
والسلام »

وتعلقت الحوادث بأجلها الموعود

وقال النبي جازما لصحابته الأقرين . « ستمتحنون مصر ، فهي أرض يسمى
فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم دمة ورحما ، وعلم عليه السلام أنه
فتح لا ينال عنه العالب ولا المغلوب ، فقال لصحابته . « إذا فتح الله عليكم
مصر فاتخذوا بها جنداً كثيراً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال أبو بكر
رضي الله عنه : ولم يا رسول الله ؟ قال حبه السلام : « لأنهم وأرواحهم في رباط
اليوم القيامة »

فما كان من مسلم في حياة النبي عليه السلام ، أو بعد وفاته ، إلا وهو يعلم أن
مصر مفتوحة للمسلمين على يقين

وإنما هو الأوان المحتوم ، في يوم غير معلوم .

وآية ذلك الأوان أن يجيء الخطر من قبل مصر ، أو يفوز الروم فيها عائقا
كثودا في سبيل الدعوة

وعمر بن العاص هو الذي قال إنه رأى الآية بعينه ، وقال إن العائق
كثود إذا أحل ، يسور التدليل إذا عوجل قبل استقراره

وقالما وهو صادق في مقامه !

عاية ما هناك أنه رآها بعين العقرية التي تلمح ما وراء الحجب من بعيد ،
وأنه فسر الحلم المحقق بوحى الإلهام فأحسن التفسير !

م يكن هو الذي اخترع عريضة الإقدام على فتح مصر ، فقد كان فتحها في
حكم الواقع المقروع منه مدسسين

ولكنه كان هو الذى أعلن الوقت المقدور ، وأصاب الاحتيار ، واهتدى إلى
الأوان

ولم يحدع نفسه ، ولا حدع خليفته ، ولا جارف بالفتح الخطير بمجرفة نظيش
والجهل بالعقبى ، ولكنه عند من يجهل الحقائق محارف محام !! وعند من
عرف الحقائق كما عرفناها اليوم حامس دقيق الحساب ، وحام مطمئن أصدق في
حلمه من الخائف اليقظان

أفكان عمرو إدد يعرف الحقائق كما حلالها لنا التاريخ بعد مئات السنين ؟
لا ولا جدال ! . .

م يكن يعرفها مصلة محصة كما عرفها ، وذلك فضله الكبير
ولكنه أحسها حمى ، ولأنه باليقين الذى يمتنى به العارف بعد التوصل
والتحصيل

فى حياة عمرو بن العاص حدثت فى مصر ، وحوى مصر ، خطوب لى
يجعلها مثله ، وإن لم يطع على وضعها المسهب ، كما كتبه المؤرخون من أبناء
العصور الحديثة

كان فى عنفوان الرجولة يوم أعار الفرس على الروم ، ففتحوا ما بين بيت
لقدس والإسكندرية فى أقل من ستين

وكان فى بعقل الدنيا يوم أعار القائد الرومانى نقتاس على الديار المصرية من
المغرب ، يحش لا تزيد عدته على ثلاثة آلاف ، منهم البدو والسودان ، فتحت
له الثغور والمدائن بمواطنة من أهل لبلاد ، ومن بعض الرومان الناقين على عاهل
القسطنطينية

وكان يرور بيت المقدس ، ويصمى إلى حاجه ورهبانه المقيمين فيه ، فيسمع
أخبارا ثم على ما فى مصر من قلق الرعية ، وضعف الرعاة ، واستفحال الشقاق

بين طوائف النصارى ، وعصب المصريين من الروم ، سواء منهم الموافقون لهم في المذهب والمخالفون

كان يبنى اليهود في وادي الأردن ، وكلهم معيظ من لدولة الرومانية ، ذا أصابعهم على يديها من الديح والهب والتشريد ، وفيهم من هو أعلم بمصر وعملائها ومحارجه ومواقع الخلل فيها من حكامها الرومان

وحصر عرواات الشام ، وسمع بعرواات العراق ، فعلم أن جيوش الإسلام على قلتها قد علت الهرس وعبيت من علوهم في النصال الأخير علت هرقل وهو في أوج مجده ، فما أحراها أن نعله وهو مهيب بعد هزائم الشام وفلسطين ، وقد شاح وعامت على عقله الوسوس ، وحاقت به الدسائس ، وتلكأ رما بين الحياة والموت ١ .

فإن لم يكن عمرو قد عم هذا تفصيلا ، فقد علمه حكمة وافية ، عدمه بالقدر الصحيح الذي يتيح له أن يقول للجمعية أنه يقدم على فتح سد « ليس قل منه قوة ، ولا أعظم منه ثروة »

ولو أنه علم تفصيل الحوادث التاريخية كما علمناها اليوم ، لكان ذلك أخرى أن يزيده إقداما ، وأن يلهب من شوقه إلى الفتح ما يرسله في مسيله قدما ، قبل المألة بكل تحذير وتهويل ١ ١

لأنه كان أخرى أن يعلم أن أهل البلاد يرحبون به ، وإن لم يرحبوا بالهرس من قبله ، لأن الهرس قتلوا الرهائن والقسوس في طريقهم إلى مصر ، ولم يكن من عادة جيوش المسلمين أن يقتلوا أحدا من الرهائن والقسوس ولأنه يسلك طريقا بدويا ، يستطيعه العدو ، واستطاعوه في قديم ، ولا يزال سكانه منذ عهده التاريخ بدوا يشعرون بعصية لقرابة لهذا الفاتح الجديد

ولأن الروم أنفسهم كانوا قد فقدوا عزيمة القتال ، بل فقدوا ما هو أكرم من ذلك للقتال ، وهو إيمانهم بالله في النصر وبرصوان الله عليه . فقد كان إيمان الروم

الغالب عليهم في معارك الشام أنهم استحقوا غضب الله ، وأن العرب لهم موط
العذاب الذي يصبه الله على عباده اللواقيع في الخطيئة . وصاح بينهم بهذا التذير
صائح مسموع الكلمة في مؤتمر أنطاكية الذي اجتمع إليه كبارهم وأخبارهم ،
فقال لهم : وهرقل يسمع : إن الروم ليلقون من الله جراء العصاة ! وربما كان
هرقل نفسه يشعر بذلك الشعور ، لأنه كان في شبحوخته دائم الدم معدا
بوسواس الخطيئة ، لبنائه بنت أخته « مرنبة » ، بعد علاقة بينه وبينها ، وهرقلم
محرم في دبه ! !

ولا محال عمراً قد عمل عن استطلاع البلاد المصرية برسل من عنده ، أو
بالاستماع إلى أناس يعونه عن الرسل ، تعلم أن الحصون مهمة ، وأن الدساكر
معتلة ، وأن الحدود المترقين هنا وهناك يدفعون عن معانلهم في وهن ويأس من
المصير ، ويعيشون بين شعب يبعصهم ويتمنى لهم اهلاك والصباغ ، ويحمر
بغائهم ومشايعة أعدائهم ، إذا أمن عاقبة الجهر بالعداء ، ورجح عنده
الأمل في عنة المعير عليهم ! وأي عدو هو أول بالأمل في عنته من غرة العرب
الذين صدوا الأكاسرة ولقياصرة ، واقنحموا عليهم عقر دارهم وهم محبون إليهم
من قرار سحيق ؟ فإذا أصبح هؤلاء العرب مقام محمي في تحوم مصر وعلى
مدخلها ، أيشق عليهم إذن أن يتزعوا مصر من هرقل وليس فيها غير ظل له
بعيد ؟

تقدم العرب إلى الديار المصرية ، وبينهم وبين عدوهم فروق كثيرة في العدد
والعدة والحصارة والعقيدة ، من المصول أن تعرض لخصرها في هذا المقام ، ومن
الإسهاب في غير موضعه أن نتبع أصول وتعتق هرونها في تاريخ الأمتين . فإياها
لتتجمع كلها في فرق واحد يعنى من وعاء عن كل تفرقة بعدها ، مسهة كانت أو
مفتصبة ، وهو الفرق بين قوم صيغوا كل ثقة في النصر ، وقوم صيغوا كل شك فيه
وآمنوا بحقهم في النصر كل إيمان .

صاعت ثقة هرقل في نفسه ، وضاعت ثقة الروم في صلاحهم للحكم ،

وصاغت ثقة الأعوان في صلاح العامل والدولة ، ولم تنق هم إلا بقية من تمسك
بقيتها الخوف من عقاب الرؤساء ، ويوشك أن يذهب بها خوف أعظم منه وهو
الخوف من بأس المعيرين !

ومن الخائب الآخر ملك العرب كل ثقة بالنصر وكل إيمان بحمهم فيه ،
واطمأنوا إلى حليفة هوى ، وفائد هوى ، وصبر قوى على كل بلاء ! وعلم عدوهم
هذا منهم موصفهم بعد رؤية وحيرة بأنهم (قوم الموت أحب إليهم من الحياة !
والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ! ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا
هبة !

ومع هذا لعارق الذي هو خلاصة جمع المورق ، لم يكن الثقة وحدها هي
العدة التي رجع بها العرب واتخذل بها الروم بل ظهر من تقابل الفريقين في شق
المعارك أن العرب كانوا حريصون القتال - ولا سيما في المعاجزة - من قادة الروم
لديهم كلوا وكنت عقوهم بالإحسان والاستئمان إلى الترف ولعمرور

فقد كان عمرو يوجه خطط القتال كما يشاء من تحطى الحدود وأوعل في
خوف البلاد ، وكان يضطر أعداءه إلى تبديل خططهم وتحويل معسكراتهم كلما
تحرك في الشمال أو الجنوب حركة مفاجئة لا يدرون ما يحقها ، فبها هم
يتجمعون في اليوم ، إذا هو يرحل إلى منف شمالاً ، ويوهمهم أنه موعل في
الجنوب إلى نحو البوابة وقد أعماه على المعاجزة حمة العدة ، وقمة الرد ، وسرعة
الحيل العربية في سهول الأرياف ورمال الصحراء ومن هذه المعاجز البارعة
تلك المعاجزة التي دهم بها الروم عند الحبل الأحمر ، وهضموها جيشاً يقارب
عشرين ألفاً ، لم يتق منه إلا بضع مئات ، وكان قائدهم « ثيودور » قد حرج
للقاء عمرو عند عين شمس ، فاستعد له عمرو بقلب جيشه ، وأقام من حناحيه
كيميا عبد الحبل الذي بي المكان المعروف بالعباسية الآن ، وكيميا آخر عند « أم
دين » حيث قامت الأركية الحديثة واستمر القتال بين الجيشين ، والروم
يحسبون أنهم يواحبون الجيش العربي كله ، ويستعملون الجهد أجمع في انعه

عليه ، فما راعهم إلا الخيشان الكميان بفصان على حين غرة ، فيتعد الأمل
القريب ويدب اليأس في مكانه إلى القلوب ، ويرجع القوم بثلاثمائة مشرد بين من
ألف رما تجاوزت العشرين !

وكما حذر للروم أن يأخذوا العرب بحيلهم ويرتدوا عليهم بمهاجاة من
مهاجأتهم ، حطت الحيلة في أذهنهم ، ووجدوا العرب أبقاظا لهم كأنهم كانوا
على عيم بنيانهم ومكائدهم فما خرجوا من معاقبتهم المحصورة في ليل ولا نهار
ليدهروا العرب على عرة ، إلا تجملت هم أمة الخيش كله في حركات
معدومات ، فإذا هم المأخوذون بما دبروه ، كأنهم سيقوا على كره منهم إلى شرك
مصوب .

فالعرب لم ينتصروا اتفاقا ولا حرافا ، ولكنهم انتصروا بحر ما يكمل النصر
للمجاهدين ، بالثمة والخبرة ، لم يشؤ آخر يعين الثقة والخبرة أيما عون في
الليالي البعيدة عن ديار المعسكرين لقائين ، وهو طمئنان العرب إلى أهل
البلاد من حيث حشيتهم الروم وتوقعوا منهم كل مكروه ، لأن العداء بين المذهب
الملكي ، وهو مذهب الروم ، والمذهب اليعقوبي وهو مذهب القبط ، لم يدع
مكانا لتوحيق بين الكيسين ، ولم يبق في النفوس بقية للرحمة ولا للصلح
والهودة ، وبلغ من لدد هذا لعداء أن الروم أمهلوا ثلاثة أيام للحروح من حصن
باسيون ، فقصوا يوما بها في تعذيب القبط وقطيع أيديهم وأرجلهم بتركهم في
حانة لا يرغبون فيها لشناعة عدوهم المهروم

نعم أن التصارب كثير فيما كان من موقف القبط بين حكامهم الروم . وبين
المسلمين المغيرين على أرضهم ، ولكنه تصارب لا غرابة فيه ، ولا مروح
لا تحاده ديلا على كذب الأحبار في جميلتها ، ولا لتقييد المؤرخ بريح قولها
على قول من التصارب حالة لا يحصى عنها في الموقف كله ، وفي أحوال
المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد زمن طويل أو قصير

فكرة القبط للروم ثابتة لا جدل فيها ولا يتطرق الشك إليها ، فإذا جاء في بعض التواريخ أنهم أظهروا المودة للعرب ، وجاء في تواريخ أخرى أنهم لشوا على موالاة الروم إلى ما بعد الجريمة الحاسمة ، فليس سب ذلك أنهم أجزوا أولئك وكرهوا هؤلاء ، ولكن السبب أنهم ترقبوا -حلاء الموقف بين الحيشين انقذتلين ، وأنهم كانوا يعملون متعرقين ، لامتلاء البلاد بالمعسكرات التي تقطع الصلة بين أجزائها ، فيكون قوم منهم على مقربة من جند الروم تارة ومن جند العرب تارة أخرى ، ويكون الأقوام لمتعرقون على بية متشابهة وأعمال متحالفة على حسب الأحوال والأحوال .

وعلى أن ترقب تصاريا كهذا في أكثر الأخبار التي تصل إلينا عن فترة الفتح ، وعن حركات الحيوش ومفاوضات الصلح في حلالها من العث أن يحرم باستحالة حركة من هذه الحركات ، قياسا على أعمال الحيوش التي جرى بها لعرف في غير هذه الأحوال ، لأن الاستحالة والجواز إنما يحسبان هنا بحسب لا يتكرر كثيرا في جميع الحروب .

من غير هذا الفتح ، يجوز مثلا أن يسأل السائل ، كيف استطاع عمرو بن العاص أن يترك حصن بابليون ويوغل في الصعيد ، ومن ورثه جيش أعداء يقطع عليه الرجعة ويحصره حيث كان ؟ ونحوه تبعاً لذلك أن يستبعد الحركة كلها وبحسبها من تلميق المؤرخين .

ولكنا إذا اصطمنا هذا انقياس هنا ، وجب أن نستبعد الفتح كله من أفعه إلى يائه ، لأن أربعة آلاف مقاتل يتعرقون من العريش إلى نابليون لا يفتحون قطرا يسكنه شعب كبير وتحميه دولة كبيرة ، فإن لم يتعرقوا وساروا جميعا إلى حصن بابليون ، فقطع الرجعة عليهم أيسر الأمور لو سارت الحركات العسكرية على المألوف في سائر الحروب وما أعجب حصر الإسكندرية مثلا وهي مفتوحة من البحر إلى القسطنطينية ؟ وما أعجب التقيصير في إمدادها خلال الفتح كله ، وهو أول ما يحظر على البال ؟

فالحساب في هذا الفتح غير الحساب في سائر الفتح .

وأولى أن يقال إن حشد الروم - لا أحد العرب - هم الذين كانوا على حذر من الإيثار في جوف البلاد ومن إحقاق الأعداء والرعية بهم في مأرق غير متوقع فالتناقض في هذه الأخبار وما شابهها هو طبيعة الموقف التي لعلها توجب الميل إلى قبولها ، ولا توجب الشك فيها . وعيننا كما أسلفنا أن ترقبه في كل شيء ، وفي كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ العجيب ، وقد نستعنى من تعداد شواهده الكثيرة إذا أضفنا إلى ما أسلفنا تناقضا آخر يحتم به هذه الملاحظة التي لا بد منها ، وهو التناقض الذي أحاط باسم الوالي الروماني الذي تلقى العرب ثم صالحهم على تسليم البلاد . من هو المقونس ، هذا ، وما حقيقة الأمر فيه ؟ أمم روماني أو مصري ؟ وهل هو من رجال الحرب أو من رجال الدين ؟ وهل كان محبوبا في شعبه أو كان مبغضا إليه ؟

قبلت جميع هذه الأقوال بما كتبه العرب والرومان ، ولكنه في رُجح الأقوال كما سيأتي تفصيله - رجل من غير الروم ومن غير المصريين الأصلاء الأقدمين ، تولى من قبل هرقل سلطان دينيا مقروبا بسلطان الدنيا ، ومضى في سياسته على سنة الهاريس للمرض من خدام الدول المتداعية ، فأعظ لشعب الضعيف مرضاة للسلادة الأقوياء ، ثم بدا له أن سادته الأقوياء داهيون ، فأحب أن يستقل بكرسيه ، وأن يأوى إلى جناح الفاتحين لعظم بشكروهم له صميمه ، ويحمونه من أعدائه في مصر والقسطنطينية

ذلك هو أفل العرائف في وصف هذا الرجل العريب ، ولكنه على ذلك ليس بالوصف القاطع الوثيق ، وأوثق ما يقال عنه أنه رجل كان يرهق مصره بمصير البند الذي أقام فيه .

° ° °

تقدم عمرو من طريق الساحل إلى العريش ، فلم يجد بها أحدا يهده من قبل الروم ، ثم تقدم إلى « الفرما » فحاصر حاميتها واستولى عليها في أقل من

شهرين ، ثم مضى في طريقه حتى نزل بببيس ، فهزم بها جيشا رومانيا يقدره بعض المؤرخين بثلاثة أضعاف الجيش العربي ، وانقص من ناحية الصحراء على « أم دبس » واستولى عليها ، وجاورها إلى حصص « بالليون » أو قصر الشمع كما سماه العرب ، على الضفة الشرقية من النيل . واحتلوا عيمن كان يقود حاميته . فقال أناس إنه « جورج » أو لأعبرج ، كما سماه العرب ، وقال أناس إنه هو « ثيودور » الذي نزل العرب غير مرة ، وقال غيرهم به هو « أريطيون » صاحب عمرو القديم

وصل الجيش العربي إلى جوار « ميف » عاصمة القراغة ، في شتاء ٦٤٠ للميلاد ١٩ للهجرة - وعرض عن وإن البلد شروطه التي هي شروط المسلمين قبل كل قتال ، وهي الإسلام أو الحرية أو السيف . وعهد إلى التأثير الأدبي في إقناع الحامية ومن يلود بها من أهل البلاد ، كما عهد إلى الخدعة والسالة فكان إذا جاءه الرسل من قبل الروم أبقاهم بين جموده يوما أو يومين ليروا ما عينهم رمد المسلمين في الدنيا ، واستخفافهم بالموت ، وصبرهم على الشدة ، وإقدامهم على الكربة في سبيل ما هم مؤمنون به وساعون إليه

غير أن أدوات الحصار في جيش عمرو لم تكن من القوة بحيث نعيه على اقتحام سريع للحصون التي كانت توصف بالماعة في تلك الأيام فظل يشه أمام حصص ماسيون قياسا على حصار الرما وببيس ، ولم يشأ أن يقضى الوقت كله في الإقامة على جواب الحصص حتى تصيق الحامية درعا بالحصار فتستسلم إليه ، ولم يكن ميسور له أن يُعيد السرايا إلى مصر السفلى نحو الإسكندرية وما جاورها ، لأن ابتداء الفيضان في نهر وجد وله انكثرة حال دون ذلك ، فحوّل سراياه إلى الصعيد وأطراف الفيوم . ويبدو لنا أنه لم يقصد بها التمتع والاستيلاء على المدن في المرحلة الأولى من لقتال ، وإنما قصد بها أن يشعل حمده محافة عليهم من سداد الراحة وطول الانتظار ، وأن يعرف بالتحربة المحسوسة مدى التعويل على ولاء أهل البلاد ، وأن يضطر حاميات الروم القليلة في الصعيد إلى البقاء حيث هي ،

والعقول عن إمداد الحامية في حصص بالليون بعض رجالها إذا خطر لها هذا الخطر ، لأن هديد الصعيد من حين إلى حين ، يوجب عليها أن تحمي مواقعها قبل التفكير في إمداد غيرها ، فإنما كانت حركات السرايا في الصعيد مندورات لتنعمية والإستطلاع ، ولم تكن حملات للفتح والاحتلال .

وفي هذه الفترة حيل إلى قائد الروم أنه قادر على أحد العرب بالمداخلة كما يأخذونه . فتأهب للهجوم على جيش عمرو في قاعدته الكبرى بعين شمس ، وكانت تلك المعركة التي أسلمنا لإشارة إليها ودارت فيها لدائرة على الروم ، فتجلت فيها مهارة عمرو في القيادة ، كما تجلت فيها يقظته بحركة أعدائه وثباته لقوتهم وهي أصعاف قوته في الرجال والسلاح .

وانقضت السنة ، ومضت أشهر من السنة التالية ، والحصص صامد لا يسلم ، ولا يزال الدين فيه يخرجون من حين إلى حين لمناوشة أحد المسلمين ولعودة إليه ، وكان النبي قد هبط في أثناء ذلك ، فاستطاع عمرو أن يرسل مرقا من جيشه إلى مصر السقي لتعويق حركات الروم قبل التقدم إليه ، فكان يهزمهم تارة ويرتد عنهم تارة أخرى ، بعير كبير طائل لهذا الصريق أو لذلك

وظل الفاروق في المدينة يرقب جيشه الراجف بعين لا تنعص ، وقلب لا يوجل . ولم يزل يمددهم ويسأل عن أحوالهم ويتفقدهم ، فلا يرى شيئا هو أحق عنده بالتفقد من سلاحهم الماصي قبل كل سلاح ، وعدتهم اللازمة قبل كل عدة ، وهي الإيمان أو قوة الروح . فبما أبطأ الفتح المبين لم يرجع بإبطائه إلى قلة العدد ، أو قوة العدو ، بل رجع به إلى نقص الإيمان ودخل النيات ، وكتب إلى المسلمين يقول « عجزت لإبطائكم فتح مصر ، تفاتلوهم مد ستين ، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأصبتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تعالى لا يصبر قوما إلا بصدق ثباتهم »

ولهذا الاستثناء معناه التاريخي الخليل في فهم تحفظ المسلمين صدر الإسلام ، وهم التردد الذي بدا من الخليفة يوم أن عرض عليه عمرو مسيره إلى

مصر لفتحها بعد فتح فلسطين . فإن مد الاستبطاء دليل على أنه لم يتردد في تسيير الجيش إلى مصر استهوا لا لخطب الروم ، أو استعطافا لفتحها على جيش المسلمين ، ولكنه تردد على سته في اجتناب العزو إلا لدفع خطر ، أو اتقاء عدوان منتظر ، ولولا ذلك لكان استهطاؤه الفتح بعد استهواله آياه من أعجب الأمور .

وحدث في أثناء ذلك أن مات العاهل هرقل ، وشاعت الدسائس في البلاط بعده . وفشا المرض في حامية الحصن حتى هلك به خلق كثير ، وتغلب حرب الصلح بعد موت العاهل الذي كان يآبه . واعتز جيش اسلمين بإمداد من الفرسان معاوير يقدر الواحد منهم بألف مقاتل ولا معالة ، لأن تقديره بألف مقاتل لا يعني أنه يساويهم في العدد والكثرة ، بل يعني أنه يث الشجاعة في الجيش بقدرته ويقينه ، فيقابل الجيش كأنه قد ريد ألف مقاتل ، ولم يكن قصاراه قيادة فارس واحد . وليس هذا بعجيب في جيش تقوم عدته الكبرى على الثقة واليقين .

من هؤلاء الزبير بن العوام الذي جاء في بعض الرويات أنه تسوّر الحصن ينهجه جماعة من المستشعدين ، فأوقع الرعب في قلوب الحامية وهي تعانى ما تعانى من اليأس والخوف والسقام ، فأسرع أنصار الصلح إلى التسليم بعد جماعة قبيلة من المعارضين . وكان ذلك يوم الجمعة انسب ليوم القيامة سنة (٦٤١)

وبادر عمرو بعد سقوط الحصن إلى إقامة المعابر على الليل لعبوره قبل فيضائه ، ثم مضى في طريقه إلى الإسكندرية يقائن من لقيه من هامة الروم أو جموعهم المترصة في حصون المدن الكبيرة بين بالبيون وشاطئ بحر الروم . وضرب الحصار على المدينة الكبيرة ، بينما كانت جنوده ، وهو على رأسهم في بعض الأحيان ، يشنون الغزاة على مدينة بعد أخرى من مدن مصر السفلى ، حتى كان أول الحرم سنة ٢١ هـجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١) ، فسلمت الإسكندرية

يأسا وسجورا ، وهي قادرة على مواصلة القتال سنوات ، واعتقد الصليح على أن تؤدي الحرية ديارين عن كل رجل قادر على العمل ، وأن تستمر المدينة أحد عشر شهرا تجلب لجيوش الرومانية في حلالها عن المدينة ، وتعمل معها من متاعها مائتة ، وأن تباح للمسيحيين عبادتهم ، ونصا لهم معايلهم ، وأن يؤذن لليهود بسقاء في الإسكندرية ، وأن يصح الروم عبد المسلمين رهائن نصا نقاد الانفاق مائة وخمسين من المقاتلين ، وخمسين من السراة عبر المقاتلين .

وكان هذا الصليح على هوى المقوقس ، ولم يكن على هوى الكثيرين من علاة الحد وأصحاب الأموال في العاصمة التجارية لكبرى قنارو بالمقوقس ، وأحاطوا بقصره منوعين مدربين ، وخرج هم باكيا يعتذر لهم عشية الله من أرل الأزل ، ولا راد نصاء الله . واستمعوا إلى الرجل الذي يكتمهم سنان الدين ولسان الدنيا وشاركوه في الكاء !

تقدمت الإشارة إلى مسألة عمرو في حصار الإسكندرية ، ومحارفته نفسه في اقتحام حصونها مع طلائع المقتحمين . فما هو صحيح من أساء تلك لیسالة فهو شاهد غني قد شهدت به معارك كثيرة ومآز شني ، وما ليس بصحيح فهو من مسافة الخيال في تكبير الواقع ، وليس بما ينقص ذلك الحق المتص على .

على أن العظمة التي ثنت لعمر بن العاص بعد فتح مصر لا تقل عن عظمة المانع الحري ، ولا عظمة القائد الصليح بمون الخدعة والإقدام .

مقد عرف مصر وهو مقبل على حكمها ، كما عرفها وهو مقبل على فتحها ، فإذا هو صاحب سمار والقرار صلاحه للهجوم والحصار .

انتهى دور المانع بتسليم الإسكندرية ، وبدأ دور الحاكم الذي يسوس رعاياه .

وكان رأي عمرو أن مصر أخذت فتحا ، ولم توجد صلحا كما يفهم من الصليح بعير قتال ، وفي ذلك يقو . وقعدت مقعدى هذا وما لأحد من قط

مصر على عهد ولا عقد ، إن شئت قتل ، وإن شئت خمست ، وإن شئت
بعت ١١

ولكنه مع هذا شاء غير القتل وغير التخميس وغير البيع ، فعامل لرعية في
أمر دينا وديانها معاملة رخصتها ، وأطلقت شاءها ، وجعلت البطرق بنيامين
يسمى عهد العرب بعهد السلامة والأمان ، وعهد الرومان بعهد الحور والطعيان
وكان هذا الطرق معدا عن مكان الرئاسة الدينية لمخالفته مذهب الكيسه
الملكية ، فاستقدمه عمرو واحتفى به وردّه إلى مكانه .

وأقبل على سياسة البلد وتدير مصالحه وتوفير حياته . فعلم أن الرخص
والغلاء مرهوبان بفيضان النيل ، وأن سياسة مصر هي سياسة النيل في ارتفاعه
وهبوطه ، فكتب إلى الخليفة أن أهل مصر يحهدهم الغلاء ، إذا وقف النيل عند حد
مقياس لهم ، فصلا عن تقاصره ، وشرح به علل الغلاء فقال : « إن مرط
الاستعمار يدعوهم إلى الاحتكار ، ويدعو الاحتكار إلى تصاعد الأسعار بغير
قحط » ثم أتبع ذلك فقال : « إن وجدت ما تروى به مصر حتى لا يحبط أهلها
أربعة عشر دراعاً واحد الذي تروى منه إلى مائتها حتى يفضل منه عن حاجتهم
ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر دراعاً ، والهيأتان الموجهتان في الزيادة
والنقصان هما الضم والاشتجار اثنا عشر دراعاً في النقصان وثمانية عشر دراعاً في
الزيادة » .

ونام بأمر الخليفة على بناء المقاييس ، فبنى مقياس حلوان ومقياس أسوان ،
وأشرف على صيانة الحداول والخسور ، وكان سكان البلاد يعتمدون على وسائل
خرايف لا مستدرار ماء انقيصان ، منها إلقاء قربان في النيل يقال في بعض الروايات
الصعبة إنه عدراء بقيد الحياة ، ويقال على الأرجح إنه دمية من القطن على هيئة
فتاة تمثل لأرض الزراعة التي « بتروح » بها النيل أو يثمر منها ثمراته فكتب
عمرو إلى الخليفة في ذلك ، فجاءه منه الأمر بإبطاله بعد أن فكر هو في مثل

ذلك ، فأبطل هذه العادة الخرافية ، واعتمد على الوسائل لمعقولة من تنظيم الماء
ومساوية الري حسباً تهيأت له الأسباب العلمية في ذلك الزمان

وتفرق في جمع الأموال من حرية الرؤوس وحرخ الأرض ، فودعها على
ثلاثة أقساط في العام ولم يرد محصول السنة على اثني عشر مئوب دينار ثلثها
من جريه الرؤوس على حساب أربعة ملايين عدد المذكور العاملين ، وبها نحو
ثلاثة ملايين دينار خراج لأرض على حساب مليون ونصف مئوب عدان . وهو
دون الخراج الذي كان يجبي في عهد الرومان وانعراة غير ما كانوا يصنعونه
غصاً من الخيرات والخيرات .

وقد كانت قلة الخراج عن القدر المطلوب في أول الأمر مدعاة مزال كثير من
قبل الخلفاء ، فراحه عمر في ذلك ، وانتهت مراحه عثمان إياه إلى عرله . فإراد
خراج على عهد من أبي سرح ، وقال عثمان لعمر أشعرت أن النقاخ دُرّت
عندك ألبانها ؟ قال عمرو لأبكم أعجفتكم أولادها !

ومها يكن من تصرف عمرو في مال الخراج - و من طمعه اشهور في
نظر أن طمعه في الماء المحصل كان سبباً طامراً لذلك لنقص الذي لحظه
الخلفاء لأنه كان يستطيع أن يجمع ما يكفيه ولا يُلحظ نقصه لو آثر الحور على
النقص في سياسة وإنما عمل بالعهد الذي كنهه لمصريين ، ونظر إلى طول
البقاء في لولانة ، فعصى على السياسة التي تكمل له ولاء الرعة ، ووصلح شئون
العمارة في البلاد على حد قوله ، فإنه لا سلطان إلا برحان ، ولا رحان إلا
بحال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وكان من أهم أعمال التعمير التي تمت على يديه بأمر الخليفة فتح الخبيج الذي
سماه بخليج أمير المؤمنين ، بين ليل والبحر الأحمر ، فكان ممراً صالحاً لنفسه التي
تحمل الميرة من مصر إلى الحجارة ، وطالما احتاج الحجارة إلى تلك الميرة في أعوم
الفتح والمحاجة .

وبى مدينة القسطنطينة حوز مسجده المعروف باسمه إلى اليوم وإذا صح ما قيل في سبب تسميتها بالقسطنطينة ، فقد نبى عمرو « الشاعر » بقطاب الحسن والحسين تحت أحكام السياسة وأبغض حروب . قيل به أراد أن يقوِّض قسطنطينة . فرأى بيمامة قد باصت في أعلاه فقال . لقد تحرَّمت بحورنا . وأمر لحد أن يُقَرَّوا القسطنطينة حتى تطير فراخها . حتى حتى تُنبت المدينة في مكانه وتُسميت بالقسطنطينة أو لعل السياسي ها كان يُقظ من الشاعر لأر حناية بيمامة وديعة في جوار وال . هي إحدى له من البأس والرهمة في استمالة القلوب العصبية إلى « الحناية » العريفة التي فرصت عليه .

ومن تمام القول في سمعة الحكم الإسلامي بعد فتح مصر . أن معرض مسألة طال فيها الأُحد والرد بين المؤرخين وتناقضى الإسلام . وهي مسألة احراق المكتبة للكبرى بالإسكندرية !

وحلاصة هذه المسألة أن عمرًا رفع إلى الفاروق خبر المكتبة ، فجاءه الخواب بما نصه : « ما الكتب التي ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله في كتاب الله عه غني ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه . فتقدم بأعدامها » . فورعت الكتب على أربعة آلاف حمَّام بالمدينة ، ومضت ستة أشهر وهي تستخدمها في وقودها .

ولم تذكر هذه الرواية إلا بعد انقضاء ستة قرون على تاريخ الفتح ، فهم معرض لها البطريق بوتيخوس الذي توسع في الكلام على فتح الإسكندرية وكدها طاهر من المبالغة في عدد الكتب التي تعي أربعة آلاف حمَّام عن الوقود ستة أشهر ! مع العلم بأن الرُّق الذي كانت الكتب تسطر عليه في ثلث العصور لا يصلح للوقود ، وأن النواصير التي يريد إعدامها لا يسلمها لمن نعه يبيعها أو يحرقها ، ولا يفوته أن يعهد في نقلها إلى أصحابها وقد حملوا معهم متاعهم الذي طلبوا حمله وهم ذاهبون إلى أرض الروم . وقد حدث أن هذه المكتبة أحرقت مرات في

عهد يويوس فيصر ، وعهد العاهل نيودسيوس الذى أباد آثار الوثنية ، سواء من الكتب أو التماثيل .

وكفى لتكذيب هذه الأسطورة أنها لا تشبه عملا من أعمال الفتح الإسلامى ، الذى اقترن بالتعمير ولم يقتز قط بالتكيب والتدمير ومنها يكن من صدق القول المعروف إلى عمروى وصف مصر « أن نيلها عجب ، وتراها ذهب ، وأمراءها حلب ، وهى لمن حلب » ، فإنه لم يأحدها قط بسطان العلبة والرهبة ، ولم بشرع فيها شرعة إلا كان رائده فيها الرفق والموثقة .

البلاد والسكان

قل الاسترسال في بقية هذه السيرة إلى نهايتها من أعمال عمرو في مصر ، رى أن هذه السيرة تستلزم بيانا مفصلا عن حالة البلاد لمصرية كما صارت إليه في الآونة التي تم فيها الفتح ونصي فيها على سيادة الدولة الرومانية ، فهذه الحالة من الأسباب التي لا يُعْمَلُ عنها عند تقدير عمل الفاتح العربي ، وتقدير العوامل التي يسرت له القلبة على الرومان

وقد راجعنا بعض المراجع التي لم نعد لها من قبل ، وبكشفت في السوات الأخيرة بيانات هامة من المؤرخين العربيين الذين كتبوا عن تاريخ الرومان بمصر ، كأنهم أناس من الرومان يذكرون مضافا حق بهم ، ويتمسون العرب عنه ثارة ، ويتمسون العلة التي تعميمهم من وصعته بارة أخرى وقد نظرنا إلى تحليلاتهم وتحليلاتهم بالظرة التي تسمى هـ ، فرددنا كثير منها ، وهاكنا الحجاب عن كثير مما كان يحجب عن من يقرءون تاريخ هذه الفترة على غير التفات إلى هذه الأسماء التاريخية ، بل هذه التواريخ العصرية التي تدبها في هذا الزمن ، بواعث حية ، كما سيرى القراء ، ولعلهم يستوضحون ذلك من وجهة الحقائق في أمر البلاد والسكان ، وأبطال التاريخ المشتركين في حوادث الفتح على ذكر من هذه البيانات

كانت مصر في الزمن القديم معروفة بين أهلها باسم « كيم » أو « حيم » ، بيا ، تنطق بمالة بين الباء ولألف ، ويتوهم بعضهم أنها مأخوذة من كلمة حام أو حام بن نوح ، على اعتبار المصريين سلاله حامية قديمة ، وهو من الأوهام التي لا سند لها من التاريخ ولا من الآثار الباقية ، لأب معنى الكلمة قديم في اللغة المصرية بمعنى الأرض السوداء ، ومنها أخذ اليونان كلمه الكيمياء حين كان علم

الكيمياء يسمى بالعالم الأسود أو لسحر الأسود ، لأنه من العلوم الخفية التي يستعان عليها بالأرواح الشريرة في زعم الأقدمين !

ولم ينس من أسماء مصر القديمة في العصر الحاضر غير تسميتين اثنتين ، أحدهما اسم (إيجهت Egypte) الذي تلقاه العربون عن اليونان ، ولا يزال لديهم علما على البلاد المصرية ، وأصله مجهول تختلف فيه الأقوال ، ويرجح أن الكلمة منحوتة من كلمتين بمعنى « جى بتاه » أو « كى بتاه » ، أى بلاد فتاح الإله الذى كان معبودا في « منف » ، العاصمة القديمة التي عرفها اليونان الأسبقون

والذين يرجحون هذه التسمية يرون أن كلمة « قفط » مشتقة من النسبة إلى « كى بتاه » ، بخلاف لمن يرجعها إلى قفط أو كوتوس في طريق البحر الأحمر ، وقديما قبل إنها كانت بلدة على البحر الأحمر ، ثم نقلت إلى الطريق كله بين البحر الأحمر والبلدة التي اشتهرت باسم قفط في إقليم قفط ، ولا تزال معروفة به إلى اليوم ، ولا تزال طريق القصير وقفا من الطرق الممهدة للقوافل في العصر الحاضر ! وليس من التعسف البعيد أن يقال إنها أصل التسمية لقديمة للبلاد المصرية ، لأن عواصم مصر الكبرى كانت في الإقليم القبلى ، وظلت فيه قرونا طويلا من العصر القديم ويتوسع بعض المؤرخين في دلالة هذه التسمية ، فيردون إليها علاقة مصر العليا بالبلاد العربية القديمة ، ويحسبون أن المهاجرين الأوائل قدموا من طريق البحر الأحمر ثم طريق الصحراء في رسم مجهون . ولا يلزم من ذلك أن يكون أصل بلصيين جميعا من هؤلاء المهاجرين ، لأن ملامح المصريين الأوائل ولعائهم لا تنحصر في أصل واحد ، ولا تنحصر على لخصوص في السلالة السامية ، بل يوجد فيها مزيج قليل يسهل تعييله بالنسبة إلى طريق « قفط » من جانب البحر الأحمر أو الجناح الذى يقاله على النيل

أما الاسم الآخر من الأسماء الباقية ، فهو اسمها المشهور في اللغة العربية أو هو اسم « مصر » الذى يحسبه بعضهم مأخوذاً من كلمة « مصر » التي تطلق في العربية

على أرض خواصر أو على المحاصرة الكبرى ، حيث تقدم معالم الحكم وأحكام
الشرعة .

والتعال ان كلمة « مصر » عربية الأصل ، ولكن في لغة العرب السابقة هذا
الاصطلاح الحديث . وما يقوى الحديث بالنسبة إلى الكلام العربى المتداول على
الألسنة من عهد لإسلام وما قبله بأجيال قليلة ! وقبل هذا العهد ، عهد
الإسلام ، عرف العرب مصر ثم عرفها منهم العبرانيون المستقرون من أرض
العراق . وقد كد المؤرخون أن يتفقوا على أن العبريين قدموا إلى مصر في عهد
لقائل العربية من لرعاة وأتباعهم المشهورين باسم المكسوس . فهم أول من
أطلق على « مصر » هذا الاسم وسموها « مصرام » . فزعم بعضهم أن الكلمة من
اسم قديم يدعى مصرام يحسبونه جد المصريين أحميم ، ولكن الواقع أن
« مصريم » تشبة مصر باللغة العربية بمعنى المصرين ، أى الوجه البحرى
والوجه القبلى ولا نزال الكلمة بعد ذلك بحاجة إلى تفسير من اللغات السامية
الأولى . لم يكن لها معنى قديم منقول عن هيروغليفية

والحث في العربية ، واللغات السامية عامة ، هو الذى قاد الباحثين إلى مادة
« مصر » في جميع هذه اللغات . مادة « مصر » تفيد في هذه اللغات جميعا معنى
الضم والصبي ، ولشئ « المصروع » هو الشئ « المصعوط » أو المشدود ، ومنه الضربة
والضرار والإصرار ، وقيل هذا . إن المصر يرد به الوادى الصيق المصروعين
الحنين ، ويوقع في تنوع هذا المعنى ، فقيل إن العبرانيين سمو البلد باسم
« مصر » . بعد ما أصبح فيها من الصيق ، وبعدما اعتزموه من العرار بأنفسهم
من هذا الصيق ، وهو اعتساف في التأويل لا تؤيده كلمة واحدة توحي اشتقاق
لكلمة هذا الاتجاه

أما المصر من « مصر » بمعنى حصر الوادى بين الجبلين ، فيلاحظ أن
العبريين أطلقوا اسم المصرين على الوجهين ، ولم يكن الوجه البحرى حيث

أقام الأكتنوب منهم - واديا محصورا بين الحان . ولم يعرف قط . ثم أطلقوا على مصر اسما آخر قبل وفودهم إليها ، إلا أن يكون سم النهر أو بلاد حام وهذا يذهب بعضهم إلى أن كلمة « مصر » هيروغليفية قديمة مركبة من كلمات ثلاث بمعنى « بلد بناء الشمس » . والكلمات الثلاث هي « ما » بمعنى موضع ، و « سي » بمعنى ابن ، و « ري » و « را » . بمعنى الشمس ، ومنها « راع » التي سبب إليها بعض الفراعنة . فإذا صح أن « ما سري » هي أصل هذه التسمية فلا عراية فيه . وإلى يعرفه السلد الذي يعزرا الاستناج . وليس له الآن وجود . وكل ما هناك أن أناسا من الثقافات يستندون إلى طلاق اسم « مسري » على شهر المعيصان أو شهر النيل المنتظر . ويربطون كما فعل لعلامة « مسيرو » بين اسم الشهر واسم البلاد .

ولا ينبغي أن اللغة الهيروغليفية كانت لغة تصوير ، نعلب فيها لمقاطع على الحروف ، وأن المصريين استخدموا الأبجدية اليونانية ورادوا عليها بعض الحروف التي لا وجود لها عند اليونان ، حين أرادوا الكتابة باللغة الوصية . والاستقلال بها عن كتابة الدول الرومانية ! وقد وجدت صور الأرض والشمس عليها دالة على البلاد المصرية في الآثار القديمة . أما نطقها باللفظ فتأرب لفظ مسر أو مصر ، فليس له منذ معروف بل كان الكتاب المصريون المحصرمون بين عصر اللغة الهيروغليفية وعصر اللغة القبطية يدكرون مصر كما يذكرها اليونان باسم وسط بين « جبت » و « قبت » و « قط » ويظهر أن كتاب العربية أنفسهم كانوا يطلقون كلمة « قط » على البلاد أحيانا ، ولا يقصدون بها السكان كما فعلوا بعد ذلك ، ولهذا كانوا يدكرون المصريين باسم « القبطيين » . وتكررت هذه السبة بعد الفتح الإسلامي برمن غير قصير ، وم يدجنهم إلى التفرقة بين السبة إلى مصر والسبة إلى « قبط » . إلا أن رعه في توصيخ الفرق بين المصريين بعد الإسلام والمصريين قبل الإسلام . وقد كان المؤرخون المسلمون يدكرون « المصريين » إلى عهد « معاوية » ويعنون بهم العرب المسلمين المقيمين في الديار المصرية ، ولهذا كانوا يقولون إن

« مصريين » أيدوا عبثاً في حلاله مع معوية ، وأنهم لم يبايعوا معاوية إلا بعد ولاية عمرو بن العاص الثابتة على أن العرب كانوا يسكنون مدينة « قبط » قبل الإسلام . وقال سترابون إن نصف سكانها منهم ، وربما أخذوا كلمة نبط من السنة إلى هذه المدينة القديمة في طريق الصحار .

ومن المحقق بعد جميع التأويلات والاحتمالات أن اسم « مصر » كان معروفاً في أرض كنعان قبل وجود العبرانيين ، وأن اليونان عرفوا مصر باسم « بحت » قبل عصر الشاعر هوميروس . وأن ألواح تل العمارنة ذكرت مصر باسم « هكتاه » الذي يرجع إليه الاسم اليوناني ، وأردت به أرض منف وعاصمة شاه أوفتاح ، وأن « مصر » تعبر التعريف لم تطلق على قطر غير وادي النيل ، وأن العرب هم أول من تسمى بمصريين ، ولم يأخروا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها كما أفعل الرومان واليونان من قبلهم ! ! وقد كان لمؤرخون قبل الميلاد ويعدده يحصون سكان البلاد المصرية فلا يشملونهم بإحصاء واحد ، ويفردون كل فريق من السكان بتعداد خاص ، كالروم واليهود وأبناء البلاد الأصلياء ، ومعظمهم كانوا يقيمون في الصعيد وفيها ينزل فرع النيل المعروف الآن باسم فرع دماط و فرع رشيد . وكانت الأقاليم التي تقع إلى شرق فرع دماط وإلى غرب فرع رشيد ، مُقما لقبائل متفرقة تعرف بالأسباب ، ولا نعرف بأسماء المدن والقرى في أسماها الشائعة

وقد أحصى ديودورس الصقلي ويوسفوس اليهودي سكان مصر ، فلم يجاوزوا هم ثمانية ملايين ، وولهم من مؤرخي القرن الأول قبل الميلاد ، والآخر من شهدوا عصر الميلاد في أوائله ، وكلاهما فرق في التعداد بين المصريين واليهود والروم !

وكانت هذه الأجناس جميعاً في نزاع دائم بينها ، وفي نزاع دائم مع الدولة الرومانية . وربما تجرد بعض القساوسة لقتال اليهود بمحور يجمعها من الوطنيين .

ويعبر بها على الأحياء اليهودية في الإسكندرية وقد كانت عدتهم فيها وفي عين شمس تزيد على مائتي ألف في بعض الأوقات ولما حاد عصر الصبح الإسلامي في القرن السابع للميلاد لم يكن في مصر كلها من يود بقاءها في حوزة الدولة الرومانية . حتى الروم . ولم يكن هؤلاء الروم يتفوق بدوام ملك الدولة الرومانية بعد تكرار هزيمتها أمام الفرس وأمام العشائر الحميرية في أوربة الشرقية وأوربة الوسطى . ومن كان من الروم يدفع الأجانب عن أرض مصر . فإما كان يدفعهم ليستقئ له ملك لأرض . ويتحجج الفرصة لاحتطاعها من الدولة البيزنطية أو للدولة الرومانية الشرقية . فلم يكن حكم الرومان حكم رضى من المحكومين . ولا حكم ثقة بالبقاء والدوام .

كان القبطيون . أو أبناء البلاد من غير الروم واليهود . على أشد السخط من الدولة الرومانية . لأسباب دينية وأسباب سياسية . إذ كانت كنيسة بيزنطة قد دأبت كنيسة الإسكندرية سبطها وأرادت أن تعرض عليها مدمها في المسيحية لا تفره . وهو المذهب الذي اشتهر باسم المذهب الملكي . واعتمد الناصيون له أن المسيح ذو طبيعتين . خلافا للإسكندريين الذين كانوا يدينون طبيعة واحدة . ويطلق عليهم خطأ اسم البعقريين وقد كان المصريون يشعرون على الدولة الرومانية قس دحوها في المسيحية ويقابلون اصطهادها بالإصراب أو بالرهابية ولاعتكاف على الصوامع والأديرة في الصحراء . لم دأب عواهل الرومان منذ أيام قسطنطين بالمسيحية . فتعير سبب الاصطهاد ولم يتغير طبعها وبعضاؤه التي شق بها أبناء البلاد عدة قرون . كان الاصطهاد لاختلاف الدين . فتحول إلى اصطهاد لاختلاف المذهب ولحالة ولم ير أنناع الكنيسة الوطنية يرمون أنناع الكنيسة الملكية بالكفر والمروق . ويقولون عنهم بهم مرقون طبيعة السيد لمسيح . ويؤمنون بألجين مختلفين ومن هل هذا كان النزاع الساسى الوطنى قد بلغ عايته بين المحكومين والحاكمين . ولكن المحكومين على الأقل كانوا يستقلون بالعتقيد في الأمور التي لا تصطدم فعلا بسلطاب الدولة . فلما دأب عواهل الروم بالدين

المسيحي فرصوا لأنفسهم سلطاناً روحياً إلى جانب السلطان السياسي . ولم يتركوا للمحكومين مصراً يشعرون فيه باستقلال الرأي والضمير . وقد تعاقم الخطب في عهد الإمبراطور ثيوداس - قبل الفتح الإسلامي مباشرة - فصدر أمره إلى ولاته على مصر بطرد جميع الوطيين من وظائف الحكومة ، وإبرامهم طاعة الكنيسة في القسطنطينية . وبكى لبيان السخط على الدولة الحاكمة أن الخلاص منها أصبح حتماً من الأحلام التي تساور رءساء الكنيسة لوطية في يقطهم وسامهم . فرأى البطرك بيازين في منامه أن مصر ستفتح لأناس محتوين بقدوها من أعدائها المتسطين عليها . ورؤي هذا الحلم عن روايات مختلفة منسوبة إلى أناس غير المطرق بيازين .

ولم تكن عداوة لمصريين للدولة القائمة حادثة على سكان البلاد المصرية من الروم . بل هم كانوا يعمون أن كراهة المصريي للسكان المحليين من الروم أشد من كراهتهم رؤسائهم في القسطنطينية ، لأن هؤلاء الروم المحليين يحسمون الوطيين في لغة كما يخالفهم رؤسائهم في العاصمة الكبرى ، ويريدون على رؤسائهم عداوة أخرى هي عداوة النافذة الشخصية والغطرسة المحسوسة . وعيبك في نفوسهم أن كل زيادة في سلطان الوطيين تقص في سلطان الولاة والموظفين الرسميين ، وعاصمة بعد التحاء الدولة إلى استرعاء الوطيين ببعض مناصب الرئاسة والقيادة ، ونوكيلهم في تحصيل الضرائب والإشراف على حقوق الالتزام في الجهات النائية . بهذه العداوة المحلية ، تصاف إلى العداوة العامة التي تكون على الدوام بين الدولة العاصمة والأمة المعصونة . فلا حرم يتخوف الروم المحليون من أبناء البلاد عند هجوم العرب على نهمها ، وبلغ من تخوفهم رسوء طهم أنهم يعصلون الأفراد بالدفاع عنها عن الاستعانة بجيش من أبنائها . ولم يكن هذا الجيش قائماً قبل ذلك بالاستعانة به في ساعة الخطر المفاجئ . فلما وجد الروم المحليون أن الأمر يحتاج إلى تنظيم جيش حديد مستعد للدفاع في حالة

لاطمحن إليه ، عظمت عليهم مشقة الشطيم العاجل . فانحدوا كذلك بشروط الصلح والاتفاق ، فكاست شروطهم غير الشروط التي اتفق عليها الوطيبون . وينبغي أن ننتبه إلى خطأ يتعرض له المؤرخون في هذا السياق ، لأهمهم يقيسون الأمور في ذلك العصر على أشباهها في العصر الحديث فيحطرونهم أن الروم سكان مصر كانوا يشعرون مع الدولة القائمة بوحدة الوطنية أو وحدة الجنس والقومية ، وليس هذا الخطر مسوع من تكوين الدولة ، ولا من وحدة العنصر . ولا من شعور الولاء للنظم الحكومى الذى كان قائما في دولة الرومان شرقا وغربا عند فتح العرب للديار المصرية .

ثم تكن الدولة الرومانية دولة روم معمزل عن اللاتين وسائر الأقوام التابعين لرومة القديمة ورومة الجديدة ، أى القسطنطينية ، بل كان الروم البيبانيون فئة في ماصب الدولة الشرقية ، وكان اللاتين من أهل العرب يشعرون أن رومة الجديدة قد حارت على مكانة رومة القديمة وعرضتها للهوان والإهمال . وكان الرعايا في الشرق والعرب خليطا من الأجناس المتعادية المتنافرة ، لا تربطهم رابطة غير سلطان القوة والخوف من العارات المشتركة والقبائل البربرية . ولم يكن نظام الخلوس على العرش قائما على وراثة محترمة أو حقوق مرعية ، بل كان باب القصر للمالك مفتوحا لكل عايب وعاصب ، وكان فوقاس على عرش القسطنطينية وحوله أناس يتآمرون مع هرقل حاكم أفريقية الشمالية في ذلك الحين لإعرائه باهجوم على العاصمة وانتزاع العرش من صاحبها . فقتل فوقاس في هذا الصرع ، وخلعه هرقل بتأييد المشفقين على الماهل القتل ، ثم انتب هؤلاء على هرقل بعد تأييده ، فهم بترك العاصمة ولانتقال إلى أفريقية حيث كان . ولولا أن بطرق العاصمة يخاف على مكانته من ماسة كيسة الإسكندرية وكيسة رومة القديمة ، لانتقل إلى أفريقية وترك الدولة الشرقية للمعبرين عليها ، ولكن بطرق العاصمة فتح له كوز حرائقه ، وحشد له أعوانه ، واستحدم سلطانه الديبى في نهضة حاشه وتوهم الدعوى التي ادعاهها عليه أعداؤه ومنارعه ، وهذا كنه يجرى

يعلم الولاة الكبار ونقاد الباريين فيضعف في عروشهم ولاء لطاعة والإدعان
كما يضعف فيها ولاء الإخلاص والوفاء . ولم يكن أحد في الدولة الرومانية يجهل
أنها دولة مهارة تتصدع وتؤدن بالزوال . ولم يكن قد غاب عن باهم هراثم هرقل
وأسلافه أمام القوس وأمام الفاتل البربريه . ولا عاب عنهم أن أساطين لدوله
يتربصون به الدوائر من الداخل سارعت السلطان . أو لتحويل الدفة مع البحر
الريح . وقد كان لها اتحد مختلف كل اختلاف ما بين عام وعدم

فالذواح الذي يقيس موقف الروم المحليين في ذلك العصر على موقف العصر
الحاضر يجهل الموقف ويعطى القياس . إذ لم يكن هناك شعور قومية من سلاله
اللحم والدم . ولا شعور وطنية من تعاليد النظام السياسي وهواعد الحكومة
وكل ما كان هنالك أن آحد من رعماء الروم المحليين في مصر كانوا يعتمدون على
قوة القسطنطينية لمحافظة على مصالحهم المحلية . وانتعلب على الوطيين .
وكانوا مع هذا الاعتماد على قوتها يشككون في دوامها وبجاحها . ولا يطمشون إلى
وعودها . ولا يأمنون انقلاها . وحطهم هذه إغما هي حطة مداورة واعتماد
فرصة . قد تتحول من عاجل إلى عاجل . كما تتحول من فريق إلى فريق

وعد علمو أن العواهل أنفسهم مستبشون في قناهم . يحارب بعضهم بعضاً
مخافة القاط من العد . أو الذي لا يهمنه أن يكون بعد كيف يكون . وآخر
ما عرفوه من ذلك قبل الفصح الإسلامي أن « فوقاس » قدف بكون الدولة
وحواهر القصر الملكي في البحر . صناً بها أن تؤون إلى مناسه هرقل بعد علت
عليه . فما كان أحد منهم يقاتل يومئذ قتال أرجاء أو الثقة بالعودة إلى النصر بعد
الهريرة

أما اليهود فقد كان حبهم من النعمة على الدولة الرومانية أنها هدمت هيكل
سديان . وشردهم من بيت المقدس . وتعقبهم في بلادها بالمصدرة والمصادرة .
والإكراه على عبادة الإمبراطور تارة والإكراه على العبادة المسيحية تارة أخرى .

ولكنها كانت تعييم في كل عصر عن الذكريات القديمة عما عُدده من صوف
الاصطهاد والتعذيب . وكانت لهم نكة يدكرونها لكن من العاهيين لندين تعاموا
على عرش القسطنطينية في عصر الفتح الإسلامي . وهما فوقاس وهرقل . فلما
فوقاس فقد أمر بصردهم من وظائف الدولة في الإسكندرية ، ونعميدهم كرهاً .
وقتل من يخاف أمره فيرفض لإدعان للتعميد فلما ثار هرقل على فوقاس
بصره ، وانتظروا حبراً على يديه . فإذا هرقل يسكبهم نكة تنسبهم مطام سلمه
المعصوب عليه . وروى ذلك بطرق هرقل في الإسكندرية « اتيهوس » حيث
قال من قديمه المشهور :

« في السنة التاسعة من ملك هرقل خرج من القسطنطينية يريد بيت
المقدس فلما بلغ طبرية . خرج إليه اليهود الساكنون بطبرية وحل الحليل
والناصرية وكل قرية في تلك الحاجة . فاستقبلوه بالهدايا . ودعوا له . وسألوه أن
يعطيهم الأمان . فكتب لهم بذلك عهداً . فلما بلغ بيت المقدس استقبله رهبان
الصوامع وأهل بيت المقدس . ومعهم مودستس بالمحامين والنحور . فلما دخل
المدينة وظهر إلى ما دمرّ الهرم وأحرقوه اعتم عملاً شديداً . لم ينظر إلى ما ناله
مودستس من كيسة القيامة وكنيسة مار قسطنطين وغيرهما . فسره ذلك . وشكر
مودستس على ما فعل . وشكا الرهبان أهل بيت المقدس له ما فعلته معهم اليهود
الذين حول بيت المقدس مع حل الحليل وقت قدوم الهرم . وأهم كانوا معهم
يعيبرهم . وقتلوا من النصارى أكثر مما قتل الهرم ، وخرّبوا الكنائس وأحرقوها
بالنار . وأرّوه القلي الدين في مامبلا . وأعلموه بما فعلوا في مدينة صور من قتل
النصارى وحراب الكنائس . فلما هم هرقل ماذا تريدون ؟ قالوا له . نقتل كل
يهودي حول بيت المقدس وجبل الحليل . لأننا لا نأمن أن يغيثا عدواؤهم
مخافون . فيكوبوا أعواناً لهم . كما أعانوا الهرم علينا قال هرقل وكيف
أستحل قتلهم وقد أعطيهم الأمان . وكتبتم لهم بذلك عهداً كما تعلمون ؟ ومي
نقصت العهد والأمان . كان ذلك عاراً على واحدونة قبيحة . ولم آمن إن كتب

لغيرهم عهداً أن يأباه . فقالوا له : إن سيدنا يسوع المسيح يعلم أن قتلنا هم
عمران بدوبوك . والناس يعددوك ، لأنك في الوقت الذي أعطيتهم لأمان م
بدر ما هم من قتل النصارى وحرق الكنائس . وإنما خرجوا إليك واستقبلوك
بهذا ما مكرراً منهم ولعة . ففتبهم قربان بني الله ! ونحن نحتمل لك وعدك هذا
الدم وبكر عث . وسأل سيدنا يسوع المسيح : لا يؤاخذك به ، أو يجعل لك
جمعة كاملة في بدء الصوم الكبير . بصومها لك ، وبتركها أكل الخبز والبيض
مدامت البصراة ، ويجعل في هذا قانوناً وحرمناً بالآبغير ، ويكتب به إلى جميع
الآفاق عصباً لجميع ما سلكناك أن تعمل فأحسبهم هرقن إلى ذلك . وقتل من
اليهود حول بيت المقدس وحول الخليل ما لا يحصى من قدر عليه . ومنهم من
اختبئ ، ومنهم من هرب إلى اجبال وإلى مصر .
وجاءت هذه القصة في تاريخ المقرري حيث يقول :

« ثم سار هرقل من قسطنطينية ليجهز لخاكت الشام ومصر ويخمد ما حربه القرس
عها ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا إليه هدايا وخيلة ، وطبوا
منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فآمنهم وحلف لهم . ثم دخل القدس وقد
تلقاه النصارى بالأزجيل والصلبان والحدود والشموع المشعلة . هوحد المدينة
وكنائسها وقامتها حراب ، فسأه ذلك وتوخي له ، وأعداه النصارى عما كان من
ثورة اليهود مع القرس وبفاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس . وأهم كانوا أشد
بكاية هم من القرس . وقاموا قداماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم . وحشوا هرقل على
الوقعة بهم ، وحشوا له ذلك ، فاحتج عليهم عما كان من تأميه لهم وحطفه .
فأفاته رهابهم وبطركهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم . فأبهم عموماً
عليه خيلة حتى أنهم من غير أن يعلم بما كان منهم وأنهم يقومون عنه بكفارة بيمينه
أن يلتزموا ويؤمنوا بالنصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه . عني نمر النمران
والدهور ، فإن إلى قوطهم ، وأوقع باليهود وقبيلة شعاء أبادهم جميعاً فيها ، حتى
لم يبق في تلك الروم مصر والشام منهم إلا من فر واحتمى »

وهذه قصة تدل على مكاس الخطر من نفقة اليهود . وتدل على مكاس الخطر التي هي أبغ من ذلك ، وأدهى ، فإذا كان هرقل يحسن ما حدث في بيت المقدس حتى يراه بعينه . وكان رعاياه الكبار مقطعين عنه حتى يصل إليهم في هجر دارهم ، فذلك دوة نرقة مهمة مفتوحة للأخطار من مكاسها وتدحوها على النساء .

وقد كانت لليهود ترات غير تراتهم عند العاهدين . لأنهم كانوا قبل ذلك يهاجمون أبناء البلاد ويترصون لهجومهم في كل مرة من فترات الثورة والانقراض . وكانوا إذا سلموا من صربات الدولة واستهدف لها أبناء البلاد وحدهم . فخامر هؤلاء الظن أنهم يملكون الدولة عليهم . وأنها تحاييهم وتستعين بهم سرا وعلاية على اصطهادهم . فإذا أمروا بطنين الدولة لم يأمنوا الشبهات وأنهم من رعاياها المتورين !

وكان لليهود موقعا من أهم الملق في البلاد المصرية من الوجهة العسكرية . فكان لهم حيان بين أحياء الإسكندرية الخمسة . وهي كبرى عين شمس بجوار منف عاصمة البلاد الداخلية . وكل من هذه المواق له شأنه الخطير في أوقات الهجوم على البلاد من بحرها وبرها .

وكانت للبشوريين في شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور لا تقل خطراً عن مواقع اليهود في العاصمتين ، إذ كانوا يسكنون المراعى الواسعة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية الحبوب . وكانوا عرباً محدثين ، على أرجح الأنوال . من سلالة العماقة لأقدمين . وكانوا يعاونون العرب الفاتحين . كما عاونهم عرب الصحراء في الشام على اختلاف لعقيدة وانقام ، وإذا لاحظنا ن بادية اليوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة شامية علما أن أقسام البادية العربية لم تتميز كثيراً من قديم الزمن . وأن عمرو بن العاص قصد إلى اليوم قبل فتح منف على علم بأصول هذه السلالة .

واقصى عهد هرقل كله ومصر تسع أبحار المفتوح للإسلامية . وتتوقع
مصر كمصير حاربا في لشرق القرب . ولم يكذ أعوان هرقل يستعيدون بعض
الثقة بدولته بعد خروج العرب من مصر حتى تبي لهم أن قوة أقوى من العرب
وإروم معا قد ظهرت في ميدان الصاب العريق بين الدولتين . وسمعوا بهزيمة
العرب كما سمعوا بهزيمة الروم في فلسطين . ومهم من ذهب إلى فلسطين بجدة
هرقل . فلم يكذ يدخل لأرض ناعنا عن لعامل الذي استنجد به حتى سمع بفراره
وتوذيعة البلاد توديع اليانس الخارق إلى غير رجعة . كما نقل عنه الذين قتلوه من
ركابه عند هجوم آسيا الصغرى .

وأوشك العهد الذي كتبه خبيثة العربى لطارقة بيت المقدس أن يصبح من
محفوفات السياسة ورجاء الدين في صف ولإسكندرية داروابة اثوثة . وعلموا
أن الخبيثة حصرتة للصلاة وهو في صحن لكنيسة الكبرى بيت المقدس .
مخرج منها وصلى على درجها منفردا ثلاثا يطيبها . وسلمون ذكرى لصلاه الخبيثة
عليها . وأنه كتب في عهده أنه أعطاهم أمنا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم
وصدائهم . لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يتفصص منها ولا من صليهم ولا من
شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يصار أحد منهم ومن خرج من
الروم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبعو ما منهم ومن أقام منهم فهو آمن .
وعليه مثل ما على أهل إيبيا من البحرية . ومن أحب من أهل إيبيا أن يسير نفسه
وماله مع الروم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيتهم وصدائهم حتى يبعوا
ما منهم .

• • •

وسيرى القارئ فيما يلي كيف خاص المؤرخون في حدث انقوص كبر مصر .
وكيف تخيلوا أنه احتال لنصح بشروط غير شروط الروم من جند هرقل في
الإسكندرية . وسيرى أن هؤلاء المؤرخين سائحون يتحيطون في صناعة السح

فصلاً عن صناعة التأويل والتحريج . لأن تعاقب المفوقس شطريه لم يكن إلا
نسخة من اتفاق بين المقدس بين العرب وأبناء البلاد ، وكانت سياسة العرب أن
يتفقوا مع أبناء البلاد ، ثم لا يعينهم من أمر الدولة الحاكمة إلا أن تتحلى بمجودها
حيث نشاء ، فإذا قل أبناء البلاد شرطاً متفقاً عليه لم يكرههم أن يقبله الروم .
ولم يأتوا عنهم الخروج إلى ديارهم آمين مع من يتبعهم من رعاياهم المتعلقين
بهم في موقف الرحيل .

المقوقس

نعرض الآن بعض التفاصيل لسيرة المقوقس وهو ، كما تقدم ، من أكبر الشخصيات الخالصة في تاريخ مصر . وبسدر أن توجد في تاريخ العالم كله سيرة خلافة من هذا القبيل .

وشطر من اللوم في ذلك على المؤرخين الناسخين ، وشطر آخر من اللوم على المؤرخين الذين يلحدون أهواءهم الحديثة في مسائل التاريخ الخالية ، ويكتبون محصومات اليوم وأعراسه في شئون لم يكن فيها محل قط لتلك الخصومات والأغراض !

وقد كان تاريخ المقوقس مهماً كتواريخ حكم الرومان في البلاد التي فتحها العرب من فلسطين إلى أفريقية الشمالية . لأن أحوال الدولة الرومانية ليربطية كانت في ذلك العصر مهمة متقلبة يتولاها الإمبراطور اليوم ، فيولى ويحل ، ويقرب ويبعد ويعير المناصب وأصحابها ولا يستقر على عرشه حتى يشور عليه طامع في الملك يهدم كل ما أقامه من أركان ملكه ، وقد بقي أناساً من أصحاب المناصب كانوا معه سرّاً أيام ثورته ، وقد ينكس بأناس كان يداريهم ويدورهم إلى أن يتمكن منهم ، وقد تنظم الدولة وتحرق حوادثها على وتيرة معقونة بصع صوت ، ولكنها تصل إلى التاريخ في عصر قد اضطرب فيه التاريخ والمؤرخون . وحالت فيه الأهواء والممارعات دون ذكر الحقائق وانتجات . فمع تلوم على غير أهله ، ويبدل إنشاء لمن لا يستحقه ، وعمسج لأخبار والحوادث مسخاً لمجاعة المآرب والشهوات ! 1

وتاريخ المقوقس كان عروسة للمسح والإيهام في جميع هذه الخواب : كان عروسة للمسح والإيهام من جانب المؤرخين النساخين . وعروسة للمسح والإيهام

من مؤرخى العصور الحديثة الذين نظروا إلى أيام الفتح العربى كأنهم ينظرون إلى فتح يحدث فى هذه الأيام . ثم كان قبل ذلك جميعه عرصه للمسح من ثقل لأحداث وتغير الدول والحكومات والأحزاب الدينية والسياسية ، ويكنى بها اعتيال إمبراطور . وحيون إمبراطور بعده ، ودخول مصر فى حوزة العرس وخروجها منها . وتنازع الكنائس على العبادات تارعاً قد استعصى على كل توفيق . هل دان مذهب فخصوم ذلك المذهب عنده كفرة مشركون . ولا توسط بين الطرفين . لأن الخصومة تشمل عقيدة الدين وعصية الجسد ومطامع السيادة والسياسة ، وتطرأ إبانها غارات من الخارج ونورات من الداخل لا تؤذن فى حيزها باستقرار !

لهذا اختلف المؤرخون على كل شيء يتعلق بالمقوقس حتى كادوا أن يكرره ! !

اختلفوا على اسمه ، واختلفوا على جسده ، واحتفوا على منصبه ، فضلاً عن الاختلاف على مقاصده وأعراضه !

وطن بعضهم أن المقوقس سم الرجل من أصله ، أو مشرباً ببعض التحريف

وطن بعضهم أنه لقب وطيفة ، ثم احتضروا فى الرجل الذى كانت تطلق عليه فسم من اعتقد أنه « الأجيرح » أو الأجيرح ، الذى جاء فى كلام بعض المؤرخين العرب أنه كان يتحصن فى قصر بانيون . ومنهم من اعتقد أنه البطرق بنيامين الذى كان على مذهب بكيسة بوطنية . ومنهم من اعتقد أنه البطرق فيروش الذى كان على مذهب الكنيسة الملكية . ومنهم من قال إنه وطى مذهب مذهب أبناء البلاد واعتقد الكفرى رؤساء الدين بالقسطنطينية فأصمر الكيد لهم . وأحب أن يستأثر بالحكم دوسهم . ولم يصدقوا بعض الانتفاخ تحيراً إلا فى أمر لقيه باللغة اليونانية . فليس بين المؤرخين اليوم من يحسب المقوقس اسماً لرجل .

بل ليس فيهم من يحسب أنه لقب سفيه إنه أحد من ولاية الروم على الديار
مصرية

وعندنا أن هذا « اللقب » مفتاح لبعض الألعار التي أحاطت بتاريخه ، لأنه
يرجع الدلالة على حسبه ، وعلى علاقته بالدولة التي كانت لها السيادة الاسمية
على البلاد .
لم نجر عادة الدول الأجنبية أن تفخم ألقاب الولاة إلا إذا كان العرض مرصاة
البلد المحكوم مظهر من مظاهر السيادة .

وكانت الدولة الرومانية على الخصوص تكتفي بإيسر الألقاب إذا أطلقتها على
الولاة من الرومان ، فكانت تسمى الولاة حاكما أو قسلا أو نائب قسصل أو نائبا
أو وكيلا ، من أشتباه هذه الأسماء التي تؤدي المعنى الرسمي ولا تزيد . وتعتمدت
الدولة في أيام العواصم أن تصنف من في الولايات ، لأنهم كانوا يرشحون أنفسهم
للعرش إذا برروا بين القادة وملوكوا رماح الجيش في إقليم كبير .

إنما كانت ألقاب الصحيم مقصورة على الوطنيين ومن هم في حكمهم من
المنشيين في البلد ، لأن هذا اللقب عوض عن انتاح حيث لا منارعة عليه ، فلا
خطر على الإمبراطور في القسطنطينية من رئيس وطني مصمم في بلده بين أبناء
وطنه ، بل في ددث دمع لخطر الثورة ، ورصى بالنصيب المقصور من الرئاسة ،
وما لخطر كل الخطر فهو من تعظم قائد روماني يبارع الإمبراطور على عرشه ،
وسجد من محامة اللقب دربعة إن لاقترب به من مقام الإمبراطور وجميع
الأعوان الذين يحيطون به ، كما يحاط بكل حاكم مناظر لصاحب العرش يطمح إلى
مكانه

وقد وحب تعريض مصر عن بعض ما فقدته من سلطان الملك وسلطان الدين
بعد لقرون الخامس للميلاد

فقبل ذلك كانت الثورات في مصر لا تنقطع ، وكان بعض الثائرين من عادة

الرومان أنفسهم ، فلما استقرت هذه النوازل بعض الشيء كانت الإسكندرية قد تعرضت لمنافسة شديدة أشد عينا من سلطان السيادة السياسية .

كان الإمبراطور قسطنطين قد دنا بالمسيحية في أواخر أيامه ، فأصبحت عاصمة الدولة تابعة في العرف الديني لكنيسة الإسكندرية لأنها أقدم الكنائس وأكبرها في المشرق والمغرب .

ثم جاء جولييان المرتد بعد قسطنطين ، فبقيت للإسكندرية مكانتها الكبرى ، ولم تكن للقسطنطينية مكانة دينية كبيرة أو صغيرة . لأنها عاصمة دولة لم تعترف بالدين ، أو لم تثبت على الاعتراف به ، وانقلبت عينا تحديه وتقصي أتباعه من مراكزها العليا .

وطل مقام الإسكندرية مقامها إلى القرن السادس الذي استقرت فيه لمسيحية في عاصمة الدولة وأصبحت كنيسة عاصمة الكنائس على حد الاعتبار ، وأوشكت هذه الصفة أن تثبت لها بعد تسمية القسطنطينية برومة الجديدة . تعاليا بها على رومة القديمة ، فلم يبق لصرق العاصمة مناظر يحسب حسابه غير بطرق الإسكندرية ، وإذا كان مذهب الملك هو المذهب السائد في بلاد الدولة الرومانية - فرئيس الكنيسة في الإسكندرية تدع ولا شك لرئيس الكنيسة التي نصي فيها لإمبراطور ، وتولى رئاستها الدينية في عاصمته الكبرى ، ويطرق الإسكندرية مرءوس لبطرق القسطنطينية على حد الاعتبار

لقد كان البطريرك الإسكندري رأس الدين المسيحي في العالم كله قبل رؤسائه في العاصمة الغربية والعاصمة الشرقية ، وكان من بطارقتها من يقول : « يا يعيسى من الإمبراطور ؟ إني هنا الإمبراطور ! » وكان صادقا فيها قال ، لأن الله كانوا يطيعونه ويؤمنون بأن طاعته من طاعة السماء أما الإمبراطور فهمها يكن من أمر طاعته القسرية فهي طاعة أرضية على كل حال !

هناك وجب تعريض مصر ، ووجب اجتماع النواب السياسيين والنقب

الدينى فى كرمى واحد ، وكان مدد هو حكم المداة الذى وافقه حكم الواقع ، فكان « المقوقس » حامعا بين صفة الرئاسة الدينية وصفة الرئاسة الإدارية ، أو كان هو بمثابة « ولى الأمر » فى مصر بالاصطلاح الحديث ، وقد تكون رئاسته عند الدولة رئاسة شرف يعزرها مكانة « عمية » بين أبناء البلاد .

وإذا كان التاريخ لا يكرر نفسه كل التكرار فى جميع الحوادث ، فهو لا يخلو كل الحلو من التكرار المتجدد حيا بعد حين . ولعل لقب « الخديو » أشبه الأشياء بلقب « المقوقس » فى أواخر عهد الدولة الرومانية ، فهو ولى وأكثر من ولى فى المنزلة السياسية ، وهو ولى الأمر بالنيابة عن الخليفة أمير المؤمنين ، وباسمه تنفص الأحكام الشرعية والإدارية فى ظل شاهشاه ، وخليفة الإسلام .

كان لقب المقوقس أو المقوقر كلمة يونانية بمعنى المفخم أو الماخر ، كالخضرة الخديوية « العميمة » أو المفخمة كما صحتها اللغة العربية

وكان إطلاق هذا اللقب على رئيس من المصريين أو المنصرين معقولا مفهوما فى تلك الفترة على سبيل التعويض والترصية ، ودفع الراف والتنافس بين سلطان العاصمة الكبرى وسلطان الإسكندرية ، أما الغرب الذى قما بهم فهو إطلاقه على قائد رومانى لا يكبر إذا كبر إلا لبتزع العرش من الإمبراطور .

وهذه ناحية من نواحي البحث المتبع فى تاريخ المقوقس وتاريخ الفتح العربى من إجماله ، وهناك نواح أخرى تصارعها فى الإنتاج أو تزيد عليها ، ومنها خطاب النبى عليه السلام إلى المقوقس ، وتلك السمعة « الخارجية » التى جعلت له هذه المكانة ، وجعلته أهلا لأن يحاطه النبى عليه السلام فى أمر المصريين جميعا ، مع خطابه لموقل فى الوقت نفسه ، كأنه لا يملك من أمر مصر ما يحسكه المقوقس

ومن نواحي البحث المتبع صفة المقوقس التى « شحت » للتعاهد باسم مصر ، والتزام الإنجاز والتنفيذ بعد ارتحال الجيش الرومانى من البلاد ، ومنها النواحي النفسية التى تحب إليه أن يبق فى مصر ويخرجها من دولة الروم أبدا ، غير سال

بانتقال سلطان الدولة إلى أيدي الغانحين من أبناء دين غير دينه . فكل هذه التواريخ مستحقة تؤدي إلى شيء من الترجيح بقوى ، إما أن يكون من شأنها أن تؤدي إلى القطع والحزم في جانب ، لإثبات أو حاسب النقي والإنكار ، ولكنها على ذلك أهملت أسوأ الإهمال ، ولم يعرها « المؤرخون السائحون » بعض ما أعاروه كعادتهم للمقارنة بين النصوص ، والموزنة بين الأرقام ، وسرد أقوال الشهود على وقائع ليست من وقائع الشهادة والمحكمة في التاريخ ، ولا في حوادث كل يوم . وهذه نماذج من أقوال المؤرخين في هذه المسألة ، بحسبها نماذج لأكثر من باب واحد من أبواب التاريخ ، فهي مثال لتاريخ السائحين ، ومثال لتاريخ ذوي الأغراض ، ومثال للتاريخ الذي يكتبه المعاصرون ويظنون فيه إلى حوادث الزمن القديم ، فيحكمون عليها كأما تقع اليوم ، ونسجت من دواعي السياسة أو الشعور ، التي تدور عليها حوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين .

* * *

من أكبر المؤرخين لعصر الفتح الإسلامي الدكتور الفريد بتلر الذي أقام في مصر زمنا قبل الاحتلال البريطاني وبعده ، وجتهد اجتهاده العلمي في تمحيص الوثائق التي عثر بها في القصور الخديوية وفي المكتبات العامة والخاصة ، ولكنك تلمح من ثنايا كلامه كأنه يكتب عن خروج مصر من الدولة الرومانية ، وهو يتصورها خارجة من الدولة البريطانية في العصر الحديث ، وبحسب أن تدبير هذا خروج « عمل حاش » يحاط بالشبهات ، ويدان بأحكام العلاقات الدولية في هذه الأيام .

بعد أن أورد الأقوال المتصارعة ليصعقها ويمدها ، احتار منها قليلا وحده ، لا فصل له على سائرها ، غير أنه القول الذي يدين المقوقس ويسفه رأيه ! ! قال : « إلى هنا قد بينا ما هنالك من أدلة يربطها اتعاق عجيب في بعض الأحيان ، واختلاف واسع في أحيان أخرى ، وقد استمددنا تلك الأدلة من

وثائقها لأصلية ، ومنها ما تخلف عن العصر الذى وصفه وهى من أصول متباينة : منها اليونانى والقبطى والسريانى والعربى ، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو « فيرس » بطريق إسكندرية والعامل على « الجراح » والحاكم العام على مصرى وقت المنح ، وليس ينقض هذا رأى أن يقول إن مؤرخى العرب قد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسموه ليس هو فيرس ، ولما سكر أن الأمر كذلك ، ولكما سكر كل لإنكار تلك النتيجة التى يذهب إليها أصحاب ذلك القول ، وهو أن لقب المقوقس لم يكن علما على شخص معين واحد ، وحيثهم فى ذلك أنه قد أطلق خطأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعددين ، ويلوح لنا أن العلامة كاتيانى من بين من يذهبون هذا المذهب وأما الحقيقة التى نراها فهى أن المؤرخين العرب إنما كتب أكثرهم وليس عنده من المقوقس أكثر من صورة صثيلة مبهمه ، وأنه كان حاكما على مصر ، فليس من العجيب أن يجدهم يصورونه أحيانا مشتركا فى أعمال أو حوادث لم يكن مشترك فيها نفسه ، ولذلك فهم يخطئون فيها ، ولكن لسأله التى نحن بصددنا باقية ، وهى أن يكشف خلافهم عن حقيقة شخصية المقوقس ، وأن نعرف من كان بين الناس ، ولم يذكر مؤرخ عربى . وما كان له أن يذكر - أن ذلك اللقب قد أطلق على ثلاثة اشخاص كلهم حق له أن يلقب به ، وليس فى طاقة المنطق أن يبيح لقائل أن يقول إن وجود الخلاف يجعل ذلك اللقب متعسرا على العقول لا تستطيع حله ، بل إن واجب النقد لتاريخى أن يصح ما هناك من خلاف ، وأن يزيح ما تراكم من على الحقيقة فيكشفها ويحلها . ولعلنا يحق لنا أن نعتقد أنه إذا عُرِضَت الأداة عرضا لا ميل فيه ولا تحيز أمكن أن يصل إلى نتيجة مؤكدة ليس فيها شك ، وهى أن المقوقس لم يكن سوى فيرس ، وأنه لا يسعى لذلك اللقب أن يطلق على سواه من الناس ^(١)

* * *

(١) من ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد لكتاب « فتح العرب لمصر » الطبعة الثانية

وأشد من بنتر « بريطانية » في تصوير التاريخ تلك السيدة الإنجليزية ١٦ -
 بنتر « التي كتبت تاريخ لأمة الفصية تتأسف أولاً على أنها انفصلت من انكتانس
 العربي ، وثبتت ثانياً أن حروح مصر من حكم الرومان كان حياة مصرية
 لا تضارعها حياة ، وتعلت صاحب هذه الخيانة كأنه عاش في زمانها ، فهاب
 عيه من السباب الممدح ما يستحقه عدوها الخارجون على سلطان بريطانيا
 العظمى ، وهي - أي السيدة بنتر - على خلاف رأي بنتر في تحقيق شخصية للقوقس .
 لأنها تقول إنه هو حورح أو جرحس المصري ، وتتوجع لما حدث ، كأنه لو لم
 يحدث كانت سلمت الدولة الرومانية تما أصابها ، وبقيت مصر في حوزتها !
 قالت . « لما طرد هرقل الفرس سنة ٦٣٠ وأعاد حامياته في مصر كان علم
 باضطراب الموقف ، وتحلل قصته على البلاد ، من أن يدفع متجهاً ، وحمل
 ينتظر ريثما تلح مقترحاته الدبية مسنها عند الحاب المصري ، وكان حكام
 الأقاليم ومنهم مصريون وطيون يعلمون أن وقت الحساب غير بعيد لا يقل
 التسوية الضويل ، وكثير منهم كانت له أسامة الخاصة وأسبابه السياسية التي تحميه
 من عافة استقرار السيطره البريطانية .

« ولو أن مفرح التوفيق ، الذي عرف بالأوطاحي ، لقي الصول عند الصرق
 بنامين لأصبح هؤلاء الحكام عزلاً من السلطان ، ولكن هرقل من طريق باثه
 هيرس الذي احتاره بطرقاً سكبسة لبريطانية وكنيسة لدولة ، كان قد أخطأ فهو
 من شأن الصرق مصري ، فما بدا لهرس أن حمهرة الأمة المصرية رحبت
 بمفرحه لم يزد من اصطهاد صرق لمصري وبقي لرفعه واباته ، فما كان من ثر
 ذلك إلا أن لرفص ولإباء كمد في طوبا لأمة المصرية جمعاء ، وصح المقترح
 بحوم الروان بعد حين ، ومها بكر من أخطاء لأمة المصرية ، لقد كد من دأها
 أنها لم تحذل قط بطرقها ، وعمل مقترح الإمبر طور كان يبدو كأنه عانة لما ترومه .
 لولا أن البطرق لم يفقه ، فبس من حق المصري الصادق أن يباليه وينتصت إليه
 وشيئا هثيثاً تحولت حمهرة الشعب من جانب الإمبراطور ، وأحد قيس يدرك أنه

أحقق وخاب في مسعاه ، فتنفس الموطعون الخونة الصعداء ، ولاح لهم يوم الحساب عبر قريب .

« من هؤلاء الموظفين والوكلاء واحد ينمرد بارزاً بالمكانة الشائنة ، وقد جمع أكثر الناس بالمقوقس الذي تمارى الكثيرون في اسمه ووظيفته ، بل تماروا وجوده ، وتناقشوا طويلاً في أمره ، ولكن مجموعة الورق البردى ، التي في حوزة الأرشيذوق رينر وترجمت أخيراً ، قد يسرت لنا ، ولو بعض التيسير ، ان نرى بعض المصائب التي نخف بهذه المسألة .

« ومعظم المؤرخين متفقون منذ زمن بعيد على أن المقوقس لم يكن اسم علم ، ولكنهم حاروا في الجزم بحقيقته بين أن يكون لقباً أو عنوان منصب من مناصب الدولة . أما الواقع فيظهر أنه لم يكن هذا ، وإنما كان الرجل صاحب عنوان يمكن أن يسمى بالعمدة ، ويحظى بعض المؤرخين فيسمونه نائب الملك ، واسمه الأصلي جرجس بن مينا بركيوس ، وقد كان اسم مينا في مصر عاماً شائعاً يحتاج إلى لقب يوناني لتغييره ، وليس العمدة أو مديرو الأقاليم إلا الحاكم المصري الذي يشرف على جميع أعماله الإدارية ، كحفظ الأمن ، وجمع الضرائب وتسليمها ، بتدبير شئون الطرق واحداً واحداً ، والسدود والقناطر ، وكل ما يلحق بانتظام الإدارى ، حتى سلك العمدة وتقدير المقاييس بالأوزان . ولا يخرج من سلطانه غير الجيش ، وغنله في كل إقليم حامية صغيرة ، والفساوسه ، وهم الاستثناء الأهم من استثناء الحامية وقد كان عدد الموظفين الذين لا يعرفون أحداً أكبر من العمدة عطياً حداً ، ومن الكشوف الحديثة يعرف أسماء الأقسام الثلاثة التي تولاهم العمدة أو لمديرون في عهد الغزوة العربية

« لقد كانت اليونانية لغة البلاد الرسمية ، وكان لقب المنجيد الذي يمنحه المديرون كلمة تقابل عندنا في الإنجليزية كلمة الفحيم أو الوحيد كما تعودت في تقديم سمراتنا بألقاب ذوي السعاده ولكن العرب حسبوا هذه الكلمة اسماً شخصياً للعمدة الخائن الذي هاوض عمره على تسليم البلاد ، وقد أصبح جرجس

الحائن من ثم مشهورا خلال انفرون بوصف ما أهل انطباعه عليه . وهو وصف
المقوقس أو الفخم المجيد .

كان عمدة الوجه البحرى آمون مينا رجلا . كما وصفه يوحنا البحرى .
مدعيا عيب . بمقت المصريين أشد المقت . بقى في منصبه بعد دخول مصر في
حوزة العرب . وكان عمدة مصر الوسطى على أحد شواطئ النيل من ناحية آسيا
يسمى هيرس . ولا يعلم عنه شيئا إلا أنه اشترك في تسليم البلاد للمسلمين . وأما
عمدة مصر العليا أو بابلون - فاسمه في أوراق البردى حورح أو جرحس .
الذى سمى لمقوقس . وهؤلاء كانوا المديرين على أهم الأقاليم مع الدوق
العسكرى وحامية التى تتبعه . وإلى جانبهم قديما أو بعد دخول العرب -
مديران آخران قل شأنا منهم وهم هولكسيوس بالفيوم وشوده بالريف

و ثلاثة من هؤلاء العمدة مصريون وطيون . مدبيل سمائهم التى لا تميل
الشث . ريب لم يكونوا من أتباع الكنيسة الوطنية . وإنما أمكن أن يشعلوا هذه
المناصب وأن المؤرخين الدس يذكرون لمقوقس على أنه قبطى مصرى على
صواب . ولكنهم مخطئون في زعمهم أنه تابع للكنيسة الوطنية التى تعرف الآن
باسم الكنيسة القبطية . ولعله كان في قلبه بشايح كنيسة آباءه ولا يستطيع أن
يصرح بالانتماء إليها . فهو موظف يربطى من أبناء مصر . وهو من ثم حائن
لإمبراطوره . وخائن لبلاده . وخائن لكنيسته

وكان قد مضى عليه عهد بعيد في وطيفته على أيام الغزوة العربية . فأصبح
أقوى المديرين جميعا لدخول بابليون في إقليمه على أقصى حده الشمالى . وتعود
المصريون نحو عشرين سنة أن يظفروا به كأنه وحده حاكم وادى النيل . وقد
علمهم غارات الفرس أن البيزنطيين يعبر حول ولا قوة . فلم ذهب الفرس وعاد
البيزنطيون . واحتلت طالمة من جنودهم حصن بابليون وبعض الأمكنة في
بني سويف والفيوم . ولم يشعر أبناء البلاد إلى الجنوب بآثار هذا التغيير . ولا فرقوا
بين الجود في ملابس الفرس أو الجود في ملابس الرومان . وإنما كانوا يؤدول

انصرفوا بحكم العادة بمعنده أو مدير . ويكفون إليه أن يسلسها لمن يشاء .
واقصى رمن طويل ومدير نفوى تصرف فيها على أيسر وسيلة . فيستبقى له كل
ما بقى من الأموال بعد توزيع المرتبات وتكاليف الحكومة فى الإقليم . ولكنه
ما علم أن رأى هرقل يظن أن مقترحات التوفيق قد جمعت أثناء البلاد . ويريد
بدليل المحسوس على سلطانه . ويشدد فى استقصاء الأموال . حتى شهد لخطر
هاغراً له أمام عينيه . وكان من قبل قد نظر إلى بعيد . وأرسل إلى الشمس
الطالعة سمارة ودية تحمل الهدايا من العمل والعبيد إلى محمد رحيم القوم . وهاهو
دا محمد قد مات . وهاهى دى وقائع النصر الى تحررها هرعن نعمه وتشعل
باله . فإذا نهضت الدولة القديمة وهرمت العرب أمامها كما هزمت الفرس . فهو
أول من يساق لتقديم الحساب وقد التفت جيوش هرقل وعمر حبيفة محمد فى
فلسطين . وأيقن جرحس أن مصر ستكون لا محالة نصيب الصاهر من لهرقلى .
ولاح له من وقائع هرقل الأخيرة أنه قد يكون صاحب الكفة الراححة هادر إلى
العمل على حسب هذا التقدير . وكانت له فتاة حسنة تسمى أرمابوسة . فحضر
له حاطر بارع أن يروحها من قسطنطين من هرقل ووارث عرشه الذى مات
روحته . وأن يرودها بجهاز يفره بإهمام موضوع الأمور المتأخرة . وكان
قسطنطين يومئذ فى قيصرية . ويظهر أنه استرح إلى هذه الفكرة . وعلى هد
جرحس من بالليون فى أواخر سنة ٦٣٠ موكب فحم يرف العروس انصريه إلى قريب
سكى . وقيل إن حراس الموكب سمعوا أنى فارس عدا الخشم والخدم وحملة
الدثار والتحف تهددة . وماكاد الموكب يقرب من الحدود المصرية ويحبر
تأحية القنطرة فالعرش حتى نعى إلى أرمابوسة - انتصار العرب . ومحاصرهم
لقيصرية . وتأهبهم للهجوم على البلاد انصريه . فتصرفت المصرية بالشابة
بالشجاعة والفضة بخديري أسلافها العريقى . وقفلت إلى طليس مستعدة
هنالك للدفاع . فهدمت على لأثر حراسها إلى الفرما للمقاومة فيها إذا قدم العدو

من جانبها كما كان مرجحاً في تلك لأخوان ، وأرسلت إلى أبيها تنذره . ولم تخرج
 ليس لتشجيع السكان على الثبات في وجه الكفار على أن عمراً قائد المسلمين
 بجسد الفرمات وتقدم رأساً إلى بليس . فصرع حولها الحصار . فبثت لقناة الباسنة
 شهر ، تصد العرب بفرقها الصغيرة التي لم تدرب على القتال . وبعد حصاره
 عظيمة في الأرواح وقعت المدينة عنوة في قصة عمرو . ومعها أرمابوسة وكل
 ما لديها من ذخائرها وكورها . فعث بها إلى أبيها معرفة مكرمة . إما لإعجابها
 بسالتها ومحاولتها الدفاع والمقاومة . وإما لإدراكه لحالة العاقبة من ترك كل عمل
 يسوء إلى العمد المقتدر في بالليون فأنجحت مشككة لمقوقس . وخرج الخفاء في
 أمر الشمس الطاعة منذ ذلك الحين .

وعلى هذا المسجع من تشويه الوقائع تمضي المؤرخة « المترومة » وتتكلف من
 التحقيق والتحريض ما يعينها على عرض واحد ، وهو الخسرة على خروج مصر من
 الدولة الرومانية . وإلقاء الشبهة في ذلك على المقوقس . وتعليل حياته يجمع
 الضرائب لنفسه في الآونة التي انقضت بين استيلاء الفرس على مصر وخروجهم
 منها . وهي علة لا يعقنها جاهل بطواهر لأخوان ، فضلاً عن مؤرخ يتصدى
 لتصوير لتواريخ واستخلاص الحقائق من وراء الشبهات . فإن الفرس لم يفتحوا
 مصر ليركبو صرثها وخيراتها عسيمة للمقوقس ، يعطى منها ما يعطيه ويستقي منها
 ما يستقي . وإذا كانت علة لخيانة حروف لمطابة بالصرائب الساحرة فأيسر شيء
 على المقوقس أن يقول إن الفرس سبوا ولم يعطوه « إيصالاً » عما سبوا بطبيعة
 الحال ، وإذا عر عليه في دهائه أو في بلاهته - أن يعتذر به لعدد الواضح .
 فقد كان خيراً له أن يدل المال هرقل أو لقسطنطين بدلاً من إرساله نهباً وهذا
 وحجاراً وصداقاً مع بنته المزعومة أرمابوسة ، وهو لا يأمن أن يخرج مصر من يد
 هرقل ، فيكون قد قدف ممتلكاته إلى لبران ، ووقع بين شقي الرحى من ناحية
 المهرومين وناحية لتتصرين . ولم يستفد من كل ذلك إبقاء المال ولا إبقاء فتنة
 بدمه .

وقد قبلت لمؤرخة « المترومة » قصة أرمابومة من قصص الواقدي على
علاتها ، ولم تبحث فيها أقل بحث يتطلب التحرير والإستاد . ولم يحسبها على قبول
القصة إلا أنها دريعة لتهمة من التهم تكال لمحقوقس لمسكين ، على أن « نثر » م
يرقص قصة أرمابومة إصافا لمحققة ، أو دهايا مع التحقيق والتدقيق ، بل
رفصها لأنه احتار أن يكون المحقق هو فيرس ، واحتار أن يكون فيرس رافها
لا يجوز له الرواح ، وهو في ذلك لم يبلغ بالتحقيق عايته . لأن مسألة الرواح لم
تكن يومئذ من الخرج والصرامة بحيث انتهت إليه بعد فصل الكيسة انقطعية من
سندطاب ارموم . وقد كان مستحيا للأسقف أن يكتب بروحة واحدة إذا حشى
الفتنة على نفسه ولا يريد عليها قال ساويرس من المقع أسقف الأسموين .
صاحب « سير المطارقة » في أثناء الكلام على ديمتريوس لثاني عشر « وأداه
فائل كيف يجوز أن يكون بطرك متروحا بقول له قد قال التلاميذ في نواصبيهم
إد كاب الأسقف متروحا امرأه واحدة فلا يمح من ذلك . لأن الروجة المؤمنة
طاهرة وهراشها طاهر ولا دب عليه والبطرك هو أسقف مدينة الإسكندرية وله
الرئاسة على أساقفة أمهاها . لأنه شبيعه مار مرقس الرسول على إقيم مصر
جميعه . والخمس مدن والبوية والحيشة كل هذه خرجت من قسم الأب مرقس
الرسول ابشير بشرى الإنجيل ولهذا أوجب أن يكون حكم أسقف إسكندرية على
جميعها »

فيست هناك عمل حاسمة تصيح للاستناد إليها في التثبت من السير
والأشخاص على هذه الطريقة التي توحاها نثر ، أو على تلك الطريقة التي توحها
السيدة فيما اختارته أو نبذته من تاريخ تلك الآونة

وكان خليقا بتاريخ هذه السيدة أن يهمل كل الإهمان ، ويترجم لنصحيحه
وإبرائه من السحائف والأباطيل ، ولكنه ترجم هبلع من غباء مترجمه أن يصرف
همه في الترجمة إلى تأكيد سحائمه ، وتمكين أباطيله . واخترع لقصص شريعه
وتسويحه . وسدة واحدة من الترجمة السقيمة تكي تصوير الخراء على أهول في

مقام الحد مما يساق للناس في مقدم التاريخ المحفوظ . وهذه السدة هي هدد
لقصة نبي اخترع أو أصبحت إلى التاريخ من أساطير الخيال . وقد نقى
المرحوم مما تقدم عدل

« من ثمرت المقوس أنه كان ذا وجهين . يتلون ثلوث الحرباء ويعلب حيث
شاء . ولسان حاله يقول : أنا مع العالب فإنه لما انتصر هرقل على العرب في
موقعة عند هسطين : ظل حرجس أن لنصر سيكون هذا الإمبرطور . وبدلت
سعى في التقرب إليه وتلقى له عشاء يساهى عدوه وطمعه . فدبر الطريقة
لآتيه . وهي أنه كانت له ابنة بارعة في الخيل اسمها أرمابوسه . فحضر على باله
أن يروجه بمسططين بن هرقل الأكبر ووريثه ، وأمهره بصدى وغير جعل هذا
الأمير الذي كان حاكما في قيصرية أن يقبل صلب حرجس ويتناول في المناكرات
الناقية عليه من صرئ مصر التي لم يدفعها للحرية الإمبرطورية هي سنة ٦٣٩
سارت هذه العروس المصرية من بابلوب . بأمة الملكات . وفحفة حداتها
انصريات . يحف بها جيش حرار ، ويمشي في ركابها أمراء وأقبا . حتى سمع
مقدور الفرس الذين كانوا في موكب رفاها ألقى فارس أو بريدوس . عده العبد
والهدايا النفيسة وانطابا الفاحرة التي تلقى بعروس مصرية لعربس رومانى ولكن
عنده وصلت هذه الحساء لحدود مصر . وكذب تعير القنطرة عبد الإسماعيلية
إلى العرش . بلعها أن العلة كانت حبيبه بعرب الذين شددوا الحصار على
قيصرية . وهم يستعدون للهجوم على مصر . فلما طرق هذا الخبر آدان مدينة
وعميس . ونة فرعون . وكريمة أوثث الأحدهم الكرم الذين دوحوا العالم
واجتاحوه قبل أن يوحده العرب . طرحت حتى العرس وربة الفرح ، ونقلت
لسيف بدل الوشاح . وسحب الدروع بدل الدمايح . ونسقط معدات الهلاك
بدل حرمة الذهب المرصعة بالآلئ . ونرت من مركبتها . ومنطت من حدود
شهب . وقالت بدين يسرون معها أن هيا نحصب أيدينا بدماء الأعداء بدل
حصان لأونس . وشرب يجاهمهم عوصا عن شربنا نكاسات الذهب

وطاسات الإبرير . تعالوا تشف آدنا بصلصلة السيوف ، صهيل الخيل ، بدل وقع
الدف ورتة العود ! سيرو بنا نحو الأعداء . وهناك إذا وقعت العين على العين ،
وحمل وطيس الحرب ، وعلا سفير الطعن والصرع . وتقابلت مع الفرسان ،
نجدوسى أردد ما فانه عتزتهم لأسود . وأنا هناك ببصاء بصاء . وعاده هيماء :

دا كشف الزمان لك القناعا ومد إليك صرْفُ الدهرِ باعًا
فلا تحش المية وارقتها ودافع ما استطعت لها دفاعًا
ولا تحمر هراشا من حرير ولا لك المنارل والبقاعا

وحيثد كرت أرمابوسة راجعة إلى بليس في نفر من رجالها وأخذت تستعد
للدفاع وصد هجمات الأعداء المعبرين .

إلى أن قال :

وبعد أن دخل عمرو بليس ، وقعت أرمابوسة أسيرة في يده . ولكنه
أرسلها إلى أبيها بكل احترام وتبجيل ، بما لأنه أعجب بشجاعتها وسالتها . أو
لأنه خاف أن يؤديها هيساء إلى والدها صديقه الحميم . الذي لبت لديه الآن
أن الرب هم الدين سوف يأخذون مصر بلا محادة . ولما وصلت أرمابوسة إلى
أبيها سألتها عما فعلت ، فأجابته .

أقف بالدواهل سوق حرب وصيرت النصوص لها متاعًا
حصاني كان دلال لنيايا فحصر غناها وشرى وبعًا
وسبقى كان في أليجا طبيبًا يداوى رأس من يشكو الصدعا
إذا الأبطال هرت خوف مأسى ترى الأقطار باعا أو درعا

فكظم أبوها غيظه من لأنها قاومت الدين تعاهد معهم على أن يعطيهم
وطنه لقمة ماردة دون حرب أو عناء . ولم يستطع توبيخها أو تعنيفها ، لأنه كان
لا يزال تحت سيطرة الرومانيين . ولم تصر مصر بعد إلى أيدي هؤلاء العتاة
المغبرين

وعلى غير هذا الأسلوب أصلاً ونرى . يتعرض الدكتور حاك تاجر
لتحقيق أمر المقوقس . وناريخ الفتح العربي . وسرد الوقائع والمراتب على سق
يوهم القارئ أن النظر في الوثائق والمعاهدات يعاد من جديد . فيقول في الصفحة
الرابعة والأربعين من كتاب بعنوان « مسلمون وأقباط » :

« إن الشخص الذي يطلق عليه مؤرخو العرب اسم المقوقس م يون عامص
هل كان قطياً ؟ هل كان من أصل يوني ؟ هل لمقوقس لدى سلم القاهرة هو
نفسه الذي أبرم اتفاقية الإسكندرية ؟ لم يصل المستشرقون بعد بحث وثقيب
خلال قرن أو أكثر إلى جواب دقيق عن هذه الأسئلة . نعم إن اليوم أقرب إلى
الحقيقة من أمثال شمسبون فيحاك شقيق شامليون الذي صور لنا فيرس على أنه
فس قلاق ومفسد - حذف الطيريك جورج عام ٦٣٠ . بينما حكم مصر أحد
الأقباط كريم الأصل ومن أعني أعياء البلاد اسمه المقوقس غير أن المستندات
التي حصت عنها حتى الآن لا تسمح لنا بعد بتفسير هذا الممر لتاريخي تفسيراً
تاماً »

استعمل المؤرخون كلمة « مقوقس » باعتبارها اسم شخص معين . على أننا
متأكدون تقريباً من أصل هذه الكلمة . إن الطيريك فيرس الذي عينه الإمبراطور
هرقل محافظاً على دوقية الإسكندرية كان قبل تعيينه أسقفاً لمدينة فار من مدن
القوقاس . فنقب في مصر بلقب هوميوس - القوقاسي كما يشهد على ذلك أحد
المستندات القبطية لنادرة التي كشف عنها وأشار إليها أميلينو Amelineau

« . . أما الهوميوس هذا لأسقف المزعوم . فقد ترك الحقد يوعر في صدره
إلى أن وصل إلى مدينة الفيوم ولما أدرك الأب صمويل أنه سيعارق حياة .
قال له - أي للهوميوس . . . تب أيضاً أنها الكليدوني المخادع »

في أن قال في الصفحة الخامسة والأربعين « ويميل إلى الاعتقاد دون أن
يجزم قطبب أن المقوقس الذي عارض في تسليم بابليون - هو شخص آخر غير

نظريرك هيرس اندي أبرم صلح الاسكندرية . بل إنه حاكم قطلى . وأمسك
بنورجون العرب عن التثت من شخصية هذا الحاكم . . . على أن المؤرخ
الكانونيكى « اس نظريون » يشير إلى المقوقس على أنه يعقوبى معصر بروم . ولم
كني نبياً أنه أن يظهر مقدة اليعقوبيين لثلاثا يقتوه . وبهمه اس نظريون إلى حسب
ذلك بأنه قد اقتطع أمون مصر من وقت حصار كسرى لنفسطصبيه . فكان
خاف أن يقع في يد هرقل امك فيقتله . والدى حمدا يصاً عن الاعتقاد بأن
حاكم باسيون يام الحملة كان قصباً . هو القوقى الواصح بين تماقبيى القاهرة
والاسكندرية . فيمى تعنى تماقية الإسكندرية صراحة بمصير ايوبيين . م هم
تماقية باسيون إلا بمصير الأهلى . وأنى من الحكم أن يترك شكاً في هذا
الموضوع : فأضاف بعد أن ذكر لانتماقيه الموقع عسها في دليون ما دنى (هذا
كنه على القبط خاصة) ومن جهة أخرى أرد المقوقس أن يحضر عمر قبل
دحول الانتماقية في دور التميد فقال له : إند سلطانى على نفسى ومن أطاعى .
وقد عم صلح انقسط بما ييسك وبهم . وم بأن من منهم نقص . وأما بروم فإن
برى مهم وليس ديبى ديبهم . ولا مقالى مقالهم : إنما كك أخاف مهم
القتل . فذلك كك أستر ديبى ومقالتي . . وأكم ذلك :

أما لأوراق لأثرية التى سشد إليها هؤلاء النورجون وغيرهم ليس فيها
ترجيب لقول من أقوالهم . وقد يكون فيها ترجيح ما يالمها . وهذه أمثلة منها .
أهمها لأوراق التى عثر عيب سبها الشرقاوى مكتوبة بالقبطية للصعيدية .
وأهداها في شهر يوبى سنة ١٨٩٢ إلى « القمص فيوتافوس » . وفى أوب إحداهما
حكاية عن ريادة المقوقس لبعض لأديرة وحواره مع رهبانه

... فقال رئيس الدير : لا أعرف لأى سبب بارحوا . . حينئذ أمر
نصرى رئيس الدير حتى يحره بكل ما حصل فأحبه الرئيس بقوه لا نصريى
وأنا أحبراء الحقيقة هذا الرجل . صمويى الناسك عمل للرهان موعظة

طويلة لأمك فيها ، ودعاك محمداً ويهودياً حلقياً ، وكافراً غير مسحق أن
تقدس بطريركا ، وغير مستحق لشركتك بأي نوع . وهذا السب أصعب الرهبان
لكلامه وذهبوا . فلما سمع الكافر هذا الكلام عصب عصباً شديداً ، وصار
يعص شفتيه من شدة غصه . ثم اتدأ ينهر رئيس الدير والدير والرهبان
وعقب ذلك رجع من سكة أخرى . ولم يحضر للجل لهذا اليوم وبعد هذه
الحادثة رجع الإخوة بسلام إلى الدير أما من جهة الخقوقس . المطريرك
الكاذب ، فإنه صار حاقداً حين وصوله مدينة القيوم . في الحال حصر حدم
ورجال عازمين البلد - لكي يأتوا به بالقديس أما صمويل معلول البدن ورء
ظهره . وفي عنقه طوق حديد ، ويدفعوه أمامهم مثل لص . فوصلوا إلى الدير
وأحدوه أما هو فكان يمشي متهالاً بالرب قائلاً : لعل الله سبحانه وتعالى يحسن
دمي يعلك اليوم من أجل اسم المسيح ! وهذا السب اتدأ يشتم الخقوقس بحرية
قائلاً : بدون شك أنه سيفعل ما وعده من مد ظليل فما أحصره العسكر أمام
الخقوقس . ورأى الكافر رجل الله . امتلاً غضباً ، وأمر العسكر أن يصرروه حتى
يسيل دمه مثل الماء . ثم بعد ذلك قال له . أنت يا صمويل لأمك الكافر .
قل لي : من رسمك أيها الماسا على هذا الدير ؟ ومن أمرك أن تعزى الرهبان على
لعي ولعي ؟ فأجابه القديس أما صمويل قائلاً : تصح الإطعة لله
ولقديسه لبطريرك أنا بنيامين . أتولى من الإطعة لك ولتعليمك الشيطاني يا بن
إبليس المسيح للرجال حينئذ أمر بصرق القديس أما صمويل على فمه قائلاً
إن المجد الذي يعطيه لك الناس بصفة ناسك ينفخث . لكن أنا الذي سوف
أعلمك وأرشدك نتكلم بالباطل . لأنك لم تكرمي بصفة كوني بطريركا ، ولم
تراعي أيضاً أنا وقدرتي بصفة كوني عملاً على حراح بر مصر فأجابه القديس
أنا صمويل قائلاً : إن الشيطان كان أيضاً بوظيفة عامل وله سلطة على
الملائكة ، لكن تكبره وعدم إيمانه بما هما اللذان جعلاه غريباً عن مجد الله
وملائكته . أنت أيضاً أنت الحفيدوني العاش . إيمانك بحس ، وأنت ملعون

أكثر من الشيطان وحموده فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ رحرأً صد القديس ،
وأشار إلى العسكر أن يجلدوه لحد الموت . . .^(١) .

* * *

ويبدو لنا أن هذا الحوار مفهوم إذا كان المقوقس مصرياً يحتاج إلى التذكير
بصفته الحكومية ، وكان متحياً إلى مذهب غير المذهب الذي ينتمى إليه أكثر
قومه . ولكنه عرب في حطاب يدور بين ماسك مصري ورئيس روماني يلين
بمذهب المجمع الخلقيدوري . ولا ينتظر أن ينتمى إلى غيره بحكم مولده ومنصبه
وابتائه إلى النحلة الملكية . وكذلك انقبالة بين الطرق سيامين والمقوقس مفهومة
إذا كان كلاهما مصرياً ، وكان الاختلاف بينهما في المذهب . أما أن يكون
أحدهما رومانياً منكمي المذهب ، وأن يكون الآخر مصرياً يعقوبى المذهب ، فلا
وجه للموارنة بينهما في كفتين متعادلتين .

* * *

وس المراجع التي جاء فيها ذكر المقوقس كتاب « سير البطارقة » مؤلفه
ساويرس بن المقفع أسقف لأشمويين ، الذي جمع تاريخه من أوراق الأديرة ،
وقال عن البطرق بنيامين :

« خرج من الديارات بوادي هب - الطرون - ومضى إلى انصعيد ، وأقام
مختبئاً هناك في دير صغير في البرية إلى كيان لعشر سنين ، كما قال له ملك العرب ،
وهي السهس التي كان فيها هرقل والمقوقز متسطين على ديار مصر . ثم إن هرقل
أنام أساقفة في بلاد مصر كتبها إلى أنصاء . فلما تمت عشر سنين من ممكة
هرقل والمقوقز ، وهو يطلب بنيامين البطريق وهو هارب منه من مكان إلى آخر ،
عصياً في البيع الحصية . أعتد ملك المسلمين الخليفة مصرية مع أمير من أصحابه
يسمى عمرو بن العاص . في ستة ثلثائة وسع وحمسين لديقلاديوس قاتل

(١) من صفحة ٤٠٣ إلى ٤٠٨ من السنة الثانية للمجلة القبطية

الشهداء ، فصر عسكر الإسلام بقوة عظيمة في اليوم الثاني عشر من يونيو ، وهو الرابع من ديكطس من شهور لروم . وكان الأمير عمرو قد هدم الحصن ، وأحرق المراكب بالنار ، وأدلى الروم ، وملئت بعض البلاد . وكان عبيته من ليرة ، فأخذ الحبل حتى وصلوا إلى قصر مبي بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى بابلون ، فصرىوا جميعهم حياتهم هناك حتى ترموا لمقاتلة الروم ومحاربتهم ، ثم إسم أسموا ذلك الموضع بلعنتهم القسطنط ، وهو اسمه إلى الآن . وبعد قتالهم ثلاث دفعات عيب المسلمون ، فلما رى رؤساء المدينة هذه الأمور ، مضوا إلى عمرو وأخذوا منه أماناً على المدينة لثلاث تهب وأهلكوا جنس الروم وبطريقهم المسمى أريانوس ، ومن سلم منهم هرب إلى الإسكندرية وألقوا أبوابها عليهم ونجسوا فيها . فلما ملك عمرو المدينة ورتب أمورها ، خاف الكافر والى الإسكندرية ، وهو كان وانيها وبطريقها من قبل الروم ، أن يقتله عمرو ، فخص حائناً مسموماً مات لوقته . فأما سابوتوس التكرس - أى الدوق المؤمن - فإنه عرف عمراً بسبب احتفاء الأب بنيامين البطريرك ، وأنه هارب من الروم خوفاً منهم ، فكتب عمرو بن العاص إلى عماء مصر كتاباً يقول فيه هكذا : (إن الموضع الذى يكون فيه بنيامين البطريرك الذى للنصارى لقط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فيحصر آتياً مطمئناً ، ويسر حال بيعه وسياسة طائفته) ، فلما سمع القديس بنيامين هذا ، عاد إلى مدينة الإسكندرية بفرح عظيم ، بعد عيبته ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنين هرب الرومى الكافر ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية ، لإسبا إكبل الصبر وشدة الجهاد .

وهذا التاريخ الذى كتبه المؤرخ القبطى في عصر الفاطميين . يخرج لـ المقوقس في صورة ناقص جميع الصور التى يظهر فيها حائناً متواطئاً مع العرب ، فإنه يحج نفسه خوفاً منهم أن يدمروا عليه الإسكندرية ، وكان الفرع بهم من جانب الحزب المصرى في الكنيسة برئاسة البطريرك بنيامين الذى عاد إلى كرسيه أما بعد موت المقوقس وحروج الروم منها .

ونقلت المجلة القبطية في العدد السادس من السنة الثالثة تعليقات من حواش
مخطوطة على جداول البطارقة ، جاء في إحداها .

« إنه كان في أيام الأب بنيامين أن ملكت العرب أرض مصر ، وكان
دخولهم إليها في ثانی بؤونة سنة ٣٣٣ ، وكان المقوقز جريج بن مينا المراتبي نائب
مرطاقة هرقل بالديار المصرية ، يطلب وبصطهد على الموافقة به على أمدنة لاوون
المأمدة ، وظفر بأخيه مينا ، وأمر به عقوبات عظيمة وغرقه »

وهذه الفقرة لا ترجح شيئاً كما ترجع أسماء المقوقس إلى مصر . لأنه شأ في
يب يسمى أباءه باسم مينا ، ويتسمى هو وأخوه بهذا الاسم الواحد ، مع التفرقة
بينهما في اللقب أو الكنية ، وهذه التسمية تقليد وحى لم يؤثر مثله عن أحد من
الرومان الشرقيين أو الغربيين .

• • •

ومن أرخوا هذه الفترة : أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود من 'سأ
القرن الثاني عشر ، وهو يقول عن إليم البحيرة « إن بحيرة الإسكندرية كانت
مرورة كروماً جميعها لامرأة جريج بن مينا مقوقس الروم ، وكانت تستأدى
خراجها خمرًا ، فكثر عندها ، فطلت دبائر ذهب ، فلم يحصل لها من الخمر
ما طلت ، لأنه كان موجوداً عند الناس وما يجدون من يشتره ، فكرهت هذا ،
ففرقت البحيرة بالماء . ولم تزل كذلك حتى استنبت بها بواعباس ، وهم المسودة ،
وإيهم سدوا جسورها وسعوا العرق »

والمهم في هذه الفقرة هو تسمية المقوقس باسم جريج بن مينا ، وهي
التسمية المصرية التي لم تعهد في أسماء الرومان أو الروم .

وجاء في تاريخ ابن البطريق ، هو من الملكيين المعارضين للكنيسة الوطنية .
إنه في أول خلافة أبي بكر - « صبر سرجيوس بطريركاً على الإسكندرية أربع
سنين ، فلما سمع أن المسلمين عبوا الروم وفتحوا فلسطين ، وإيهم سألروا إلى

مصر ، ركب لبحر وهرب إلى القسطنطينية ، فلى كرسى الإسكندرية بعده بلا بطريك ملكى سبعا وتسعين سنة . ولما هرب صبر بعده كورش - أى هيرس بطريكاً على الإسكندرية ، وكان ماروبياً على دين هرقل ، وكان بالإسكندرية رجل راهب يسمى صفرونيوس ، فذكر صفرونيوس مقالة كورش ، لأنه كان يقول إن لسيدنا المسيح طبيعتين ، بمشيئة واحدة ، وفعل واحد ، وقنوم واحد . وهى مقالة مارون ، فسار صفرونيوس إلى كورش فهاظره . . فقال له كورش بوقاحة : أن أنور يوس بطريك رومية وسرجيوس بطريك القسطنطينية موافقان لى على هذه المقالة . فخرج صفرونيوس إلى القسطنطينية فقبه سرجيوس بطركها ، وقص صفرونيوس عليه ما كان بينه وبين كورش ، فعجب سرجيوس من ذلك فلما كان بعد مدة قدمت هدايا من كورش إلى سرجيوس ، فانصرف عن رأيه ، وصار مخافاً لصفرونيوس موافقاً لكورش . ثم إن صفرونيوس صبروه بطريكاً على بيت المقدس ، فكتب صفرونيوس كتاباً إلى الإيكد وبعث به إلى جميع الآفاق ، فقتله أهل الدنيا في السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب . . .

لى أن قال عن عمرو بن العاص :

« ثم سار إلى مصر وكان الروم قد تحصوا في الحصن . وحشدوا حول الحصن حديقاً ، وطرحوا فيه سكاكاً من الحديد ، فقاموا بقتلهم قتلاً شديداً ستة أشهر . فلما أُنشأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ، فأمدّه بأربعة آلاف رجل ، معهم الربيرين العوم ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخنف ، وكان مع عمرو أربعة آلاف ، مصاري ثمانية آلاف . وكان للعامل على خراج مصر رجلاً يدعى المقوقس من قبل هرقل ، وكان يعقوبياً مبعثاً للروم إلا أنه لم يكن يتبياً له أن يظهر مقاوته لثلاثي يقتله الروم ، وكان أيضاً قد اقتطع أموال مصر في وقت حصار كسرى القسطنطينية ، وكان يحادر من هرقل الملك أن يمع في يده فيقتله ، فاحتال على الروم ، وقال لهم إن العرب قد جاءهم مدد

وليس لنا هم طاقة ، ولا نأمن أن يمتحوا القصر فيقتلونا ، ولكن سد أبواب الحصن ونصير عليه مقاتلة ، ونخرج من القصر إلى الحرية فنقيم فيها ونتحصن بالبحر . فخرج الروم ومعهم المقوقس وجماعة من أكابر القبط من باب القصر القبلى ، ودونهم جماعة يقتنون العرب ، فركبوا المراكب وحقوا بالجزيرة موضع الساعة اليوم ، وقطعوا الحسر ، وكان ذلك في جرى الليل . . . ثم أرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له : إنكم قوم قلدوحتم بلادنا ، وحجتم على قتالنا ، وظل معادكم بأرضنا ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم سارى في أدينا . فابعثوا إلينا رجلاً منكم نسمع كلامكم ، فلعل يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما نحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال . فلما أتت رسل المقوقس عمرو بن العاص ، ووجه معهم بعبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود ، فلم يدخل على المقوقس أدنى مجده فقال المقوقس له : ما الذى تريده مني ؟ نيتي لنا . فقال له عبادة : أن ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث حصال ، فإخيرا منها شئت ، وبذلك أمرنى بها الأمير وأمير المؤمنين . إما أن يدخلوا في الإسلام فكنتم إخوانا ، وكان لكم مالنا ، ورجعنا عن قتالكم ، وم يستحل دماكم ، فإن أبيتم فادوا به الحزبه برضى من ونحن وأنتم في كل عام أبداً ما بهيب وبقينم ، ونقاتل عنكم من ماوأكم وتعرض لكم في شيء من أراضيتكم ودمايتكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم في دمت ، وكان به عهد عيب ، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم غير الهاكمة بالسيف حتى يموت عن آحرأ أو يصيب ما يريد منكم . فقال المقوقس فأما الدحول في ديتكم بهذا ما لا يمكن ، وأما الصلح فقد رصيت أنا ذلك لنفسي ولأصحابي القبط . وامتنع الروم أن يجيبوا إلى الصلح وقالوا لا نفعل ذلك أبداً . وإنما فعل المقوقس هذا مكرأ منه وخديعة حتى أخرج الروم من الحصن ، ثم رضى بالصلح بيسم له ماأحد من الناس فرجع عبادة بن الصامت فأخبر عمرأ بجميع ما كان ، ثم إن المسلمين لما علموا أن ليس في الحصن من المقاتلة إلا مريسير ، ما مضوا القتال من ناحية سوق الحمام

اليوم ، هزموا الحصن بالمحيطات ولعز دت . ثم إن الزبير وضع سبما إلى جانب الحصن من سوق الحمام ، ثم صعد ، فاشعروا إلا والزبير على رأس الحصن . هكبروا ، ونحامل الناس على السلم ، محلا الروم عن لقتان ، وركبوا المراكب ولحقوا بالحريرة إلى أصحابهم . وفتح المسلمون الحصن . فقتلوا وأسروا وعذبوا فيها نظر الروم ما فعل بهم انقوص ، وكيف نه خدعهم وأخرجهم من الحصن وسلمه إلى المسلمين ، خافوا ناحيته فتركوه وركبوا البحر وعسكروا بمكوم شريك . واجتمع انقوص مع عمرو بن العاص على عهد بينهما ، واصطلحا على جميع من محصر أسفلها وأعلاها من القبط ، دينارون دينارون على كل نفس . شربهم ووصيعهم ، ثم بلغ الخيم منهم ، وبس على الشيخ الهاني ولا على الصعير الذي لم يسع الخيم ولا على لساء شيء . وأحصى عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ الخيم ، وأخذت منهم الحرية ، وحرص عبيد الديناران ، رفع ذلك بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصى بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط الذين أحصوا وكتبوا ، فكانت هربصتهم في ذلك الوقت ثني عشر ألف ألف دينار كل سنة .

ثم أفل انقوص إلى عمرو فقال له : أنا لروم فاني منهم بريد ، وليس ديبهم ديبى ، ولا مقاتلى مقالهم ، وإنما كنت أنا أحاف منهم القتل ، فكنت أسير مقاتلى وأكنم ديبى ، وأنا أطب إليك أن تعطينى ثلاث حصال فقال عمرو : وماهى ؟ قال : لا تنقصنى عن القبط ، وأدخلنى معهم . وأزمنى ما أؤرمهم ، فقد اجتمعت كلمى وكلمتهم ، وأنا متم لك على نفسى ، والقبط متممون لك على الصبح الذى صاخنهم عليه وعهدتهم والثانية . إن سألتك الروم بعد اليوم الصلح ، فلا نصاخنهم حتى نعملهم عبيدا ودماء ، فإبهم أمل لديك والثالثة . إن أنا مت فأمر أن أدفن في كنيسة نى حسن فى الإسكندرية فأبهم عبيد عمرو بذلك ، على أن صموا له إصلاح الحسين جميعا ويقيمون الأثرال ، وصاروا لهم أعوان على ما أرادوا من قتال الروم ومضى عمرو ومن معه ، حتى لقي جميع

الروم بكونهم شريث^(١) . هاجتوا به ثلاثة أيام ، وولى لروم مهربين ، ثم التقى
سسطيس فاقتلوا سبعة عشر يوما ، واستأثروا بالروم فدخلوا الإسكندرية . وتحصوا
فيها . واستأثرت العرب عند ذلك ملحت بالقتال على أهل الإسكندرية .
فقاتلوهم قتالا شديدا ، وكان الروم يخرجون من الأبواب في كل يوم يقاتلون .
وكان يقتل من الفريقين في كل يوم خلق كثير . حتى يوم من الأيام اشتد القتال
حتى فتحهم العرب حصص الإسكندرية . فقاتلوهم في الحصص قتالا شديدا ، ثم
حاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم من الحصص ، واستأثروا عمرو بن العاص
ومسلمة بن مخلد ووردان مولى عمرو ورحلا آخر ، ولم يدر الروم من هم ! فقال
لهم البطريق : إنكم صرتم في أيدي أسارى ، فمروا ما لدى تريدون منا ؟ فقال
عمر بن عمرو : إما أن ندحوا في ديسا ، وإما أن نعطيكم خربة ، وإما ألا نزال
مقاتلكم ، إما أن نموت بالقتل وإما أن نصيحكم ! فقال واحد من الروم للبطريق :
أنهم إن هذا أمير القوم فاضرب عنقه . فمعلن لكلامهم وردان ، وكان يحس
اثرومية ، فحدث وردان لعمرو حديثا شديدا ، وكلمه وقال له مالك
وللكلام ؟ ما في المعسكر أدنى منك ولا أقل ، فأنرت غيرك يسلم ! فقال
البطريق في نفسه : لو كان هذا أميرهم لم يتهأ لهذا أن يكلمه . فقال مسلمة بن
مخنف : أن أميرنا كان قد عزم أن يتصرف عسكم ، ويترك حربيكم ، وهذا كتب
إليه أمير المؤمنين ، غير أنه أراد أن يوجه إليكم بعشرة قواد من أصحابه ، من
رحوهم . ثم هم الرأي الشديد ، حتى تتوافقوا أنتم وهم على شيء ، تترصون
ببكم وببهم أيضا ، وتصرف عسكم . فإن أحببتم ذلك فأطلقوا سيما حتى
يذهب إلى أميرنا ويعلمه ما صنعتما من الجميل حتى يوجه إليكم بالعشرة
القواد . فبتقطع الأمر يسا وببكم على ما تحبون ، وتصرف عسكم ! فتوهم
البطريق أن هذا كلام حق ، فحلاهم رجاء أن يأتوا بالعشرة القواد فيقتلهم
ويتمكن من العرب . »

(١) كل هذه المواضع بإقليم البحيرة حول دمهور

ثم قال ابن بطريق إن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة يصف له فتح الإسكندرية . فقال : إني فتحت مدينة لأقدر أصف ما فيها . غير أني أصبت فيها أربعة آلاف نية . بأربعة آلاف حجم . وأربعين ألف يهودي عليهم الحرية . وأربعمائة ملهى للممك . وأثنى عشر ألف بقال يبيعون البعل الأحصر وما يتلوه من النملات ! وبنى فتحها عمدة بغير عقد ولا عهد . وبنى لمسلمين طلبوا قسمتها . . . فكتب إليه عمرو بن الخطاب بفتح رأيه ويأمره ألا يتجاوزها ولا يقسمها . ويتركها ليكون حراجها للمسلمين قوة على عدوهم .

• • •

قال : « فأقرها عمرو وأحصى أهلها . فرض عليهم الخراج . وكانت مصر فتحت صلحا كنها بهربصه دبشرين كل رجل . لا يراد على أحد حزيه رأسه أكثر من ذلك . إلا أنه يلزم مقدار ما يتوسع فيه من الأرض والزرع . إلا الإسكندرية . فاهم كانوا يؤدون الخراج والحرية على قدر ما يرى واليه . لأن الإسكندرية فتحت عمدة بغير عهد . ولم يكن هم صلح ولادة . وفتحت الاسكندرية يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة . وعشرين للملك هرقل .

وهذه الروايات لسعيد بن البطريق أحجى أن تقارب التاريخ الصحيح ، لأن صاحبها كان أقرب المؤرخين إلى مراجع الأخبار جميعا من رومانية وقبطية وعربية . ولكنها لم تحمل من عب التاريخ في هذه الفترة ، وهو تحمل الوقائع والروايات بالمتارح ولأهواء ، بحيث يظهر لون المؤرخ من كلامه . وإن لم ينسب هذا الكلام إلى شخص معلوم . وقد تراءى بن بطريق متسعا بدعوه أو متسعا لهواء . كغيره من المؤرخين ، فكان « روماني المذهب » في اختيار الأخبار التي توافق مترعه . وأنها أن لرومان لم يرسطوا بمعهد ولا عقد عند سقوط الإسكندرية ، وأن سقوط نابيول كان حديعه من الخاكم البعصوي ولم يكن صعبا اضطرت إليه الخامية بعد اليأس من المدد . وكان تعليله لخديعة الخاكم

اليهقوني الوطني أسخف من تعييلات غيره . منهم رعمو أن الحاكم الوطني وهو الحقوقس قد استنقى عبده صرائب لقطر كله أيام متيلاء الفرس على مصر ، فلم يرسلها إلى القسطنطينية ، ولم يكن في بيته أن يرسلها . وقد يكون هذا لسبب معقولا لبعض الشيء ، لأن إرسال الصرائب إلى القسطنطينية مع سيطرة الفرس على البلاد لم يكن باليسور وإن أراد الحقوقس وموضع السخف من القصة أن تتصور الحقوقس عاجزا في هذه الحاة عن الاعتذار باعتصاب الفرس لكل ما أصابوه من العللات وخيرات ومال الخراج إفاذا أعصيا سطره عن هذا السخف ، في عدا ذلك سهل مستساع ! وما الذي لا مستساع فهو امتناع الحقوقس عن إرسال الصرائب لأن الفرس محاصرون القسطنطينة ! يد الواقع أن لطريق بين مصر والقسطنطينية لم تكن مقفلة من جانب البحر ، ولم يكن الرومان يقطعون عن طلب لأرواد والأمداد من إفريقية ، وقد استطاع هرقل مع حصار القسطنطينية من الناحية لآسيوية أن يتركها وينتفض على بلاد فارس وراء البحر الأسود ، فلم يكن من العسير أن تصل صرائب مصر إلى القسطنطينية في فترة الحصار ، إلا أن يكون الحقوقس قد أعلن قطع الصلة بالإمبراطور ووضع يده على أموال البلد جهرة مع وجود إقامته لرومايه بها وعلى هذا لانسق برومان ثقة به وهو معهم في داخل حصص بسيون ، ولا ينتظرون منه أن يخذلهم ويتفق مع عمرو بن العاص من ورائهم حتى يتحووه ولا يأسوه .

كذلك يروي ابن الطريق تلك القصة التي رويت عن عمرو وعلامه وردان في أثناء حصار الإسكندرية ، كما روي في حرب فلسطين ، وهي كما يرى أدنى إلى الخرافة منها إلى التاريخ

ولا تنحصر اختلافات حول الحقوقس فيما تقدم ، بل يقول آخرون كما قال مبلير : إنها مشتقة من « كوكبوت » اسم عممة يونانية ، لأن الحقوقس كان يلى أمر الخراج ، ولا يستعد : بئر » أن يكون اللفظ مصحفاً على لسان المصريين من الحقوقس ، لأن هرقل نقل هيرس من القوقاس إلى الديار المصرية

ولكن المقوقس عرف بهذا اسم في حجار قبل فتح مصر بأكثر من عشر سنين ، وكتب إليه النبي عليه السلام رسالة بهذا اللقب حذره الخواب عنها مع هدايا المقوقس التي لاجدال فيها فما تأويل ذلك عند نثر وتناثره في التحقيق والتصديق والتكذيب ؟ تأويل ذلك يسير على طرف اللسان ، وهو خطأ لمؤرخين العرب في رواية اخبر به الفتح الإسلامي سنين !

إلا أن خبر الرسالة البهوية وحراسها من وراء كل شك وكل تردد وتأويل ، فلاشك في كتابة النبي عليه السلام إلى عظيم القبط في مصر ، ولا في جواب عظيم القبط عن كتابه ، وقد وصلت السدة مصرية وأحتما مع الخواب ، وعُرف الرسول الذي جاء مع الهدية ، والبيت الذي برلت فيه بالحجار ، ثم ولد للنبي عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وتواترت التواريخ بمولده ووفاته حوالي لثانية من عمره ، وتواترت كذلك بكسوف الشمس يوم وفاته ، وقول النبي عليه السلام إن الشمس لم تكسف لموته وجاور الأمر أخضر التاريخ إلى تحقيقات الحساب المذكي ، فأنثت العام الكبير محمود لملكى باشا أن هذا الكسوف حدث في المدينة المورة « الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل من اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ٦٣٢ ميلادية » وينطبق هذا التاريخ تقدير مؤرخي المسلمين عن وقت ولادة إبراهيم ووقت قدوم أمه السيدة مارية إلى الحجار .

فليس المهم إذن تصريف اسم المقوقس بابو نانية أو خشية أو القبطية ، وإعنا المهم أن هناك عظيما في مصر كان يملك من أمر شعبها ما م يمكنه عاهل القسطنطينية ، ولذلك كتب النبي إليه ، ولم يكتب بالكتابة إلى العاهل في عاصمة الدولة الكبرى . وقد وصل الكتاب إلى صاحبه المقصود بديل واضح بسيط ، وهو وصول الخواب عنه ، فإذا كانت مرة هذا الرجل حقيقة مفرره لاجلاف عبيها . وكان سم المقوقس دليلا على هذه المرة لا ينأى اخبراه لم يحمله - فلماذا بلعيه وبطله ، أو شك فيه وبهيه ؟ !

إن حروح المؤرخ بتلر أو غيره من ورطة وقعوا فيها ، لاتكنى لتعبير محرى
الحوادث والروايات ، وعلى تلر وغيره أن يخرجوا من الورطة التي دخلوا فيها كما
يشاءون ، ولكن على غير حساب التاريخ ومنها يكن من أخطاء المؤرخين
الأوائل ، فهي لاتكنى بالإسعاف من كل ورطة والإحالة عيها في كل تأويل .

* * *

ليست هذه التحريجات أو هذه التأويلات إذن هي المرجع في تمحيص القول
عن مسألة المقوقس ومالابسا من الأحبار والروايات ، وإنما المرجع إلى
« الموقف » وما يمليه بحكم الداهية وحكم الحوادث التي عرفت بمقدماتها
ونائجها . وأيا كان الرأي في هذا المقياس ، فهو أصدق بياناً من جميع المقاييس
إلى رأيها ، تصطرب ذلك لاصطرب بين أيدي المؤرخين

* * *

وهذا هو حكم الموقف على أسلم الوجوه من نقد ولرب ، أو من لاختلاق
وتوجيه المنازع والأهواء .

حكم الموقف أننا أمام « دور » واضح محدود لا يقل اللبس على وجه من
الوجوه ، دور زعيم « أهلى » مشلول له صفة شعبية ، لاتستطع دولة الرومان أن
تنتزعها منه ، سواء رصيت عنه أو غشبت عليه

وليس هو « دور » رئيس روماني بحال من الأحوال ، لأن الرئيس الروماني إن
بقى في مصر لم تكن له صفة وم يكن له سلطان ، وإن حرح من مصر لم تكن
للتعاقد معه قيمة ، ولم يكن أهلاً للالتزام .

وإذا كان الموقف يستلزم « دوراً » محدوداً واضحاً فلا محل فيه للاختلاق
وللتنارع بين المؤرخين .

ههناك « أشخاص » يحور الشك في وجودهم ، بل يستدعى العمل المسلوب

إليهم أن يشك في حقيقتهم ، أما إذا كانت المسألة مسألة « دوار » فالجثة لامتانة
أشخاص ، فلا محل للشك ولا للتنازع ، بل الأمر يعكس من هذا النقيض إلى
النقيض الذي يقابله ، ويصبح من اللازم تاريخيا وعقلا أن يوجد الشخص الذي
يمكن أن يؤديه ، لا أن نراه موجودا ثم نشك فيه !

إن الدور الذي سبب إلى انقوص لا يؤديه إلا زعيم به صفة لمقوص ، كائنا
ما كان اسمه ولقبه ، وكائن ما كان عبرته في الدولة وفي البلاد .

يهود يهودية ، زعيم أهلي ، عرف الناس حول بلاده أنه يملك منها ما ليس
يملكه هرقل في عاصمته ، ويتعاهد العرب معه فيعلمون أنهم يعاهدون البلاد ،
وأن البلاد مقرة لما تعاهدوا عليه .

ومن بقي من الرومان أو من الروم بعد وصول عمرو بن العاص إلى
المسطاط ، بقي يقاتل أو منتظرا للمدد من خارج مصر لمواصلة القتال ،
ومثل هذا لا يتعاهد معه عمرو بن العاص ، ولا معنى لتعاهد معه قبل انقضاء
لمعركة بين الدولة الزاهية والدولة الناقية !

فلا يكون المتعاهد أو المصالح في الحرب إلا زعيما يتكفل شيء يقدر عليه ،
ويعلم معاهدوه أنه قادر عليه باسم قومه ، وأنه إذا نقصه كانت الحسارة عليه
وعليهم ، لا على الرومان في مصر والإسكسرية ، أو الرومان في المسططبية
وببلاد الروم !

فالزعيم المصري هنا شخص يعرضه التاريخ مرصا ، ويتطلب منه تبعه لا يقوم
بها سواه .

وهذه التبعة تدل كذلك على حالة محدودة واضحة ، لا تلبس بغيرها من
الحالات .

إن الصلح في مصر كان نسخة مكررة من الصلح في فلسطين

ففي العهدين معا أمان للبيع والشكاش ، واتفاق على خروج من يريد الخروج مع الروم من أهل البلاد .

وفي عهد قسطنطين أمان من إكراه أهل بيت المقدس على مساكنة اليهود بقاياه في عهد مصر أمان من إكراه أهلها على مساكنة النوب . لأهم كانوا معهم قبل ذلك في قتال على الشؤون الدنيوية والدينية فلا موضع لها لحيانة أنتدعها الزعيم الوطني في الديار المصرية . لأنه لم يقل شيئا أقل مما قبله أهل فلسطين

وقد تذكر كلمة الحيانة إذا كانت الدولة الرومانية قادرة على حماية مصر عاجزة عن حماية فلسطين ، وبكسر حرص بعيد لا يحظر على بال أحد ينظر إلى الموقف اليوم ، أو كان ينظر إليه كما رآه المعاصرون في تلك الأيام

فالدفاع عن فلسطين ، هو من الدفاع عن مصر بكثير . لأن طريق البر مفتوح بين بلاد الدولة الرومانية في آسيا الصغرى . وبين ميادين فلسطين من شمالها إلى جنوبها . فإذا كانت الدولة الرومانية لا تستطيع أن تسحب البعث إلى حيرتها القريبة . فهي أعجز عن ذلك في الميادين المصرية . وإذا كانت السفن لا تسعفها على شواطئ فلسطين فهي لا تسعفها في الإسكندرية ودمياط

ولا بد من النظر إلى عسائر أخرى هذا الموقف ، وهو حانة فلسطين من الوجهة الدينية . فإن هرقل كان حينما أن يهتم باستئصالها . لا فيها من الأماكن المقدسة التي تقوم عليها صوته في عاصمة الدولة الشرقية على الخصوص . وإن رعاياه هناك لم يكن عندهم من أسباب القيمة عليه شيء شبيه عن تأييده واستقاء ملكه . لأنه لم يكرههم على خلاف عقيدتهم كما فعل في مصر . ولم تزل ذكرى دحروله بيت المقدس . وحفاره أهلها به ووعدهم بالكمارة عن يمينه مدى لسنين عالقة بأذهان القادة والأتباع في تلك البلاد .

وربما وجد من المؤرخين من يصف المقدس بالحيانة ، إذا كانت دولة

لرومان قادرة على شيء في الدفاع عن مصر ، فحان يسها وبن المثاره على الدفاع
فهد يقال حبشه به موصف « روماني » جدل رؤساءه وسادته وسلم البلاد لقوم
آخريين |

ولكن الواقع أن الدولة الرومانية لم تكن لها دمة نجان في البلاد المصرية ، من
الوجهة الدينية ، أو من الوجهة العمية الواقعية .

من الوجهة الشرعية ، هي دولة أحتية خاصة ، تعتدى على الأرواح
والأمور . ويستترف ثروة البلاد في الضرائب والإتاوات . وتحرمها العلات
والثروات التي هي أحوج إليها في أيام الشح والعلاء ، ونقحهم في منارعامها قبل
انقسامها إلى دولة شرقية ودولة غربية . وبعد انقسامها إلى دولتين يعبر ستقرر
ويعبر انقطاع . وقد ساعدها انصريون على طرد الفرس ، وساعدو هرقل في ثورته
على حصمه فوقاس حتى قهره واستولى على العرش بعده . من قوة مصر وإفريقية
انشائية تجمعت قوة هرقل التي انصرها على حصمه ، ولكنه لم يثبت أن اطمأن
إلى مكانه حتى حرى انصريين عن معونتهم شر الحرة ، هم يكن من حقه عليهم
أن يحاربوا له حربه ويمسكوا له سلطانه وهو بشارف الزوال

ومن الوجهة الدينية ، لم تكن على مذهب أهل البلاد . وم تكن سمحة
مهم بما يتدبره لعقيدتهم ، وكان النزاع الديني بين مصر والدولة الحاكمة على
أشده وأعنفه عند قدوم عمرو بن العاص .

وقد قال ميخائيل السورى في تاريخه . إن « مستقم الحمار » نى باباء يساعبل
من الصحراء ليخرجوا الأمم من رقة الروم والرومان .

ومن وجهة الواقع لم تكن دولة الروم قادرة على مهمة لحكومة الأولى ، وهي
صد الغارات عنها ، وحفظ الأمن بها . وكان من عملها مايجل بالأمن ويعل
الأيدي عن الدفاع . لأنها نرعت سلاح المصريين ، وقسمت القيادة العسكرية
أقساماً بين الرؤساء الرومانيين ، وتركزت اللجنة الوحشية أن يدفعوا عارت النصوص

سلاحهم . فتعرضت لسطو من ناحية الصحراء ومن ناحية جنوب ، وما بقي
لمصريين من حديد مسيح ، فإما كان من فيل الشرطة الذين تأمهم الدولة
الحاكمة . لأهم لا يستطيعون إحلاؤها ، ولأنهم عصابات اللصوص . لأنها
تسلح تمثل سلاحهم ويريد عددهم على عددهم في بعض الأقطار وقد كان
قائد ليبيا الروماني على مقربة من المعارك لمصلحة بين العرب والدولة الرومانية . فلم
يتقدم للاشتراك فيها . لأنها لم تترك في نفس أحد من حدها عيرة عليها . ولأنه
لا يبقى مكانه إلا على خطر من العصابات .

• • •

وإذا كان تفصيل الموقف من جهة السيادة الرومانية على البلاد فإنها لم تكن
سيادة ملزمة لأهلها بدمه من الدم . ولم يسبها أبناء مصر شيئا كانت قادرة عليه
بقوتها العاصبة ، ومن رآها تعجز عن المقاومة في فلسطين لم يحط له أنها تقوى
عليها في بلادها . وليست أمامه حالة «مكنة» سلم وأكرم من تصرف الموقف كما
يقتضيه ، فهو موقف ضرورة لا موضع فيه نهجاً ولا للاحتياط

وهو بعد - موقف رعيم «أهل» يهض بشعة لا حيلة له فيها . فإما أن يدع
العائدين وشأنهم في بلاد لا يتكلم بها أحد ولا يمتق باسمها أحد ، وإما أن يتكلم
شروط الصلح التي لا يملث خير بها . وهذا هو قصاء الموقف بحرفه ومعناه

والموقف الذي يصوره لنا الموقف ، حقيقة لا يسمع فيها حذل المؤرخين .
ولا يراون قوت التاريخ فيها أصدق وأوضح من جراحة كتابه ومدويه . أو
ساحبه .

وهذا الموقف الذي يبسطه لنا التاريخ يتمتع الموقف كما كان يراه المقوقس في
علاقته بعروش الرومان وغيره من العروش الكبيرة من حوله

فإد كر راحاً إلى أول أيامه ، لم يكديرى على العروش شرقاً وغرباً إلا جرائم
العيلة ولتظهر ثار هوقاس قتل الإمبراطور مورييس ، وثار هرقس قتل

الإمبراطور فوقاس ، والثالث عقل هرقل فلا يكاد يهوى من إحدى لوثاته حتى ترين عليه لوثة أخرى !

وينظر إلى المشرق ويرى الشاهنشاه ملك الملوك قتيلا ، ويرى ابنه كسرى الثاني ناحيا بنفسه إلى حمى بيربطة . يتناه الإمبراطور موريس ويروحه من إحدى الأميرات طمعا في عرش فارس من طريق الوراثة ، وقيل إن هذه الأميرة كانت ست الإمبراطور ، وإن كان قولنا مشكوكا فيه .

وكان كسرى الثاني قد عاد إلى عرشه بمؤازرة لإمبراطور الرومان ، فلما قتل هذا مهص كسرى الثاني للأحد بثأره طاهرا ، ولأحد بلاده باسم الأميرة البيزنطية وحق الفتح والعلب في باطن الأمر . واجتاح جيوش الدولة المتداعية أمامه ، ووصل بجيوش فارس إلى إفريقية الشمالية ، ولم يرجع عن غاراته إلا بعد اضطرابه إلى إيقاظ بلاده من حملة هرقل التي أوعلت في العراق وماوراءه ، وهدت عوة إلى قلب الديار الفارسية .

وبينا الإمبراطور هرقل يتقدم إلى بيت المقدس رد انصليب إليه . إذا برسالة النبي العربي تذكره في الطريق . وإذا به قد علم من أحباره من عرب الشام والجزيرة وعرب قريش المتجربين بفلسطين أمورا ذات شأن يحسب لها كل حساب . وتصل الرسالة إلى المقوقس من النبي العربي الذي خاطب هرقل . فلم يجسر هذا على رده والترفع عليه . فاعلم أنه أخرى بالحيلة والتقية ، وأن الصابغة والانتظار أجدي من الغلظة والاستكثار

ومن الحائز جدا أن يكون المقوقس قد علم بحجوب المجاشعي عن رسالة النبي العربي ، وأنه قد أبده ولم يعمل برحاء المشركين من قريش ، ثم تمضي فترة قصيرة ، حينئذ مع المشرق كله إلى أقصى بلاد الصين بمروت أتباع النبي في العراق وانشام وفلسطين . وهم قد هموا دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ، ودخل في منهم وكلاء فارس في اليمن . لديهم أمرهم الشاهنشاه باعتقال بني العرب لاحتوائه على دعوته إلى الإسلام .

كيف يقع كل هذا من نفس المقوقس في وسطه المهديد بضرب بين العار والظلم والمنازعات ؟

إن المؤرخ الحديث قلما يرد على حاضره أن يصع نفسه في مواضع الرحل ، ويصكر مثله تفكير لسياسي ، وتفكير الرعيم ، وتفكير المتدين المؤمن بالسيوات ؟ ماد لو كان صاحب الدعوة هو النبي لموعود من ذرية إبراهيم ؟ ومادا لو كانت رسالته مقدمة لأشراط آخر الزمان ؟ ومادا لو لم يكن هذا وذلك وكان أنه قوة لم يعليها غالب من الفاصرة ولا من الأكاسرة ؟

وإن المقوقس ليظهر عيب وشيالا بين هذه الرعاع والأعاصير ، ثم يطرئ داخل البلد فلا يرى أحدا يريد أن يمدى دونه الرومان بحياته وإن استطاع ، وبه مع ذلك لغير مستطيع !

والمؤرخ الحديث يركه عروه فيض أن يحسن بالوقائع والأسماء يسر شيء بينهم به أساء ذلك الرمان ، ويكد بحره بحراة الأمر كنه لأنه يتوهم أن هذه الحوادث العلية كات مجهولة في بلاد العرب ، ولم يكن عند أهلها علم بها وى يترتب عليها في مصر ولقسطنطينية وسائر لأقطار

على أن الراجع أن هذه الحوادث العلية كات من حمار بلاد لعرب اليومية ، وكان لعرب يتلقونها أحربا وشيعا ، ويعقدون مرمسات على حاصرها ومصيرها ، وقد برهن المسلمون والمشركون على عافاة انعروه الفارسية اليرطيه ، ودخل في الرهان أبو بكر لصديق رضوان بالله عليه وحاء في القرآن الكريم من أول سورة الروم (ثم ، عدت نروم في أدنى لأرض وهم من بعد عليهم سفلون في بضع سنين)

وقد تربت هذه لآنة ماسريخ لميلادى في سه خمس عشرة بعد اسمائة ولم تخص سبع سنون حتى كات سوءه فد عك وادب عا يليها ، وهو وعد المؤمنين بالنصر وانهار الأمر لإلهى نادى دعاهم أب يسير في لأرض ويصطروا

عاقبة المشركين . (قل سيروا في الأرض فانظرو كيف كانت عاقبة الذين من قبل
كان أكثرهم مشركين)

هلاذ ان العرب لم تكن حلو من براقب المحدثات العالمية ، ويوارى بين القوى .
ويضع الخطوة في موضعها وفي أوقاتها . وأول ما كان من ذلك أن يخاطب النبي
عليه السلام هرقل بعد انتصاره لمطور على الفرس . فلا يخاطبه في شأن مصر
ويؤثر عليه المقوقس بالخطاب ، ولا يخفى دلالة ذلك على المقوقس أو على الرحمن
الذي هو في موضع المقوقس . لأنها تنبئ بالكثير من حقيقة صاحب الدعوة وأنه
يعرف من يقينه وما يقينه

فالموقف من أطرافه يوجد لنا المقوقس حيث يوجد . وبالنسبة التي من أجلها
قد اتجه إليه الخطاب

إنه رجل يرتبط مصيره بمصير الأمة القبطية ، ولا يطالب بعهد يلزم
الرومان ، ولا كان هذا العهد مطلوباً أو مستحقاً لعناء الطيب ، فالرومان
صحاب دوة تبقى ونزول ، فإن بقيت فلا معنى لمعاهدتها على فتح البلاد ، وإن
رأى فقد أعنى روالها عن كل عهد ، ولن يربطها العهد بشيء وراء أسد الذي
خرجت منه . ولم تكن تتحرج منه إلا مكرهة على غير وفاق

وهكذا كانت نهاية القتال بين العرب ودولة الرومان الشرقية في فلسطين ، وقد
عادت إلى القتال ما استطاع أيام الخلفاء الراشدين وأيام الأمويين ، وأيام
العاسيين . ولها طمحين

وقد كانت مهمة المقوقس مهمة مائة يؤديها على أحسنها لمصلحة بلده ، ولو
أراد أن يحول لما استطاع أن يحول ، لأنه لم يزل عن شيء كان في وسعه أن يتشكك
به . ولم يترك شيئاً كان في وسعه أن يقيه لنفسه أو لقومه ، أو للرومان إن كان من
هم أن يخدمهم بحال .

إن الذين كتبوا عن المقوقس وثبتوا حوده مجمعون على علاقته بتحصيل الحراج .

وأنه كان يظهر مذهب الروم المنكيين ويظهر مذهب القط اليعقوبيين . وعلاقته هذه بالخراج توضحه دون غيره للاتفاق مع الفتح على صرية الروم . فيجوز أن يكون علاقته بالخراج توكيلا عاما ، أو تكون وكالة خاصة مقصورة على أرضه وثروته . فقد كان الخراج كى سرى فى باب الإدارة مقسوما إلى ثلاثة أقسام قسم حصه الخاس البدية ، وقسم يخصصه المتزعمون ، وقسم يؤديه أصحاب الصياح الواسعة مباشرة بغير وسطاء . ولاشك أن المقوقس كان من هؤلاء ، وم يكن من الذين يؤدون صرائهم بمجالس لبدية . وربما كان هذا الذى عماء بعضهم بخوفه من تأخير الأموال المملوكة منه إن كان لهذه المسألة أثر من الصحة . وأيا كان عمله فى تحصيل الخراج فهو صاحب خبرة توضحه للتعاقد على أعمال الصرائ والتحصيل

أما مذهبه الدينى . فربما كان بدياسة دخل فيما يملته منه وما يحبه . وفى زماننا هذا لأخبر ترى بعض الأسر الكبيرة عشت على مكائنها . فتعلن غير ما تطل من أمر المذهب والعقيدة . هى مصر طلب الفرنسيون من محمد على الكبير أن يقع لطائفة انقضية بالانها إلى الكنيسة الغربية . فدفعه المعلم غالى « مباشر الدواوين » بحجة موقوفة نصرته عن هذه الخطة ، ريثما يهدأ وسائط الفرنسيين ، وقال له إنه هو وأسرته سيديون بالكشكة . فبشعهم أبناء الطائفة بغير حاجة إلى الإكراه أو الإقناع ! وفى لسان حدث مثل ذلك بين الأمراء الشهابيين من المسلمين والمسيحيين . وبقيت الأسرة كلها على دينها إلى اليوم ! وغير بعيد أن يكون المقوقس قد استنى مكانه بمحاربة الدولة على مذهبها ، فقضت الدولة منه بذلك . وجمدت هذا الحل السياسى . لأنه يعصها من مشكلة الاحتيال على اختيار رجل غيره فى مكانه . وليس الاختيار هنا بالميسور ، إذا كان مركز الرجل من مراكز الوحدة الموروثة والحسب العريق ، وكان حظه لا يقدر على قيادة الشعب المصرى طواعية . كما ينقاد لرعي من دوى بيوتاته المعروفة

وحكم « الدور التاريخى » بعد كل حرص وتأويل هو إيجاد رجل بالصحة التى

وصف بها مقوقس . وانقب الذي أطلق عليه رجل ذو وجهة لا تتوقف على بناء دولة الرومان في البلد ، ورجل يجانب في أمر مصر عمره عن عاهل القسطنطينية ، ويعرف من أعمال الخرج ما تتولاه الدواوين المصرية قبل أن يولاهم الفاتحون ، ورجل ترصيه الدولة بالألقاب التي لم تتعود أن تخلعها على أناسها ، وم يعهد في التاريخ أن دولة أجنبية منحها أحدا غير الرعاء الوطنيين تعويضا لهم عن سيادة لحكم والسلطان .

ومد المقوقس قد وجد بصماته اللامعة عقلاً وعملاً . فلماذا نحال على الشك فيه ؟

إن صفاته هذه تعينا على تصحيح كل صفة وكل شخصية في زمانه . فمن لم يكن صالحا لهذا « الدور » ، فلا يمكن أن يكون هو المقوقس المشهور . ويمكن بعد ذلك من كان !

قال ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها :

« كان بالإسكندرية اسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر . كتب إلى القبط يبعثهم أنه لا تكون للروم دولة ، وأن منكم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرم كانوا يومئذ لعمرو أعوانا » يريد ابن عبد الحكم البطرق بنيامين ، ويسميه « أبو ميامين » . وقد أدر البطرق إلى الإسكندرية حين استقر الأمر فيها للعرب ، ولم يعد إليها وبقيت لسلطان الروم وهذه حطة من البطرق المختار توافق حصة المقوقس الذي كانت له مكانة الوجاهة الدنيوية . ولم تكن له في الدين مكانة البطرق بنيامين

الجمالة الالئفة

من المأثورات المنورة أن المسففة ششرت فى مصر خلال القرن الأول للملاد ، وأن لرسون مرقس الإنجلى تولى نشرها فى الصعباء ، ثم فى مصر العففة والإسكندرفة . وتتفى أقوال الأكثرفن من الشراح الشرففن على أن بابل المشار إليها فى أعمال بطرس الأولى من العهد الجديد هى بابلون المرفة بموضعها لأن إلى حوار المسطاط ومصر العففة ، وفى حتام هذه الأعمال يشفر بطرس لرسون فى نسفده مرقس قائلاً « تسلم عففكم التى فى بابل المختاراء ومعمكم مرقس أبى . . . »

وفىوحد من سرفة مرقس المتأولة فى بناء الكتففة المصرية أن المسففة سفته إلى مصر ، وأنه حبس إلى جانب إسكاف بالإسكندرفة بفصح بعله ، فشفل الإسكاف بالحدث معه وأخطأ ، فأدخل المخررف فى فده فصاح ، أهما الإله الواحد ! ففهم الرسول أنه فففن بالإلاهفة . وشرح له عففده المثل فى الالف

والقول الأشهر أنه من ففوف الففروان أصلاً ، ثم ففم مع أهله إلى بفف المقدس أيام ظهور المسفف عففه السلام ، ففكافو ففففا من أسرف الففوف إلى فلفة الدعوة المسففة . وكان ففاله فرففا وأبوه ارستوبولس من المسففففن الأوائل ، وفى مفرهم حصر السبب المسفف ولفة الفصح . وفى هذا المنزل كان التلامفد فترددون ففل انتشارهم فى الأقطار

وقد اختار مرقس وطنه افرففة الشمالية لنشر ففه ، فعد أن صاحب بولس الرسول ، ثم صاحب بطرس فعد مقل بولس .

وقفم من ففرفق الصفراء العربفة فى لصعباء ومه إلى مصر العففة ، ففث كسب فففله بالذفة الففوابفة فشفة ، لأنها كانت أقرب للعات إلى فهم الخاصة

والعامة من اليهود واليونان وأنباء البلاد المصرية . هم أنشأ بالإسكندرية مدرسة لاهوتية . وجعل يتردد فيها ويمن وطنه الأول بالقديرون ، ويسبب عنه أستاذها يستأس في أثناء عيابه ، إلى أن تولى سنة ثمان ومئتين للميلاد . ودهن بالإسكندرية ، وظل مدة مدهونا بها ، إلى أن سرقه أناس من البحارة البندقيين في القرن التاسع للميلاد .

وليس في كتابات الفيلسوف المسيحي أوريجين . ولا في كتابات كلمنت الإسكندري . إشارة إلى مرقس الرسوب . وقد عاش أوريجين بين أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . ولكن يوسسيوس الذي عاش في القرن الرابع ، يروي خبر إنشاء الكنيسة . ويؤكد من خطاب كلوديوس إلى الإسكندريين أن طائفة من اليهود الذين دانوا بالمسيحية ، وشجر الخلاف بينهم وبين أبناء ملهم ، كانوا يقيمون بالإسكندرية في القرن الأول للميلاد ، ويترددون بها وبين رومة وفلسطين

ومها يكن من لراى في السجلات لتاريخية ، فليس من الحائز عقلا أن يكون لدعاة المسيحيون قد عملوا عن الإسكندرية منذ القرن الأول . وهي أكبر معاهد الثقافة وأبحاث السنة يومئذ في عالم الحضارة وقد ثبت أن أقدم الاساعفة الذين لقبوا بلقب البابا كانوا في كنيسة الإسكندرية ، واعترف لهم بهذا اللقب أعضاء مجمع نيقية الذي انعقد في منتصف القرن الرابع للميلاد

وقد كانت السمة العالية على المعكرين الدينيين ، منذ القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد . شيوخ الصرفة بين العقل والهيولى . أو بين الروح والجسد . في جميع المذهب التي ظهرت بين أرجاء الدولة الرومانية . ومحور هذه المذاهب عامة لا يخرج من نطاق مدينة الإسكندرية .

فقبل الميلاد كانت تقيم في أطراف الصحراء ، على مقربة من الإسكندرية ، صائفة من المنتسكين المتطمين ، يتعدون التأمل وترك الملذات الجسدية ،

ويعرفون بين الناس باسم المتطيين Therapeutae . ومنهم على الأرجح طائفة الآسين أو الأسيين ، وهي كلمة بالآرامية تعيد معنى الأساة أى المتطيين . وأتباعها هم أعداء الدولة الرومانية بين اليهود !

وبعد المسيحية ظهرت طائفة المعرفيين Gnostics . وظهر أتباع أفلوطين الفيلسوف . وصهرت طائفة المشبهين Docetists التى تنكر كل الإنكار أن يكون المسيد المسيح قد تجسد فى حسد من المادة . وإعما هو كيان شبيه بالمادة فى انظره ، وليس منها فى الحقيقة

والمهم أن المسيحية حين شاعت ونشرت فى الشرق وفى مصر خاصة ، كانت بمثابة احتجاج روحانى على السيطرة الرومانية وإنما يستطيع أن يقسم العالم الرومانى يومئذ إلى قسمين قسم توافقه عبادة الإمبراطور ، وهم لسادة الحاكمون ، وكانت نفوسهم تقل القول بالخط بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الإلهية على صورة من الصور ، وقسم لا توافقه عبادة الإمبراطور ، وهم الرعايا الساحطون على السيطرة الأجنبية ، وكانت نفوسهم تمر عاية النور من الخط بين طبيعتين الإنسانية والإلهية ، ويرفضون كل فكره تومئ إلى حوار عبادة الإمبراطورين ، أو جواز الصفة الإلهية على الآدميين .

وما استمات أتناع الأديان الوحشية فى تمثيل العنصر الإلهى ، كما استماتوا فى تمثيل هذا العنصر بعد طغيان العواهل الرومانيين وطموحهم إلى التشبيه بالأرباب ! فاليهود كانوا ينزلون إلى عبادة لأرباب الكنعانية والبابلية والمصرية ، قبل حصوعهم لدولة الرومان . هم سامهم عواهل الرومان أن يصعوا تخاتيلهم فى الحكى ، أو يعلقوا عليه شارد الإمبراطور الإله ، تمردوا عاية التمرد ، وقاموا الحاجز الحاسم بين سلطان الأرض وسلطان السماء .

والأمة المصرية كانت أشد الأمم سحطا على الدولة الرومانية ، وأشدّها تقبلا للديانة المسيحية ، ثم أشدها إنكارا بعد ذلك للقول بالطبعيتين ، وهو القول الذى

لم نرفضه الكنيسة في عاصمه الدولة الشرفيه ، ولا في عاصمة الدولة العربية ، ولم نرفضه كذلك كنيسة أنطاكية كل الرفض . لأنها كانت على البرج بين القساوسة الأوربيين والقساوسة الشرقيين . وقد رجح بعض المؤرخين إلى تعليل هذا الفارق ، فعلاوه بالفارق بين النفس الشرقية والنفس العربية ، وهو هنا فارق معترف جد بعيد ، وإنما حقيقته أنه أحد الحاسم بين النور من عادة الإمبراطور ، وبين الترخص بها أو الإقصاء عنها . ولذا كان في آسيا الصغرى أناس يقولون بالطبعيين ، وهم شرقيون ، وكان في مصر أناس من الأصل اليوناني يقولون بالطبعيين ، ومعهم فريق من المصريين الذين لا يتعصبون على الرومان ، بل لهذا كانت قبائل القوط والتيون ندين بمدح أريوس وتفل عليه من ناحية للفرقة بين ربوبية لأب التي لا مثيل لها ، وربوبية الآس التي حلقها الأب وم تكن قائمة منذ الأزل . وهذه الفرقة كانت تروق عشائر القوطيين والتيون . وتدخلهم في رمة التأثيرين على تفديس الإمبراطور من هذا الجانب البعيد .

بعد البحث في الصوارق بين المذاهب ، يسمى أن تذكر هذا الفارق في مقدمة الصوارق النصية والعقلية التي قسمت الدولة الرومانية من حيث التثريه والتوحيد إلى قسمين : قسم لسادة الدين لا يسخطون في قرارة ضمائرهم على الخط بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الإلهية ، وقسم الرعايا المصطفيين الذين امتلأت ضمائرهم سخط على هذه العقيدة ، فلم تعب فط عن أظواهرهم ولا عن عموطنهم كلما واجهتهم المذاهب والذدع بشيء جديد .

ومصدر القوة الكبرى التي اشتهرت بها المسيحية المصرية وجعلتها ندا مصاولا للدولة الرومانية ، هو أنها كانت قوة تمزج فيها العقيدة الدينية والخماسة الوطنية . ثم دانت لدولة الرومانية بالمسيحية ، فلم يجتنع هذا النزاع بين القسطنطينية ورومة من جهة ، وبين الإسكندرية من الجهة الأخرى ، لأن الجانب القومي منه لم يزل على حماسته الأولى ، بل أصبح بعد ذلك أشد وأقوى ، إذ كان طغيان

الدولة الرومانية - بعد تحويلها إلى دين رعاياها - قد تناون السيطرة على الروحانيات ، بعد أن كان مقصورا على سياسة وشئون المعيشة الدنيوية .

وعلى صرء هذا الفارق أيضا يسعى أن نلحظ إلى نتائج انخامع الدسة التي انعقدت في صدر المسحة فكل مدارجها إلى سلطان القسطنطينية أو رومة قوين بالمقاومة في الإسكندرية ومن يديون عدهب كنيسها . وكل مجمع ديني ملك فيه الأساقفة الإسكندريون حريتهم وشرحوا فيه مذهبهم . ثم يجد في مصر مقاومة بين جمهرة المصريين ولم ينظر إليه مصريون نظرتهم إلى السيطرة لأحسية التي تعرض مشيئها عليهم دينا ودينا . ولا تدع لكيسهم حقها من الرعاية والكرامة .

وقد كان سلطان الرى العام امصرى محييا مرهونا على مخالفته والناقير عليه . فكان الأساقفة المصريون في مجمع حنقيدونية يرتعدون فرقا من العودة إلى بلادهم غير ماقوصهم فيه . وكانوا يصرحون في وجوه الأعضاء الأحرار قائدين اقتنوا هنا إن شتم . ولا تردونا إلى بلادنا بغير مارتصاه !

ومن الهم التي وجهت إلى البابا ثاسيوس السكندري ٢٩٦ ٣٧٣ ، يعرف مدى المكانة لدية والديوية التي بلغها رؤساء الكنيسة في مصر أدم مكانة الإمبراطور نصره في القسطنطينية . فيه اتهم بمنع تصدير القمح وافتتاح كنيسة غير إادن الإمبراطور ' ونقل المؤرخ جون من أحباريه أنه م يكف عن ماصلة قسطنطين وقسطنطينيوس ويوبيان وفالس ، وكان يوبيان المرتد يسميه بالمشاعب والنميص ، ويأديه التهم مبادلة الد سند ! وسأله قسطنطينيوس مرة لم لاتأدن بإقامة الكنيسة الآرية في الإسكندرية ؟ فكان جوابه إني سأدن بها يوم تأدن أنت بإقامة كنيسة أرثوذكسية في أنطاكية !

وغنى عن القول أن المعكرين الدييين الذين شأوا في صدر المسيحية . كانوا يعرفون فلسفة اليونان ، وكان منهم من يحاول أن يوفق بين الدين وهذه الفلسفة .

ومن بينهم قدم العام وقدم الإله ابنه عن المادة أو الهوى ، على مذهب أرسطو تارة ، وعلى مذهب المعرفيين أو مذهب الأفلاطونية الحديثة تارة أخرى وكان من هؤلاء المفكرين يونايون ومصريون يظنون إلى المسائل من جانبها الفلسفي ، ولا ينجحون بها إلى حريق الحاكمين أو المحكومين وهذه الآراء العقيدة تنجم في كل عصور كل أمة ، وتتصل بالسياسة العامة أو لا تتصل بها على حسب الظروف

ولكن اللارمة التي لا مكان لها تبرز على لأثر كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية في جانب ، وهذه القوة المنجمعة من غير لدين وحماة القومية هي التي عتصم بها المصريون زمانا ووجه لدولة الرومانية . قبل يمان هذه الدولة بالمسيحية ، وبعد هذا الإيمان

وقد اصطهد المصريون قبل إيمان الدولة الرومانية بالمسيحية ، وبعد إيمانها بها في أيام قسطنطين ، وكان من مصطلحهم قباصرة كالفيلسوف ماركوس أوريليوس ، وقباصرة لا يعقهن ولا يفكرون مثل كادراكلا ودقديانوس ووقع الاصطهاد في عهد لتقيصين هوقاس وهرقل ، ووقع من العوهل المتديين وغير المتديين ! وم يكن هذا الاصطهاد الديني قط حبرا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما حدث للمصريين كنيسة قائمة ، كانت هي الدين والدولة في وقت واحد ، أو كانت هي الرعاية التي تلف بها الأمة ونشت فيها كيائها ومشتبها في وجه القوة المماحطة

ولم يسع حكومة القسطنطينية إلا أن تعترف بهذه الحقيقة الواقعة ، فأرادت أن تستعيد منها الإرضاء انشعب المحكوم واتقاء التمرد من ولاية الرومان انطاعين فكانت تعصم أحيانا بين سلطان الإدارة وسطاب الجيش . وكانت تقسم معسكرات الدفاع بين مصر العليا ومصر السفلى ، وكانت تمنح بعض الرعايا لمصريين حقوق الرعاية لدية والرئاسة الحكومية . لأنها بمثابة الاعتراف بالضرورة التي لا عجب عنها ، وبالحنية التي يصنع لتعريق القوى ومنعها أن

تتجمع في ناحية واحدة للتمرد عليها وكانت تستعظم قوة الطرق الوطنى أحيانا ، فمرس إلى مصر بطرق على مذهبها بدير كنيسته إلى جانب الكنيسة البوذية ، ويتبعها المسيحيون من اليونان والرومان عبر الوطنيين ، كما يتبعها بعض الوطنيين الذين يحملون إلى عقيدتها ورأيها ، أو يتلقون بدولة الحاكمة طمعا في المناصب والخطوة النافعة .

وكان الوضع الدينى في أوائل القرن السابع محدودا مقررا بين الكنائس الثلاث في الشرق والمغرب والإسكندرية

كان الأساقفة المصريون قد تمكنوا من سيطر آرائهم في مجمع نيقية برئاسة البابا الإسكندر وتلميذه الكبير أنثاسيوس ، فأقروا العقيدة المسيحية كما اتفق عليها الأساقفة الذين شهدوا للمجمع ، وحرصوا على رعاياها في القطر المصرى وفي بلاد القبروا و ما حوله من المدن الإفريقية ، فلم يفسح عيهم رؤساء القسطنطينية هذا النهود ، وأرسلوا آريوس إلى الإسكندرية بأمر الإمبراطور فقاطعه الشعب المصرى وأوصد في وجهه أبواب كنائسه ، وفعل مثل ذلك مع الطرق جرجوريوس الذى أقامه الإمبراطور مقام بطرق أنثاسيوس المصرى بالإسكندرية ، فلم يحصر صلواته ولم يعرف بوجوده ، وأهمله حتى مات في عزلة بين رعاياه ! وكان أنثاسيوس في هذه الأثناء قد استعاد بكيسة رومة على كيسة القسطنطينية ، فأعادت ، وبرته من التهم المنسوبة إليه ، فعاد إلى الإسكندرية وكاد يقتل فيها حيلة بدسيسة من الإمبراطور يولييان !

فم انعقد مجمع حلقيدونية ، ورجحت فيه كفة رومة والقسطنطينية ، وأهملت فيه كنيسة الإسكندرية أشد الإهمال ، فوقع الانقسام بين الملكس أى التابعين لمذهب الإمبراطور ، وبين المصريين التابعين لمذهب كنيستهم ، وقيل عنهم يومئذ أنهم « يعقوبيون » لأنهم تلقوا من يعقوب البرادعى ، تنميد الطرق المصرى ، تمصيل العقيدة التى يؤمن بها ويرضى باتساعها ، وكان هذا البطرق المصرى

« ديسقورس » قد حكم عليه بالسب لمقاومته قرارات المجمع الخلقيدوني على الرغم من تركية الإمبراطور !

ولكن التفرقة الصحيحة بين المذهبين ، هي التفرقة بين القول بطبيعة واحدة للإله ، وبين القول بطبعيتين إحداهما إلهية ولأخرى إنسانية . ولا استعصى على المدونة أن ترغب المصريين على اتباع مذهبها ، توسط بعض الرؤساء الدينيين في حسم الشقاق ، بترك الخلاف على الطبيعة والطبعيتين ، ووصف لإله بأنه ذو مشيئة واحدة . وقدروا أن القول بهذا المذهب يرصى المصريين ، لأنه يرادف القول بالطبيعة الواحدة ، ولا يسحق أصحاب القول بالطبعيتين لأنهم يقولون إن الطبعيتين تتفقان في المشيئة الإلهية

غير أن هذا الترهيق لم يحسم الشقاق ، ولم تكن له من نتيجة غير تجديد لمناقشة في صورة أخرى ، وإثارة الخلاف على الفرق بين الطبيعة والمشيئة مما عاد بالمشكلة كلها سيرتها الأولى !

ووضح للإمبراطور الروماني أن هذا « العناد » من جانب المصريين ، كما سماه ، يحجب وراءه شيئا غير مجرد الخلاف على العقائد اللاهوتية ، والواقع أنه كان لاهوتيا قوميا بغير مراء . وأن تنافست المصريين على الرهبانية نفسها لم يكن حلوا من الاحتجاج على المصنام الرومانية ، وقد عبر عنه أنطاسيوس هذا التعبير حيث قال في كتابه « حياة القديس أنطون » Vita Antoniou . « إن رهباننا يصحراء كانوا ، ينشدون المزمير ، ويحبون المطالعة ، ويصومون ويصلون ، ويصرون بالرحاء في المصير ، ويعملون على أسداء الإحسان ، ويحب بعضهم بعضا حيث لا يقيم بينهم معبد ولا معبدى عليه ، ولا يقرب منهم حايى الصرائف ، ولا يصرون هناك غير حمهرة من النساء على مقصد واحد ، وهو « تتطلع إلى الفصيلة »

لقد كان هرقل مشغولا بحرب الفرس وقبائل البرابرة في أوائل أيامه على العرش ، فلما انتصر على الفرس وهادن القبائل حول عاصمته هرع « للمعاندين

المشقيين ، وعمره انصر ، فأمعن في طغيانه ، وعلا في مطالب الطاعة من رعاياه ، وحيل إليه أن استقرار الأمر له مرهون بتوحيد المذاهب في المملكة ، وأن هؤلاء العائدين المشقيين يهددونه ويختزنون عليه . فانقسمت الدولة عنده إلى « ملكيين » وخارجيين على حدك ، وتبادل العريقان التهم العيفة ، وكانت كلمة الوثني الخائن أسوأ وصف لمن يحالفون الإمبراطور وشعبته ، وكانت كلمة الخلقيندوني مرادفة لوصف الكفر والغش في نظر أبناء البلاد ، ولم تكن لمسألة يومئذ مسألة مد هب وطوائف في ديانة جامعة ، بل كانت مسألة مسيحية أو لاهوتية ، لأن مهمة ضامع في لقرون الأوبى بما كانت تقرير العقيدة التي يدين بها المؤمن ويذكرها غير المؤمن ثم جاء الاضطهاد فأوجع الصدور ، وجرح نه العريقان من الخلاف إلى العداء ، وآمن كل متدين بخلص في عقيدته أن محابيه قد استحقوا العصب والنفقة من الله !

وم يحصر الرابع بين سكيين وحمية لمصريين ، بل ظهرت معه الخلافات بين الآريين والسطوريين والأوطاحيين والشيوسقيين أتباع بطرس القصار ، وغيرهم من أصحاب المحل المتفردة أو المتباعدة في تفسير اللاهوت واللاهوت . وعذب الصخر على الكثيرين واعتزلوا المذاهب ، وساورتهم الشكوك ، وسهات الأخلق ، وساءت القدوة بعينه الناس ورؤسائهم ، فمن لم يكن نافعا متوقعا للعصب السماوى فهو متهاون غير حاصل مما تصير إليه الأمور .

وقد صور لنا أبناء ذلك العصر شعورهم في أقوالهم وأخبارهم فاتفقوا على شعور واحد مع اختلافهم في كل ماعده ، وذلك هو شعورهم بالعصب الإلهى وانتظار الحراء العادل من الله .

فلما تقدم المسمون لحرب الدولة الرومانية ، شاع في المشرق كله أن هرمن حق ، وأن علة المسلمين عيبا عدل ، وأن القضاء الإلهى يعذب في مستحقه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية .

وربما نهر الخاصمون للدولة الرومانية من هذا القصاص الذى حل بها ، لو أنه أصبحهم كما أصبحها ، وعرضهم للشر الذى كانوا يأمنونه فى ظلها ، ولكنهم وجدوا العائدين يؤمنونهم من حيث جاءوا ، ويبعثون لهم ما لم يكن مباحا لهم فى أيام الدول الدائنة ، فمن التصدى لعدل الله فى قصائده أن يصروها لتخلفهم وأن يدافعوا عنها ليدفعوا عنها عصب الله

كانت مدينة عزة أول المدن الكبرى التى استولى عليها العرب من أرض فلسطين ، وقالت مجلة المشرق اليسوعية فى سنة الثانية ١٩٠٤ : « كان يمكن وقتئذ فى جنوب عزة قوم من قبائل العرب المتعصين ، وكان قد أصبحهم من قبل ولاية الروم صعب وحور فى المعاملات والتحاو إلى عساكر المسلمين ، ودعاهم إلى فلسطين ، هلكوا دعاهم ، ورحلوا على غره فى اليوم الرابع من شهر شباط لعام ٦٣٤ ، وظهروا بجيش لروم ، وفتحوا المدينة وبعد أيام قليلة أتموا فتح بقية مدن فلسطين »

قال ماير Meyer فى تاريخ مدينة عزة أن سكانها المسيحيين خرجوا مع جيش الروم عندما حاصرها العرب ، إلا أنهم عادوا إليها بعد اطمئنانهم إلى العائدين ، ودخل هريق كبير معهم فى الإسلام ، وذهب المتكلمون عنهم إلى عمرو بن العاص بطلبون منه قسمة الكنائس بينهم ، فقسمها بينهم على حسب عددهم ، وأعطى الكنيسة الكبرى لأصحاب العدد الأكبر وهم المسلمون ، وأمر بإبقاء الكنيسة الأخرى لمن بقى على دينه من المسيحيين .

وكانت عزة على أبواب مصر ، تسرى أساؤها إلى لنديار المصرية بين لندة وسهر ، وكان فيها وهجا حولها طائفة من اليهود المصريين والمتمصرين الذين استحدثهم هرقس وقائده عيادين فلسطين ، وكانت أبناء اليهود التى اتفق عليها لمسلمون وبصارى العرق والشام تتولى على كل جانب من جوانب الدولة الرومانية ، فلم يكن فى كل أولئك ما يدعو أبناء البلاد إلى مؤامرة الدولة الرومانية ودفع الجريمة

عنها ولم يكن لانتصار العرب وسهرام الدولتين أمامهم دولة الأكاسرة ودولة القياصرة - غير تفسير واحد ، وهو قصده الله وعدل الله .

ولمهم التاريخ كما حدث ينبغي أن سطر إليه تأعين المعصرين ، وأن شعر بحوادثه كما كانوا يشعرون بها . وأن ندخل في حسابنا ما دخل في حسابهم من التقديرات والمعايير ، وأن نعرض لعداوت والصداقات على المحك الذي عرضوها عليه ، ومنها ما حطر لهم وهو لا يحطرب الآن ، ومنها ما استحف به ولم يكن حقيقاً قط في مواردهم للحوادث والأمور .

إن العرب ساء إسما عيل وهاجر بعهم ذلك كل من قرأ التوراة وطلع على أصول الديانة المسيحية . ويعلمونه في ذلك العصر خاصة ، لأنه كان عصر الإدارة القومية بين الرومان الأجانب وشعوب الشرق على الإجمال وقد كانت وحدة الديانة حليقة أن تنسى لشعوب المحكومة هوارق النوط واللغة ، ولكنها وحده لم تتنظم قط بين الحاكمين والمحكومين ، ولم يكن هب ما يجمع المختلفين ، بل كان غيبا على الدوام ما يفرق المجتمعين ، ويمشي بينهم بالعداوة والبغضاء !

فالعرب أبناء إسما عيل وهاجر أقرب من الروم إلى أماء مصر ، بالنسب الذي تحفظه لكتب الدينية ، وقراءة الأمومة والسلالة ، ومثل هذه القرية لم تكن من المهملات في ذلك العصر ولا في العصور التي لحقت به إلى عهد غير بعيد من عصرنا الحاضر ، وقد رأينا أنها كانت حجة لهرس في الإرحاف على بلاد الدولة الرومانية ، لأن زوجة كسرى كانت من بنات الروم .

ومن مقدمات الفتح الإسلامي نبأ من الرسائل بين النبي عليه السلام والمقوقس ، أو عظيم القبط كما سمي في تلك الرسائل ، وقد حصت بأحبارها كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ عن الفتح وما بعده ، ستخلص منها ما لا يد من العلم به ويأمله في بيان الحالة الدينية بمصر كما ورحبها الماتحون وأهل البلاد

قال حاطب بن أبي بلتعة ، حامل رسالة النبي إلى المقوقس ، إني قلت له :

« كان قبلك رجل - يعنى فرعون - رعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ! فاعتبر بعيرك ، ولا تعيرك ! وإن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافى الله به فقد مسواه ، وما بشاره موسى بعيسى إلا كشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولما نهاك عن دين المسيح ، ولكننا تأمرك به »

قال حاطب ثم تناول المقوقس كتاب السى فقرأ فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يوثق الله أجره مرتين . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتحد بعضنا بعضاً أزياباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

ثم قال المقوقس كلاماً عن صفات النبوة ، منها : « أنه يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويحتري بالثرات ولكسر ، ولا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم » . وأنه كان بظن أن محرجه من الشام ، فمن ههنا كانت تخرج الأنبياء ، وكتب الجواب فجعل عنوانه « محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط »

وورد في بعض الأحبار أن المقوقس أراد أن يجتمع دعوى النبوة بأهلية ، فأرسل هدية معها صدقة ، لأن الأنبياء نقل الهدايا ولا تنقل لصدقات ، وجعل اهلية جاريتين أختين ليرى هل يجمع بينهما أو يتورع عن الجمع بين الأختين ، فكان أن أهدى النى إحدى الحاريتين وبنى بالأخرى ، وأنه ورع الصدقة عن الفقراء

ومثل هذه الأحبار يوجبها فهم التاريخ كما حدث أو كما يسفى أن يحدث ، ولا ترفضها إلا الخلدفة التى تداحل المؤرخ العصرى ، فيحسب أن المقوقس يعيش في هذا القرن العشرين ، ويتلقى دعوة النبوة كما يتلقاها أبناؤه ، فلا ينظر في

امتصاصها مما كانت تمتحز به اثبات في القرون الأولى للميلاد ، وإنما الخلق بالتحقيق التاريخي أن يوقن انورج من حصول شيء كالذي نفيه رواة السير والأخبار عن تصرف حاطب بن أبي بلتعة ، وتصرف المقوقس في جوابه وهديته ، لما كان المقوقس لينتلق رسالة التي أوليحيب عنها إلا على ذلك النحو ، مما يحاول لمؤرج أن يتحيل غيره فلا يستطيع !

أما المسلمون فقد جاءوا مصر ومهم من سمع أحاديث النبي عليه السلام في التوصية بها ، ومهم « وإيكم ستمتحنون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا متحتوها فأحسوا إن أهلها ، فإن لهم دمة ورجل » وقال دمة وصبرها »

ومن الأحاديث النبوية عن مصر أنه عليه السلام قال : « إذا حج الله عليكم مصر فاتحلوا فيها حسناً كثيراً ، فذلك الحسد حير أجناد الأرض » قال أبو بكر رضي الله عنه . ولم دلت يارسول الله ؟ فقال : « لأهم وأروجهم في رباط إلى يوم القيامة » وقال : « ما كادهم أحد إلا كهاهم الله مؤونه »

ومن لم يكن من الحسد الفانع قد سمع الأحاديث النبوية ، كان قد سمع آيات من القرآن الكريم ، وفيها من لعنة فرعون

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ لِنَفْسِهِ شَيْعاً » ، وفيها من لعنة : « إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَسَرًا فِي الْأَرْضِ » وفيها : « وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَعْمَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُبَيِّنَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْكُمُونَ »

وعلى ألسنتهم جميعاً حكاية عن قوم يوسف « ادخلوا مصر إن شاء الله آمين » وقوله تعالى « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَشِعْرٍ كُنُو فِيهَا فَاكْهَبِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ »

وكل هذه الوصايا القرآنية والنبوية في أدهان العائدين تجمعهم إلى المسألة

والمؤاسة في معاملة أهلها . ونصح لروم صدهم في موضع مرعون لدى تمبر و عرق
رعيته شيعة ، ووحب أن يتركوا الأرض لمستعصمها ، وأن يورثها الله قوما
آخريين .

وتوافق هذه المسألة حطة مثلها من أبناء السلالة توحجها إليهم أحول كثيرة كانوا
يكابدونها على لأحقاب لمتوابة ، وأهمها الحانة الدينية كما صار في أيام الفتح
الإسلامي خاصة ، وهي تلك الحانة التي أزعجت الطرف عن كرسية ، وألحأت
رعيهم القوم إلى مذهب في العقيدة غير مذهبه ، فلم تعد الطمأنينة إلى المتعدين
لأول مرة في ثلاثة قرون إلا بإعلان الأمان بكل متعدد ورعاية لكل معد

ولاحلاف بين المؤرخين في مذهب الدعوة الدينية في سنوات الفتح الأولى إلى
أواسط أيام الدولة العباسية ، فلم يقع إكراه على أحد ، بل وقع مايقص
الإكراه في رواية انكثيرين من مؤرخي العربية ومؤرخي العتات الأجنبية ، فقد
أدهشهم بحجم الفاتحين عن إكراه أبناء الملاد على الدخول في ملتهم ، حتى
التمسوا توبيل ذلك أنهم كانوا يشفقون من نقص الحرية وإفقار خزانة الحكومة
وانقطاع أرراق الحد والعون ، وهو تأويل محطى كما سرى في باب الأحوال
الإدارية وتقسيم الأموال بين الخزنة والخرح والركاة ، ولكنه مهما يكن من حطته
صحيح في الإبانة عن الواقع في مسألة الدعوة الدينية ، فإذا بيع من إحكام
الحاكمين عن إكراه الرعية على الدين بسبهم أن يعلى لمؤرخون ذلك بنفورهم
من فقدان الحرية ، فقد صحح على الأقل أنهم أحجموا عن الإكراه ولم يفسروا
أحدا على الخروج من دينه

غير أن سياسة الدينية ، كما وصفتها ، تصير الواقع كما تستدعيه تلك الحالة ،
وكما ورد في التواريخ القبطية كتاريخ يوحنا السحورى المشهور ، فهو يقول إن
المسيحيين الملكيين أسرعوا إلى الدخول في الإسلام لأنهم كرهوا أن يشربوا
أحكامهم ومعدلات رواجهم وطلاقهم إلى الكنيسة لى يعادوها وبعادهم ،
ويشبه الطائفة الملكية أدس في حكمها ، كالتوائمة السطورية والآرية . ومن يقول

بالشيئة الواحدة ولا يقول بالطبيعة الواحدة . كما يقول القسط ، ولا بالطبيعتين
عن النحو الذي يدين به المنكبون .

وقد حدث في هذه العزة وما قبلها بقليل أن لطائفة المارونية هجرت أرضها
جمعة واحدة ، وتنقلت إلى جبال لبنان كراهة لاختصاص اليعقوبيين ، ولعنها لو
اضطرت إلى الفناء حيث كانت لدات بالإسلام ولم تدع لمن حاربتهن
وحاربوهن في المعتقدات ولأحكام عشرات السنين .

فالذين أسلموا بعد الفتح إنما أسلموا طوعا غير مكرهين على ترك مذهب
ولا بخله ، وهم على روية بوحنا المحبوى طائفة الملكيين الخلقسديين ومن يشبهها
من الصوائف التي لا تقول بالطبيعة الواحدة ١ ويضاف إليهم أناس من الذين
فهموا من انتصار المسلمين على الفرس والروم أنه آية إلهية وبرهان من السماء على
صحة الدين وسلامة الدعوة . ويضاف إليهم أناس من هاد عليهم أمر التدين في
محبة الشقاق ومحبة الأخلاق ، فلم يبالوا على أي دين أصبحوا بعد الشك
والريبة ، ثم فصلوا الدين الذي يعتمدونه ولاية الأمر وحكام الملاد ١ ولا تفسير
للحانة الدينية أيام الفتح أصبح من هذا التفسير .

الحالة الإدارية والسياسية

عرفت مصر التقسيمات الإدارية من أيام الأسر الأولى ، وعد سترايون ستة وثلاثين من هذه الأقسام التي سميها اليوم بالمديرية أو المحافظة وعرفها اليونان باسم نوم Nomos ، ورادت بعد عصر سترايون حتى أُرست على الأربعين ويقال بها كات في مدد الأمر مواطن بعشائر أو القبائل المختلفة التي سكن الوادي ومايقابله من حابي الصحراء . وكانت كل عشيرة منها مستقلة برئيسها وعاداتها المحلية ، على حسب الطوطم التي تدعى بها ، ومن هنا عدة العدة في كل إقليم لطوطم من الطوطم الحيوانية ، منها إقليم لصقر ، وإقليم النمساح ، وإقليم اس آوى ، وإقليم الهر ، وإقليم الحمل ، وغيره من هذه المعبودات انطوطمية وهذا كبرت بعض الاقاليم أو صغرت لأسباب لا ترجع إلى الوضع الجغرافي أو المصالح الاقتصادية وتعدر تعبيره . والتصرف في حدوده قبل اتحاد البلاد جميعا في هيئة قومية عامة .

وإلى جانب هذه التقسيمات كانت هناك أقسام أكبر من هذه الأقسام ، ملاحظ في تحطيطها الدفاعي العسكري والسياسي ، أو دفاعي الاحتياط النزاع بين أصحاب الحقوق المشتركة في الإمارة .

وأقدم هذه الأقسام قسما : مصر العليا ومصر السفلى ، ثم زيدت عليها مصر الوسطى ، وتفرعت مصر السفلى إلى فرعين أحدهما إلى شرق الدلتا والآخر إلى غربها ، ووحد في بعض العصور قسم آخر ، يضم إليه الواحات وطرفا من الأرض الليبية ، ويتصل بالقنطرة والإسكندرية حيث يشرف عليه الولي الأكبر ، لما له من الخطر في الدفاع عن حدود مصر العربية

هذه التقسيمات جميعا تحلت وكادت تندثر أو تختلط بينها لتحات في عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

في عهد الإمبراطورية بسبب الحاجة إلى الدفاع شرقا وغربا ، لأن مصر كانت محاطة من لجهتين بأملاك الإمبراطورية في فلسطين وفي ليبيا وإفريقية الشمالية . وبطلت الحاجة إلى الدفاع جنوبا . لأن محاني الحبشة كان على عهد مع عاهل القسطنطينية أن يتعاونوا على حرب فارس وإخراجها من اليمن التي كانت لهم لحشة ونحشي الخطر من جانب فلم تبقى من حاجة إلى الدفاع في غير الإسكندرية ، ولم يكن دفاع البر هو المقصود بالحامية التي بعسكر فيها ، ولكنه كان دفاعا بحريا عززه الحاجة إلى الأسطول لقلل محصورات والغلات من القصر المصري إلى بلاد الدولة المترامية الأطراف على سواحل بحر الروم

وحاور الأمر إهمال الدفاع إلى تعجير الخاميات ، وإغراء بعضها ببعض . خوفا من تهاوها على الدولة ، وإجماع قادتها على رفض المطالب التي تتوالى على القطر من القسطنطينية

فاحتلت أحوال الأمن في دخل البلاد ، وحأ بعض السراة من أصحاب الصياح الكبيرة إلى اتحاد الحشد من أتباعهم ودرأهم وحواشيهم ، فلم يخلص غير قليل حتى يحم لخطر من هذه الفرق لقي لانتدب بالطاعة بقائد واحد ، فعاشت في الأرض ، وجبف مآ على الوداعين المسايين وأصبحت شرا عليهم من عصانات اللصوص وقطاع الطريق ! وفي تاريخ يوحنا النحوي وقائع شني من عنت هذه الفرق ، ندد على ماكان من اضطراب الأمن وفرع الأهليين وعجز الحكومة العامة في الأيام الأخيرة قبل الغزوه العربية

وآل العرض كله من لتقسيمات الإدارية إلى جمع الصرثب والإيراد المقررة للدولة في كل سنة زراعية .

ولم يكن لهذه الصرثب نظام واحد ولا مقدار معروف لا يتغير مع السنين ، ويظهر هذا الاختلاط في سياسة الصرثب من تصارب الأقوال بين المؤرخين الذين جمعوا كل ما أتبع لهم جمعه من الوثائق والسجلات وأوراق البردى

ورسائل المعاهل والولاة ، فاحتلوا في صرية الأرض . وصرية الرؤوس . وذهب بعضهم إلى بنى الحبر المتواتر عن وجود صرية الرؤوس في مصر على عهد الدولة الرومانية الشرقية ، لأنهم لم يجدوا لها موضعاً بين أنواع الضرائب على الأطنان ، ثم اتفق بعضهم على أن صرية الأطنان هي صرية الرؤوس التي أصبحت أساساً لتحصيل الحرية بعد فتح العرب ، لأنهم كانوا يلاحظون في مقدار صرية الأرض كهيئة الزارع الواحد طول العام ، فتحسب العلات بحساب الرؤوس . ولا يختلف التقدير بين صرية الوحدة لأرضية *Jugum* وصرية الرأس على فرد من أفراد الملاحين *Caput* ، فلم يكن حراج لأرض *Jugatio* وصرية الرؤوس *Capitation* إلا صورتين مختلفتين لصرية واحدة^(١) .

واستوح هذا النظام أن يعتبر الملاح أسيراً على لأرض التي يزرعها . ويعامل معاملة المزارع بحق الدولة إذا فارق قريته ولاد بقرية أخرى وحل الزارع المسمى *Colonus* محل العبد الرقيق بعد تعدد الاعتماد على هذا النظام في الزراعة

وعلى هذا لم يكن مقدس الحراج محدوداً في كل سنة . بل كان تحديده على حسب الحصول لمطور في أيام الميضان ، فيصدر البيان السوى من الولي الروماني خلال شهر يوليو أو أغسطس^(٢) ويبلغ إلى الأقاليم في سبتمبر أو أكتوبر ، ويتولى كل إقليم توزيع المقدار المطلوب منه على القرى والبلاد ، كما يروق صاحب الكلمة العليا في الإقليم . وأصحاب الكلمة العليا مختلفون بين حكام رومانيين ، أو أصحاب ضياع من الأحرار والوطنيين ، وبين مجالس بلدية أو إقليمية ، ومستأجرين يتولون ررع الأرض في مساحات واسعة ، ثم يتولون بحاسبة المجالس أو أصحاب الضياع .

(١) الامبراطور به البيزنطية تاليف نورمان بايتر Barnes

(٢) الدخول في الإسلام وصرية الرؤوس تاليف دانييل ديت Denoette

والمطلوب من الأرض كذلك يختلف على حسب الحدود والصف المزروع ،
من الأرض ما يسهل ريه بماء النيل ، ومنها ما يصل إليه ماء النيل ولكنه يغمره
أباما في السنة فلا يصلح للزراعة في غير موسم قصير ، ومنها ما يحتاج إلى الآلات
لريه ولا يأتي بالعلة الكافية إلا مع كثرة الأيدي العامة به .

والدولة لا يعينها إلا أن تجمع المقدار المقرر في حسابها . والموظفون لا يعينهم
إلا إرضاء الدولة ، وليس للتقصير في أداء مطالبها عبر نتيجة من نتيجتين ، كلتاها
مكروهة ومختورة . فإما العزل ، وإما العمل بغير مرتب ، لأن المرتبات محسوبة من
حصة الضرائب التي تبقى في مصر بعد استيفاء مطالب الدولة جميعا من المال
واضاصيل .

وربما نسايق الملاك الكبار ورؤساء المحاسن المحلية والإقليمية في معاملة
الدولة في تخصيص الضرائب ، طلبا للكسب والنفوذ من وراء هذه المعاملة !

فقد كان النظام المتبع مع كبار الملاك أن يؤدوا ضرائبهم إلى خزانة الدولة
مباشرة ، بغير واسطة لجنابة ورؤساء المحاسن . وكان هذا النظام يرضى الدولة لأنه
يعينها عن استخدام الموظفين والخصيين ، ويرضى المالك الكبير ، لأنه يكسبه
لحاه في الدواوين ، ويمكنه من تسخير العمال المستأجرين ، فلا يرحلون أرضه أو
يستعين عليهم بسطان الحكومة ويستيقظهم عبده مكرهين . وكان من حقه هذه
الثابة أن يطارد الماخذلين لأهم بماطنون الدولة كما بماطلونه . وأن يتردد من
الأرض المروعة لحسابه ما استطاع لأنه يريد بذلك في نصيب الخزانة العامة
ويعطي الدولة حقا جملة واحدة في موعد معلوم !

وهناك حاية سياسية وراء هذه الإجراءات الإدارية ، ترمى إليها الدولة
البريطانية في عاصمتها الكبرى ، وهي إثارة الشحنة بين سرة البلاد وأصحاب
الماض الكبري ، فتضرب بعضهم ببعض ، وتأمهم جميعا على سلطانها ، وقد
تأمن أن يقاتلوا أحدهم في نصيبها من الضرائب حذرا من وشايه الخصوم
والنظره !

ويغيب على اعتقادنا أن سلطان المقوقس في مصر، بما كان من عمله على هذا النحو في تدبير أمر الخراج، فلم يكن واليا معوصا في أمر الخراج كما خطر لبعض المؤرخين، ولكنه كان مالكا كبير من أبناء البلاد، فكان يتكفل للدولة بحصته وحصنة عملائه وأتباعه، وكانت الدولة الرومانية تعترف بوجاهته وتستفيد منها، كما كانت الدولة البريطانية تصنع في العهد مع الراحات وأمراء الولايات

ولكن الطمأنية شيء وشارع الوجهاء على السيطرة شيء آخر، فهذا التنازع صراع دائم لا طمأنية فيه لأحد من كبار الملاك ولا من كبار العمال والولاة وإذا كان مداره على التزايد في إعطاء الدولة وابتزاز المال من محتاجين إليه، فهو قلق دائم لصاحب الأرض ورارعها، والمأجور عليها. ومن تقوم سيادته على التشكيل ينظره، والعدوان على من هم دونه من الصغار والمستضعفين

ولم تكن صرية الأرض أو صرية الرؤوس كل ما تطلبه الدولة من رعاياها المصريين، بل كانت هنالك ضرائب كثيرة على لمقتنيات جميعا بين ثابتة ومتنقلة، وقد أحصى بها ميس Milne في تاريخه لمصر في ظل الحكم الروماني أنواعا شتى، كصرية الإصلاح والرميم التي تجبى لإقامة الجسور وتسلية الحدائق وتنظيف الأحياء، وصرية البيوت ولهاكن الخاصة والعامة، وصرية الحيوانات كالخيل والجمال والحمير، وصرية الصناعات والمناجر، وصرية عامة تسمى صرية إنتاج. وكذا عن احتلاط حسابها وحساب مواعييدها والمراجع التي تتولى تقديرها وتحصيلها كانت مصدرا دائما للشكوى والقلق والبراع، بين الشعب والموظفين، وبين الإدارة المحبة والإدارة العامة، وبين خزانة مصر وخزانة الدولة الرومانية.

واقترنت هذه الحالة في القرن السادس بتدهور العملة الرومانية، واختفاء العملة جملة من الأسواق المصرية! وقد هز المؤرخ ميس هذه الأزمة بالحروب من ثقبات التجارة، واكتفاء أصحاب الزراعات بلوازمهم من علات أرضهم وبما يحصلون عليه مقايضة ومبادلة عن تلك العلات، وقد يكون بعضها راجعا إلى

عادة الكثر والادخار، نهرياً للهان من أعين الحكومة، وحيلة للمستقبل المجهول.

وبين هذه الأزمات والشكايات يسمع القوم عن نظام العائنين في البلاد المحاورة، ويعلمون أنه يفصر الصرائب على صرية الرؤوس للدميين، وضربة العشر للمسلمين. ولم يكن هناك خراج بتفصاه العائنون من الفريقين مستقلاً عن الصريتين، لأن نظام الخراج إنما استعير من الدولة العارسية، وصُحِّحت الكلمة من كلمة «حلاج أو حارج» الآرامية التي دخلت في نصيرات الفرس، لأهم كانوا يستعيرون الكتابة بالحروف الآرامية، بها شرعت الدواوين الإسلامية في تطبيق نظام الخراج والتوقيع بينه وبين صرية الدميين وبين عشور الركاة، كان قد مضى وقت غير قصير على أوائل أيام الفتوح

وكان الأمل في الخلاص من شبكة الصرائب الرومانية سبباً آخر من أسباب الرغبة في الخلاص من حكمها كله، بما اشتمل عليه من صروب الإرهاق والسيطرة الحائرة على الأرواح والأموال.

وقد خلق المؤرخون كمعادتهم مشكلة متشعبة من الاقاييل والتقديرات حول نظام الصرائب في العصر الإسلامي الأول، وتساءلوا: هل كانت صرائب رموس؟ هل كانت حاتم مئة؟ هل كانت خراجاً على الأرض؟ هل كان تخصبها على طريقة الدواوين الرومانية أو على طريقة جديده لم يكن معروفة في تلك الدواوين؟

وبما يخلق المؤرخون مشكلاتهم لأنفسهم، لأنه يطلبون المصوص والأوراق دائماً، ولا يطلبون أنفسهم تقدير لموقف كما يسعى أن يكون، ثم يستعيون عليه مصوصهم وأوراقهم على هذا التقدير!

ويبقى أن يقدر المؤرخون شيئاً واحداً لا شك فيه، وهو أن انتقال نظام الصرائب من لينة وهار من الحساب الروماني إلى الحساب الإسلامي هو

المسحيل . لأن إشراف الفاتحين على الدواوين التي يجري فيها الحساب باللغة اليونانية غير ميسور . وقد يتعسر إشرافهم عليها بأية لغة من اللغات في سنوات الانتقال من نظام إلى نظام

كذلك يسعى أن يقدر المؤرخون أن معاملة القطر كقطعة واحدة من الأرض شيء لم يخطر على بال أحد في ذلك الزمان !

فالمؤرخون الأقدمون كانوا يذكرون مصر في كتبهم ، فينكلمون عن مصر وإسكندرية ، ومصر وطنية ، ومصر والقيوم ، ومصر والمدن الخمس ، ويصفون بها في أحكام الولايات ولأبرشيات من الوجهة الإدارية والوجهة الدينية

ولما لم المتح كانت معاملة الأقاليم مختلفة على حسب الولاية والملاك ، وعلى حسب المقاومة والصلح ، وعلى حسب الجود والقادة الذين أخذوها عنوة ، أو أخذوها بعد حصار ، أو أخذوها بعير مقاومة

فهناك أقاليم كان لملاك فيها من الرومان فهجروها ، وأصبحت من غنائم الدولة التي تستولى عليها وتتولى تقسيمها وتوزيعها .

وهناك أقاليم يكثر فيها الملاك الوطنيون ، وهذه دسحة في صربية الحرية ، وأقاليم حاربت ، وأقاليم لم تحارب ولم تعقد صلحا ، لأنها كانت متروكة بعير زعامة وبغير رئاسة سوب عنها في المعاهدة والمصالحة

أما اختلاف المعاملة بالنظر إلى الجيش الفاتح فمرجه إلى الفرق بين العبيدة والىء في أوراق الجنود .

والغنائم التي تؤخذ حربا تُعزل منها حصة لبيت المال ، وتقسم منها حصة على المقاتلين

ولغنائم التي يأخذها الفاتحون بغير حرب هي اللىء الذي يؤول الأمر فيه إلى نصرف الإمام ولا يصح تقسيمه بين المقاتلين

فلما حصل الفتح جاء الاختلاف من قتل العيزيين المحاربين ولمسلم ، وبين حقوق العبيدة وحقوق النوة ، ولكن لا اختلاف على الإطلاق في نظام الضرائب كيف يكون في محاسبه الدمين ومحاسبه الخنود .

• • •

وقد يختلف في الأرض الخراجية وغير الخراجية ، وكس الأمر الذي لم يقع عليه خلاف قط هو ضريبة العشر على المسلم ، لأنها هي مريضة الزكاة التي تلمه باستحقاقها ولا خلاف عليها ، والسيه إلى ذلك واجب لتصحيح أقوال المؤرخين الذين هموا أن أناساً من أماء مصر دخلوا الإسلام فرارا من ضريبة الخزينة ، فإن نظام الضرائب الحديدية كان يوجب على كل دمي عامل دينارين في السنة ، ولا ضريبة على النساء ولا على الأطفال ولا على انشيوخ العجزة ، ولا يزد أحد منهم في جربة رأسه أكثر من دينارين ، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والروع ، إلا أهل الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدون لخراج واخرية على قدر ما يرى من وليهم ، لأن سكانها من الروم ، ومن ولاهم لم يدخلوا في اتفاق ، وعادوا إلى القتال بأمر الدولة الرومانية مرتين

والحكم في تحصيل الخرية كما أثبتته العقهاء ، ألا يضرب أحد من أهل الدمة في استيذائهم الخرية ، ولا يقدمو في الشمس ولا غيرها ، ولا يعمل عليهم في ألباسهم شيء من المكارة ، ولكن يرفق بهم ، ويحسون حتى يؤدوا ما عليهم ، ولا يخرجون من الحبس حتى تستوى بهم الخزية .

فإذا أسلم الدمي فرارا من الخرية ، فالإسلام لا يعفيه من الزكاة ، ولا من حراج لأرض يحسب ما يلزم لإصلاحها وربها ، ويوجب عليه «التجنيد» الذي يعنى منه الدميون ، وليس في هذا تخفيف ولا إغناء من وجهة التكاليف التي تناط بالأنفس أو الأموال

وليس من عرص هذه الرسالة مسط القون في النظم الإدارية والمالية إلا من

حاجب واحد ، وهو الحاجب الذي له علاقة مهمة بفتح وعمل عمرو فيه ، فإذا نظرنا إلى نظام الضرائب ونظام الإدارة عامة في عهد الرومان ، ونلاحظ آثارها في فتح العرب مصر ، كان أوضح هذه الآثار أنها يسرت مهمة الفتح بيسير عظيم . فاستطاع عمرو ببضعة آلاف من الجنود ما لم يكن مستطيعه بأضعاف هذا العدد . إذ كانت هزيمة الروم بكفة على الروم ، وكان انتصارهم بكفة يحددها أثناء البلاد ، وإيداناً بظلم فوق ظلم لأنه ظلم المنتصر الذي استقر له الأمر في بلد مغلوب يحس من أهله العدة ، والمنافسة في أمر العقيدة وأمر السياسة . وقد وصف سويرس بن المقفع فرح الجماهير بلقاء رئيسهم بيمين بعد احتجائه في معناه ، عقول إسماعيل كمن أشبه شيء بصغار النعم حُلِيَّ بها وبين أناس أمهاتها . وقال البطريق نفسه في حواره لأسقف بيخو الذي هنأه برؤاى عهد الروم « إني وجدت في الإسكندرية ما كنت أوده من لطمانية بعد ما قاسياه من الكفره الطالين » ١

ما السياسة التي اتبعها عمرو في تحصيل الضرائب ، فكنت في جانب المصلحة لمصرية كلما احتجت لآراء ابن حنبلين فلما أشار عليه رجاء الحسد بقسمة الأرض وتبادل بين ذلك عليهم ، وراجع الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك فأقره على رأيه . ثم اقتصد في تحصيل الضرائب حتى ارتأى الخليفة في الأمر ، وحاسبه عليه حسداً عسيراً كعادته في محاسبة العيان ، إزاء لدمته من العث بيت المال ، وفي الكتب التي دارت بين الخليفة وعمرو في هذا الصدد بيان عن سياسة عمرو ، وبيان أوضح من ذلك عن خلقه وقوة شكيمته مع خليفة لم يجترئ عليه أحد من عماله مثل احتوائه فلما كتب إليه الخليفة « يعجب من أن الأرض لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه » ، ويعرض له بعض الشبهات ، أجابه معصياً ، فقال « إني عملنا لرسول الله ﷺ ، ولى بعده ، فكنا نحمد الله مؤدين لأمانتنا ، حافطين لما عظم الله من حق أئمتنا . وإن الله قد زهى عن تلك الطعم الدبيثة والرعية فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرساً ولم تكرم فيه أحداً . »

إلى أن قال ، وهو أشد ما ووجه به خليفة ، وما ووجه به ابن الخطاب

خاصة . « والله يا ابن خطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد عصباً لنفسى ، ولها
إبراهماً وإكراماً ، وما عصمت من عمل ربي عليه متعقفاً . وبكى حطط ما لم
تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما ردت . يعمر الله لك ولداً . » ١ ١ ١

وتكررت لمعارضة منه في طلب الزيادة من مال مصر حتى عزله عثمان رضى
الله عنه وقال له حين جاءه الخراج رائداً : « أرى أن اللقح قد دثرت ! » فأجابه
« حين أضجعتُم فصاها ! ! »

وم يحاول المؤرخون الغربيون أن يسكروا هذه الخطة من عمرو ، ولكنهم
أكدوها واستندوا بها على بية النقاء في المصب أوبية العمل لنفسه في المستقبل ،
وليس هذا بالبعيد في رأينا ولا بالمستغرب من عمرو أو غيره من الولاد . ولكنه
قول يلقي على عواهنه إذا أريد به أنه كان يقطع أموال مصر لنفسه بعد الفتح ،
فإن الخبيفة قد حاسه على ما راد من عطائه - وهو مائتا دينار - فوجد فصلا
سأله عنه ، فقال له إنه من التجارة ، فلم يتقل منه هذا العذر ، وأرسل إليه من
يقاسمه الزائد من المال كمعادته مع الولاة في كل بلد ، ثم عزله عثمان فلم يتحلف
عنده من المال ما يعيه بعد عزله ، ولو تحلفتم عنده بقية تحسب من الغنى لما قال
عثمان : « إن جبتك قلت منذ عزلتك ! » .

هذه خطته في لإدارة ونظام الضرائب بعد هزيمة الرومان ، وهى الخطة التي
عاهد عليها من عاهدوه فيها ، ولم بتغيرها بعد ولايته الثانية في أيام معاوية إلا
أنه كان يستول عن الحكم كله في أيام هذه الولاة ، فلم يكن حطط ما راد من
المال احتلاسا من حق معروض عليه لبيت المال في دار الخلافة

قبل أن عثمان رضى الله عنه عزله لأنه أراد أن يجمعه على الحرب ويولى
عبد الله بن سعد تدبير أمر الخراج ! ويحيل إلينا أن عثمان رضى الله عنه قد نظر في
ذلك إلى نظام الدواوين كما بقى من عهد الروم وراد أن يجعل للدعاع وللحرب
والياً غير ولاة المال ، وقد كان الخلفاء الأولون يسندون هذه المنظم على غير سابقة ،

ميرحعون إلى سوانقها في البلاد التي حكموها بعد الفرس والرومان. وأما كان
الباغث على معارضة عمرو في هذا النظام، لقد كان على طريقته التي انتهجها
قبل بحرين إدارة الدواوين شيئاً فشيئاً إلى النظام الذي استمره تغيير سياسة مصر.
من ولاية تناس لتدبير طعام الدولة الرومانية وتزويدها بالمدد خراجها. إلى قطر
يقوم بشؤونه ويرسل من قبضه حصة لا ينفرد بها بين الأقطار التي كانت تشترك في
دولة واحدة

• • •

ولا تنفصل مسألة الضرائب والإتاوات ومسألة الفتح في تقدير أحد من كتوب
عن هذه الفترة في تاريخ مصر وتاريخ الدولة الرومانية، فقد تفق المؤرخون
الاجتماعيون والناقدون العسكريون على أن النظام الإداري أو نظام الضرائب
خاصة كان له أثر قوي في تيسير الفتح من جانب المصريين. وعمر هذا الرأي
ناقد عسكري حديث رجع بالدرس إلى معارك الفتح على أحدث المبادئ
عصرية. وهذا الناقد العسكري هو القائد الهولندي رائد لتسييح الآلى في تركيب
لصق الحديثة، فإنه رجع فتوح الإسلام وعجب لاتفاق فتح حراسان وفتح
مصر في وقت واحد. ثم كان من تفسيراته لهذه الفتوح «أنها رد فعل على الحكم
الروماني الذي أرهق المصريين بالضرائب الثقيلة، وحجر على عقيدة القطر
الدينية»

بين الإمارتين

أشار عمرو بفتح مصر . .

وقام عمرو بفتح مصر . .

وكل فتح له تأمين وتمكين .

وقد قام عمرو بتأمين ذلك الفتح وتمكينه ، على نحو لم يسبقه إليه سابق من فاتحي وادي النيل في قديم عصوره ، لأنه أبقي لهذا الفتح أثراً حالداً في لغة الابد ودينه وفنونه ، فصنع مالم يصنعه فاتح قديم ، وقل أن يصنعه فاتح حديث . علم يعقل عن حدود البلاد بعد أن سلّمت له الإسكندرية وتتابع تسليم العواصم الأخرى لأعوانه ، ولاسيما الحدود التي يجيء لخطر من وهي حدود العرب والجنوب .

ولعله علم من مصر - إن لم يعلم قبل ذلك - أن تقاس القائد الروماني ، أغار على البلاد من غريبها فأحضرها ، وأن هرقل قد حدثته نفسه مرة بالرجعة إلى المغرب ليحكمه ، فراحاً من قس القسطنطينية ودسائسها ، وقد يفعل ذلك خيف من بعده فيصبح المغرب مبعداً لغارة رومانية قد يحشئ خطرها على الفصح الجديد ، وهو في أوائل سنواته

فتوجه في فتح المغرب حتى وقف عند تونس بأمر الخليفة . وعلم أن أهل مصر يخافون من مساكنة النوبة إياهم في بلادهم ويسألون حاكمهم أن يقصمهم عنها ولا يأذن لهم بطول لمقام فيها ، فوعدهم ألا يأذن بهذا المقام ، وسير الكنائس إلى مصر لخنوية يسود عنها النوبة ويحرس مداخل في حورته من أرضها .

وقد أنصف الخليفة عمراً وأحسن جرائه بتوليته على مصر بعد فتحها وتنظيم شؤونها ، على أثر الحروب التي أفسدت فيها كل صالح ، وبدلت فيها كل نظام ،

محرص عمرو جهده على مرصاة الخليفة واستنقاء رأيه فيه ، وكان من الولاة القليبيين الذين طال عهدهم بالولاية في خلافة الفاروق .

فيل بن الفاروق استوصف عمرًا مصر ، فكتب إليه يقول :

« إن مصر نربة عبراء ، وشجرة حصراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر .
يكتفها جبل عبر ، ورمل أعفر ، يحط وسطها هر ميمون العدوات ، مبارك
الروحان ، بحرى بالريادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر ، له أوان ، تظهر
به عبون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجز عجاجه ، وعظمت أمواجه ، لم يكن
وصول بعض القرى إلى بعض إلا في خفاف القورب ، وصغار ابراك ، فإذا
تكامل في ريادته مكس على عقبه ، كأول ما بدأ في شدته ، وطما في حدثه ،
فسد ذلك يخرج القوم لبحرثوا بطون أوديته وروايه يبدرون الحب ، ويرحون
الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه السدى ، وعده من
تحتة الثرى ، فعند ذلك بدر حلايه ، ويعنى دبابه فيبها هي يأمرير المؤمنين وره
يبصاء ، إذا هي عبرة سوداء ، وإذا هي ربرجدة حصراء ، فتعالى الله الصعان لما
يشاء ، والذي يصلح هذه الملاد ويبعيا ألا يقل نول حبسها في رئيسها ، وألا
يُستأدى حراح ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل حصورها
وترعها ، إذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال ، تصاعف ارتفاع امان .
والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل »

فإن لم يكن هذا الكلام من نص كلامه ، فهو من صميم رأيه وعيانه لا
مراء . والذي لا خلاف فيه أن الفاروق تلقى منه وصفاً لمصر يشبه هذا الوصف ،
ودليلاً على الدراية بها يشبه هذا الدليل ، وأن عمراً أخلق الناس أن يحذر في عهد
الفاروق « سعى الخسيس بالرئيس » وهو الذي يعلم أنه مستهدف لمثل هذا
السعى ، وأنه ملاق به شيئاً من القلق الدائم في ساحة الفاروق ، وهو اعظامي
الذي كان يتعصب للنسب تعصب المأخوذ بآريب ، ويتنى كلمة السفينة فيقول
« إن دهاب ألف من العلية أهون صرراً من ارتفاع واحد من السفلة » 1

وربما كان من الإعراق في الرجاء أن يطمع واد من الولاية في الإفلات من حساب القاروق ، بالغاً ما بلغ نصيبه من الخرص والإحسان . وإن أحق الناس أن يعلم ذلك فهو عمرو بن العاص . الذي يعلم حساب القاروق بولاه . ويسمع مراحته للمحسن منهم وللمسيء . لما تحسه ترقى بطمعه في هراة « ابن خنمة » - كما كان يسميه لسان العيظ ولإعجاب - بن أهد من البقاء في الولاية ، مع الأهبة الدائمة للجواب عن كل حيلة ودقيقة من أعماله التي تسمى إلى دار الخلافه . وقد ظهر بما أراد . وظل محورا بهذا الطهر بقية حياته ، يقول لمن لا يعجبه حكمه . إن القاروق قد مات وهو عنه راض ! وحمد الله أنه لم يحاسب في عهده بأكثر لما حوسب عنه . ومن مثله - فيما نقلته كتب السير

حسابه على مال الخراج ، وحسابه على غلطة طائشة لابنه محمد . وحسابه على إعداء عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب من بعض القصاص في حد الشراب !

كتب إليه القاروق في أمر خراج يعجب من قننه ومن « أن مصر لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك . على غير قحط ولا جذب » « فرد عليه عمرو في هجة شديدة وأهنة يعتم موقعها من نفس عمر . الذي لا يبالي أن يحاطبه الكمار والصغار مخاطبة لأنداد محفوظو مع ذلك حق الله وحق المسلمين وحمد عمر الكتابة إليه يؤسه على بطائه مع كثرة الكتب إليه ، ويقول له : « إلى لب أرضي منك إلا ما حق ابن . ولم أدمك مصر أحعلها لك طعمة ولا لقومك . وبكى ، جهنك ما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك » !

وطالت امكتنة بين الخليفة وواليه ، وتسيرت الأبناء بهشية من المتاع والرفيق والآية والحيوان ، فشت لعمرو في مصر لم تكن له قبل ولايها ، فعمد الخليفة إلى حزمه المعروف ، وأهد إلى عمرو أميه على العمال محمد بن مسلمة يعلمه به قد ساء به ظناً ، وأنه مقاسمه ماعده من « ابن » وحمل له مائتي دينار حرة عمله غير المعطاء الذي ربط له أسوة بالمجاهدين من المسلمين

أما حساب الخليفة له على غلطة انه محمد ، فحلاصته أن عمرو أخرى الخين ، فأقلت فرس رجل من المصريين ، فعصها محمد بن عمرو فرسه وصاح فرسي ورب الكعبة ! ثم اقترت وعرفها صاحب ، فعصت محمد ووثب على المصري يصربه بالسوط ويقول له جدها وأنا من الأكرمين وبيع ذلك أنا ، فخشي أن يشكوهما المصري فعصه رما حتى أهدت وقدم إن الخليفة يرفع إليه مظلمته فاستقدم الخليفة عمرو وابنه ، وقال للمصري ، دويك اندرّه فاصرب هـ من الأكرمين ؟ ثم قال له جلتها على صبعة عمرو . فوالله ما صربك إلا بفصل سلطانه فخرج عمرو ، واعتذر المصري قائلا قد صربت من صربي ! والتفت الخليفة إلى المصري يقول له : أما والله لو صربه ماحتا بيك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه . ثم إلى عمرو بن نعاص نقول تلك الكلمة التي تعد من حلائل الأعمال . ولا تحصى في جلائل الأقوال وكفى هـ أي عمرو ! متى ستعبدتم لناس وقد ولدكم اللهم مهنتهم أحرر هـ !

وقد حسبه على عشاء به أي من الخليفة : كما حسبه على عشاء به هو من الخراء الذي استحقه بالعدوان على بعض رعاياه فقد ذهب عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب إلى عمرو يبلعه انه شرب مسكر ، ويطلب إليه أن يعيم احد عيه فتعاصى قليلا . ثم ذن نحوه على أن يعي من حلق رأسه على مشهد من لعامة . فحاده التائب من الخليفة مع ليريد يقول فيه : عحت لك يا بن لعاص ولخرائت عني وحلاف عهدي . فآأرني لا عارلك فسيء عرلك . تصرب عبد الله في بيتك ولحق رأسه في بيتك . وقد عرفت أن هذ يعاصي ؟ إى عبد لرحمن دخل من وعيثك . تصع به مانصع بعيره من المسلمين هـ

وإن ولياً يتحو من الفاروق بهذا القسط من الحساب على هذه مسائل وأشاهها لمحمد بن الولاة !

قصي عمرو نحو خمس سنوات والياً لمصر في خلافة عمر بن الخطاب يتولى له إدارتها وحراجها والدفاع عنها ، ويساعده عبد الله بن سعد بن أبي سرح في ولاية الصعيد ودفاع النوبة .

وقضى عمر - فقام بالخلافة بعده عثمان بن عفان ، فشحص عمرو إلى المدينة يبايعه ويعرض عليه شئون ولايته ، ويتلقى أوامره فيها . وكان أكبر همه أن يسأل الخليفة الجديد عن عبد الله بن سعد من ولاية الصعيد ، لأنه ما من قوى حصور لا يطيقه رئيس مثله في القوة وخسارة ! فعز عليه هذا المطلب ، واقترح عليه الخليفة أن يتولى شئون الحرب ويترك لعبد الله شئون الحراج . فأبى ، وفرت نفسه من هذه المشاركة . وقال : « إلى إدد كمس يأخذ البقرة بقرنها ليحلبها غيره » وتعدر التوفيق بين المتنافسين ، فانهى الخلاف بإقالة عمرو . فقام عبد الله على ولاية مصر ، حربها وحراجها ، وكان ذلك حوالي سنة سبع وعشرين للهجرة .

والظاهر أن ولاية عمرو في مصر كانت على حطر مد مبايعة عثمان ، لأن رأى عثمان في طمع عمرو وسوء الظن به قديم . ولأن عبد الله بن سعد كان أحماً لعثمان في الرضا ، وهو كفو ضليع بالرياسة حرباً وإدارة ، وليس من دأب عثمان أن يعزل أقرباءه وإن لم يكن لهم من الكفاية والضلاعة ما كان لعبد الله .

وما لا ريب فيه أن حاشية عثمان كانت تنفس عني عمرو مكانه ، ونحشى منه الخطر الأكبر إذا رسحت في الديار المصرية قدمه ، وطل فيها قائماً بالأمر إلى أن يبعث الخليفة في الحرم ويؤذن عهده بانقضاء . فليس بعيد إدد أن يستقل عمرو بإمارة الديار ، أو يطمح إلى الخلافة . وليس بعيد كذلك أن يشترك في التحدير منه أناس كمروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان ولو لم يكن هؤلاء المقربين شأن في الكيد لعمرو لكات محاسبة عمرو على طريقة العاروق أجدى وأقرب إلى الطمأنينة على الحراج . ولكن مقاسمة الولاة في أمورهم بين حين وحين ، شيء

بماه ولاية الدونة الجديدة فأبسر من مفاضة عمرو في الخراج أن يسحق عنه أو يسحق عن الولاية بومنها . . وقد كان

وبعضهم م يؤجلوا عزل عمرو إلى حوالى سنة سبع وعشرين . إلا انتصاراً بمصر
«فنه التي نشئت في الإسكندرية . إذ انتقص الروم . وجاء المدد بحراً بقيادة
موبيل الحصى من القسطنطينية . فأمام أفضاب مصر بالخليفة أن يبقى عمرأ على
الولاية لتدريبه بالقوم وهيبته في نفوس الأعداء . لم تيسر من كهابة عبد الله بن
سعد في كهاح الروم بأفريقية ما عرر مقامه وأبطل تلك الحجة ، فصحت له
الولاية ، ورشحه للقيام على الخراج وهرة المال الذي جمعه من الديار الأفريقية
المفتوحة

ما أثر عزل في نفس عمرو فلا يصعب إدراكه . ولا حاجة به إلى
الأحبار والأسايد . فليس عمرو بالذى يحتل هذا العزل أو يسكن إليه
ويس هو بالرحل الذى يثور في غير موضع بشورة . أو يأخذ في انتقام لا يثق
بإنصاده وسلامة عفاه عليه ! فقصره أن يربص الدوائر بالعهد كله . وأن
يرقب يومه لئلا يعلم أنه ات لا ريب فيه ! وقد رقب . واحتار لنفسه مرصد
لرقعة فأصاب اختياره ترقب في بيته بملطية . حيث تعرف السبل بين
الحجاز ومصر والشام والعراق . وحيث يحرس من محرض من عاون تلك السبل
وهو آمن جهد ما يتاح له الأمان ورعنا رحل بين الغين والحين إلى مكة أو المدينة
ستطلع ويسوثق ويدفع الحوادث إلى الطريق الذى يرتجبه . ثم يفعل بن ميثاقه
لأمير كلبان الذى يحتبى بسميته والرياح عاصفة والأمواج راحرة حارقة .
ربما تنجلي العاشية عن مهج الرياح أن تتجه على استقرار . فيوليه شراعه
ويستدير إليه

ووشى به الوشاه إلى الخليفة . فاستدعاه . وأعطى في شتمه . وراح يرميه
ويقول له بأحد لسان وأشد « يا ابن سابعة أنتقص على وتأنى بوجه
وتذهب على بوجه آخر ؟ » فتصل عمرو وقال . « بن كثيراً مما يقول الناس

ويقتلون إلى ولائهم باطل فانس الله يا أمير المؤمنين « معاد الخليفة يقول
 « استعملت على ظلمك وكثرة القاة فيك » فثار عمرو إلى فخره لقديم
 « لقد كنت عاملا لعمر بن الخطاب . ففارقني وهو عبي راص » قال عثمان
 « لو أحدثك بما أحدثك به عمر لاستغفرت . ولكي لست عليك فاحترأت »
 ومع هذا كان عثمان يبعث إليه فيستشيره كلما أعيته الخيلة وعدته خيره في
 حكومته ! فكان يصححه بما يعلم به لا يصيره ولا يمنع الخليفة يقول له «
 أرى أن تروم طريقة صاحبك - أي العاروق - تشتد في موضع الشدة وتلين في
 موضع اللين وبن الشدة تسعى من لا يأو الناس شرا . واللين لمن لا يخص
 بالنصح . وقد فرشتهم جميعا باللين » !

وبن عمرو بن العاص لأول من يعلم أن طريقة عمر لا تصلح لها غير عمر .
 وأنه مكلف عثمان شططا حين يركبه من هذا الطريق . وهو الذي قال له عثمان
 يوما : « لقد أمرت هذا الله بن سعد أن يتح أثرك » فقال « لقد كلفته
 شططا » !

وتدرج في الحرأة على عثمان . كلما تدرجت الفتنة في انتقامهم والاستعمال
 في مجلس الشورى الذي جمعه عثمان سأل « ما رأيك ؟ » فلم يبال أن يجبه
 أمام صحبه « بك قد ركبت الناس مثل بي أمية . فقلت وقالوا . ررعت
 وراعوا . فاعتدل أو اعرجل . فإن أبيت فاعتزم عرما وامص قدما » . ولكنه
 احبرا هنا وأبقى للحيفة بقية . فانتظر حتى تفرق المجلس . وحلا بالخليفة فأقبل
 يعتذر به بينه وبينه : « لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ،
 ولكي قد عمت أن باناب قوما قد علموا بك جمعنا لشير عليك ، فأحب
 أن يلعمهم قولي فأفود لك خيرا وأدفع عنك شرا » !

كان يقول هذا وأشياهه . وفي دولة عثمان اسل يصعب يوما بعد يوم ، فلما
 أوشتك هذا لأمل أن بعد صاح به في المسجد « انق الله يا عثمان ! عليك قد
 ركبت أمورا وركبناها معك . فتب إلى الله تب » !

ثم ترك الفتنة وأوى إلى مينائه بمطسعين . يثلق الركبان ويسأل منهم كل عابر
بمنعه سؤاله . فمر به راكب من المدينة فاستحبره خبر عثمان فقال : « محصور ! »
ثم أعقبه راكب آخر فقال : « قتل عثمان » . فيروى رواية الخبر أنه صاح يومئذ
« أما أبو عبد الله . إذا بكأت فرجة أديمها » ثم قال : « والله إني كنت أنفي
لراعى فأحرضه على عثمان » !

• • •

وبويع على بن أبي طالب بالخلافة فلم يبصره . ولم ينصر أحدا من حصومه .
وبث يرقب وينظر . حتى انحسر المبدأان عن خصمين اثنين هما : علي .
ومعاوية بن أبي سفيان . بعد أن راب عنه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام .
فوجب أن يختار له طريقا من الطريقين . لأنه لو آثر الاعتزال لم يتركه
الفرقان في عركته . ولم يزل به أحدهما حتى يستدنيه إليه

شاور معاوية أصحابه . فأشار عليه عتبة بن أبي سفيان أن يستعين على أمره
بعمرو . وأن يثمن له بدينه . قال : « فإنه من قد عرفت . وقد اعتزل أمر
عثمان في حياته . وهو لأمرك أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة » . فكتب له معاوية
مطسعين : « أما بعد . فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك . وقد
سقط إليا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة . وقدم إليا حرير بن
عبد الله في بيعة علي . وحسنت نفسي عليك حتى نابى . إقل إذا كوك أمورا
لا نعدم صلاح معتبا إن شاء الله »

فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمدا فما يصح . فقال عبد الله : « قتل
عثمان وانت عنه عائب . ففروا من تلك . هلست محمولا حليفة . ولا تريد أن
تكون حاشية لمعاوية على ديار قليلة أو شك أن تهلك فشيء فيها » وقال محمد :
« إنك شيخ فريش وصاحب أمرها . وإن تصرم هذا الأمر وانت فيه حامس صعر
أمرك . فالحق بجماحة أهل الشام فكأن يدا من أيديهم . . . »

قال عمرو : « أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنيائى ، وأما باطرهيه » .

وروى أنه قلب رأيه فى الأمرين فقال : « بلى إن أتيت عليا قال إنما أنت رجل من المسلمين ، وإن أتيت معاوية يخطبني بنفسه ويشركني فى أمره » .

ولكنه ظل يتردد إلى ساعة السفر بعدما عرض له أن ينضوى إلى جانب الشام ، فدعا علامه وردان فقال : « ارجل يا وردان ! » ثم صاح به « حمل يا وردان » . فقال له وردان ، وكان كما وصفوه داهيا ماردا . « خطبت أبا عبد الله ! أما إنك إن شئت أبأتك بما فى نفسك » قال . « هات وعك ! » قال : « اعركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىّ معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض من الدنيا ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس فى الدنيا عوض من الآخرة فأنت واقف بينهما » . قال . « والله ما أخطأت ، فما ترى يا وردان ؟ » قال . « أرى أن تقيم فى بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت عند دينهم وأن ظهر أهل الدنيا لم يستمعوا بك » . فتأمل فى قول علامه مليا ، ولكنه لم يقبل القرار فى بيته بعد دعوته ، وعول على المسير فصار .

• • •

ومن ثم قصد إلى معاوية بالشام . ولم تكن بين الرحلين من قبل مودة ولا صحبة ولا مشاركة فى متعة ، بل رما كانا إلى التافس والتناهر أقرب منهما إلى المودة والصحبة .

حدث أبو حاتم أن معاوية « قدم من الشام ، وعمر بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسألتهما عن أفعالهما إلى أن اعترض عمرو فى حديث معاوية ، فقال له معاوية « أعملى نسيب وإلى تقصد ؟ » . هلم تخبر أمير المؤمنين عن عمى وأخبره عن عملك » . قال عمرو « فعلت أنه بعملى أنصر منى بعمله ، وأن عمر لا بدع أول هذا الحديث حتى

يصير الى آخره ! فأردت أن أفعل شيئاً شعل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدي فصمت معاوية ! فقال عمر : « تالله ما رأيت رجلاً أسعه ميت » . قم يا معاوية فاقصص منه . قال معاوية : « إن أبي أمرني ألا أقصي أمراً دونه » . فأرسل عمر الى أبي سفيان ، فلما أتاه ألقى له وسادة ، وذكر حديث رسول الله : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » . ثم قص عليه ماجرى بين عمرو ومعاوية فقال : « لهذا بعثت إلي ؟ أخوه وابن عمه ! وقد أتى غير كبير ، وقد وهت ذلك له ! »

وأول ما في هذه الرواية ومثيلاتها أن المناصة بين لرجلين كانت ملحوظة لا غربة فيها ، وهي في موقعها من ولاية الشام وولاية مصر أشبه شيء أن يكون

ويؤخذ من حديث روى عن عبادة بن الصامت أن الاجتماع بين معاوية وعمرو كان من بؤادر الأشياء ، وأن اجتماعهما كان في رأى الأحيار من علامات الأخطار . فلما قدم عبادة بن الصامت عليهما وهما بالشام ، جلس بينهما ثم سألهما : « أتدريان لم جلست ببيكما في مكانكما ؟ » قالا : « نعم ، لفصلك وسابقتك وشرحك » قال : « لا والله . ما جلست ببيكما بذلك ، وما كنت لأجلس ببيكما في مكانكما ، وبكى بيا نحن سير مع رسول الله ﷺ إذا نظر إليكما نسيان وأنتما تتحدثان ، فالتفت إلينا فقال : « إذا رأيتكما اجتماعاً هربوا بيهما ، فإنهما لا يجتمعان على خير أحد »

وفي صحة هذا الحديث نظر ، وبكها أحجار يدل على مبلغ الصلة بين معاوية وعمرو ، وأنها لم تكن من الوثافة والغرب بحيث تجمع مثل هذا المقال

فعاوية لم يستقدم عمراً لصداقة وصحبة قديمة !

وعمر لم يقدم على معاوية لشيء من ذلك

ولكهما رجلا طموحان أريبان ، مثلها لا بعدى إذا كان له في الصداقة مع ، ولا يصادق إذا لم يكن له في الصداقة أرب ، وإن أهرب الناس عنهما

لوشيك أن يقصى إذا أقصته النعمة ، وإن أنصاهم لوشيك أن يستلنى إذا كان فى بعله ضرراً

فهما ملتقيان على تفاهم صريح بلسان المقال ، أو صريح بلسان الحال . وقد عرفنا ولا جدال على أى وجه يتفاهمان منذ كتب هذا وأجابته ذلك .

زعموا أن المساومة جرت بين الرحلين أول ما التقيا ، فسأل معاوية عمراً أن يتبعه ، فأقبل عمرو يسأله : ماذا ؟ بالآخرة ؟ هو الله ما معك آخرة ! إنما هى الدنيا تكالب عليها ، فلا كانت حتى أكون شريكك فيها . وأخذ معاوية يذكر بملاة على على قتل عثمان ، وأنه أظهر الفتنة وفرق الجماعة ، فقال عمرو : إنه وإن كان كذلك فإن المسلمين لا يمدون به أحداً ، وليست لك مثل سابقته وقرابته . ثم عاد يسأله مرة أخرى ، فسأل معاوية : ولكن ما لى إن شأبتك ؟ قال معاوية : حكمتك . قال عمرو : اجعل لى مصر طعمة ما دامت لك ولاية فتلكأ معاوية ولم يجبه . وحذر عتبة بن أبى سفيان العاقبة ، فحذرهما معاوية وهما نه لائما . أم رضى أن تشرى عمراً بمصر إن صفت لك ؟ فبيك لا يعلب على الشام .

فرضى بالصفقة ، واتفقا عليها .

وليقول الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا فى صدق هذا الحوار ، وصحة هذه الكلمات ، وما ثبت بقبه وما لم يثبت منه سنده ولا نصه ، فأنذى لأرب فيه ، ولو اجتمعت التواريخ قاطبة على بقصة ، إن الاتفاق بين الرحلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على المثلث والولاية ، وإن المساومة بينهما كانت على الصبيب الذى آل إلى كل منهما ، ولولا لما كان بينهما اتفاق .

فكان معاوية يطمح إلى الخلافة يتولاها ويورثها أعقبانه من بعده .

وكان عمرو يطمح إلى ولاية مصر جامعة ، وهى عنده تعدى الخلافة ما لم يكن إلى الخلافة سبيل ، ويرجو أن يصم إليها الشام وأن يترك ولايته ميرانا من بعده لولده عبد الله .

ومثل هذا الاتفاق أقوى اتفاق ، ولكنه قد يتغلب في حالة من حالاته فإذا
هو أضعف اتفاق وأقربه إلى النقص والانتقاص .

فن سر القوة فيه أن يعمل الرجل لصاحبه كأنه يعمل لنفسه ، ما دامت
وسيلته من وسيلته ، وما دامت لها غاية واحدة يتلاقيان عندها !

ومن سر الضعف فيه أن الشريك هنا هو أعدى الأعداء وأولى للمنافين
بالتخلص منه إذا أمكن وجه الخلاص ؟

وقد أعادت على هذا الاتفاق أمور كثيرة أهمها أمران : وهما أن عمرًا لم يكن
على أمل في ناحية أخرى ، فإذا فسد الأمر على معاوية فسد الأمر عليه . وإن
معاوية كان يعلم أنه يساوم شيعة يهدف إلى التنازل ويوشك أن يودع دنياه . فما
ربحه منه فهو دأب له ، وما خسرته في مرصاته صائر إليه .

على أن عمرًا من حنائه كان رجلاً ممتلئاً بالحياة في شبحوته ، حريء
المطعم مابى في الدنيا مطمع بشحابل بين عيبه ، فلم يكن يبأس من اختلاف
نفسها ، ولم يستبعد قط أن تسح له ساعة من طوارئ القدر يعلب فيها معاوية
على عرش الدولة التي شاركه في تأسيسها ، ربما أخلص معه العمل في هزيمة
على بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولكنه لم يخلص معه العمل في تمكيده كل
التمكين حتى يستعنى عنه ويتعبر له ، وشئت في الخلافة ثوبًا لا مطمع بعده
لطامع

فقد كان بعض ناصحه لمعاوية شديد المرمى قبل هزيمة على رضي الله عنه ،
ولكنه كان منها في كل نصيحة أقل - إلى معاوية بعد تلك الهزيمة ، وكان
ظاهراً من ناصحه في جعلها إنه أراد أن يثير عليه العداوت وأن يوعر عليه صدور
الصحابه ويركه مشغولاً بحرف العنة أو وقعاً في أوهاقها ، وهو إذن أقرب قريب
من الخلافة مني رال معاوية عنها ، ولا سيما إذا طال عهده بولاية مصر وجمع في
يديه الأموال ومن حوله من لأنصار وطمعين في لوائ

من مصالحه التي لا بدفع مثله فيها ندفع العجبية ، حاجبيه وحدها ، أنه
 حصر مجلس معاوية وحاجبه يستأذن لو هود الأنصار فقال ، ما هذا اللقب يا أمير
 المؤمنين ؟ اردد القوم إلى أسابهم ! ثم قال للحاجب احرح فقل من كان همد
 من ولد عمرو بن عامر فيدخل ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار
 فطر معاوية إلى عمرو نظرة منكرة وقال له ، باعدت جدا ؟ فقال ، احرح فقل
 من كان همد من الأوس والخزرج فيدخل ، فخرج فقلها ، فدخلوا يتقدمهم
 السهمان بن بشير الأنصاري وهو يقول

يا سعد لا تُجِبْ الدعاءَ لنا سُبُّ نَجِيبٍ به سوى الأنصار
 يا الدين تَرَوُا سِدرَ مِكم يومَ القليب هم وقود النار
 فجعل معاوية يقول ، لقد كنا أعياء عن هذا .

وأشار على معاوية بقتل أسرى صفين من جماعة علي ، وقد أطلق على أسراد
 من جماعة معاوية وهي مشورة لاتنفع معاوية شيء ، وبحسب عليه العار لا
 محانة ، وتنصه عرصا لكل مطالب برة ، في أمة لا تُنسى بينها الترات !
 وعلى ما في طبع عمرو من الحيلة ، والخنوح إلى المصالحة واستئلال
 الأصعاد ، لم يكن يصدر عن هذا الطبع في مشورته على صاحبه بعد وقعة
 صفين . فما شارره معاوية في أمر عبد الله بن هاشم ، أشار عليه بقتله ، وعميت
 حين خالعه معاوية ، فقال بعد ذلك من أبيات :

أليس أبوه يا معاوية الذي أعان عليًا يومَ حرِّ العاصِمِ ؟

وأشار كذلك بقتال قيس بن سعد في جيشه الذي كان معه من نقابا حرب
 على ، بعد تروى ابنه الحسن عن الخلافة ، وكان قيس رجلا صعب المراس ،
 مقداما عن الخطر ، لا يؤمن قتانه ، والدولة الأموية في أوائلها بين الشك
 وليقين فأعرض معاوية عن مشورته ، وبدل الأمان لقيس ومن معه ،
 وأرصدهم بالمصانعة والعطاء .

ولم يكن معاوية بسلط معه غير هذا المسك ، أو يصمر له غير هذا الصمير
فكان يحنى به ، ويحسه معه على سريره ، ويظهر له الركول إلى رأيه والمشاركة في
أمره ، ثم يقبل منه ما يقبل ، ويمضي على بيته التي ينزلها . وقد هم أن يحلف له
مواعده من ولاية مصر ، لولا أنه توقع الشر منه ، وعم أنها ولاية عام أو أعوام
فلا تل ، لم تصير إليه بعصيا من يشاء . وقد مات عمرو بعد أعوام ، فصم معاوية
خزائن أمواله إلى بيت المال ، وخالف رجاءه في تولية ابنه عبد الله مكانه ،
وأُسند الولاية إلى أخيه لأبيه ، حسنة بن أبي سفيان .

ورعنا نقل عنيها وقَرَّ الرباء ، فتصارحا على الطوايا صراحة هي أشبه
بالصرع الذي يجمع فيه اسدان بين اللعب والخصومة . سأله معاوية وهو في حانة
من حالات النعمة والطمع : ما أعجب الأشياء ؟ فقال : أعجب الأشياء علة
المبطل إذا اُحق على حقه ، فما أنطأ معاوية أن ردها عليه قائلا : بل أعجب من
هذا أن تعطى من لا حق له بحق ، من غير علة !

ورعنا داعب معاوية في أمر آخرته ودياه مداعبة الرجل الذي يعلم أن المداعبة
ها مقبولة ، لأنها في الخط سواء . قال له يوما : لقد رأيت الناحية في المنام
كأن القيامة قد قامت ، ووضعت الموازين ، وأحضرت الناس للحساب ، فظرت
إليك وأنت واقف قد ألحمت العرق ، وبين يديك صحف كأنها ثل الجبال .

فعاجله معاوية سائرا - وهل رأيت في الميزان شيئا من دبابير مصر ؟
ودخل على معاوية في محسه ، فصحت معاوية حين رآه . قال عمرو
« ما يصححك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سبك ؟ » قال : « أضحك من
حضور دهنك عند إبدائك سوءتك يوم أني طالب . أما والله لقد وافقته مائاً
كرهما . وبو شاء أن يفتك لفتك » فلم يبرح عمرو أن أشركه معه في عاره .
وحمل يقول له ويمس في وصف مزعه . « أما والله إنى لعن يمينك حين دعاك إلى
البرار ، فاحولت عيبك ، وربما سخرت أي صدرك . ودد منك ما أكره ذكره
لث ، فن نفسك فاضحك أو دع » .

فالمرجلان كانا هما بينهما على صراحة ونقاها واحتراس .

وكانا يعلمان ما يريدان ، ويعلمان أنهما لا يتعاونان لأشياء على ثقة من إخلاص كل منهما لصاحبه وإيثاره لنعمة ، ولكيما يتعاونان لأن التعاون أصبح لهما من التبادل والشقاق ، ولن يتعاونوا إذا تبدلت الحال وأصبح لهما أو لواحد منهما نصيب في تبادل أو شقاق !

وكان يهين أن هزيمة على هي سبيلها معا إلى ما يريدان فعملا متفقين ، ولعلها عملا مخلصين لتحقيق هذه الهزيمة . وكانت معونة عمرو لمعاوية في نصاله مع عليّ كبيرة خطر ، محسوسة الأثر ، في مآرق كثيرة ، ومعصلات متوالية ، أهمها حرب صفين ، ومؤتمر التحكيم ، وانتزاع مصر من ولى على وأتباعه فيها ، وهم غير قليلين .

وكانت جهوده العظيمة في حرب صفين جهود الداعية المخلص ، لا جهود لمقاتل المستنصر ، فكان يثير حفاظهم ، ويستدرج الأنصار بالأطباع ، ويمحو الوسوس والشكوك التي تثير عرائم القوم عن القتال ، ويشيع الفتاوى التي قبلها من هو مستعد لقبولها ، ومنها حين قتل عمار بن ياسر - إن أصحاب معاوية تلججوا فيما بينهم ، وسارهم الريب في حقهم ، لأن النبي ﷺ كان يقول عن عمار : « تقتله الفئة الباغية » . فكان عمرو بن العاص ، في أشيع الأقوال ، هو الذي حسم هذه الشكوك قبل استمعهاها ، فقال : إنما قتله من أخرجته قبلها الأنصار ليستعدوا لقبول أمته هذه التأويلات .

وكان على بعضه لعثمان أسبق الناس إلى التجمع لمقتله والتحريض باسمه ، فإذا هدأت ثورة النفوس فإن لمعاوية « حرك لها حوارها »^(١) نحو « أي عنق هم ليس عثمان المحضوب بلعائنه ، لأنهم إذا رأوه حاجت أحقادهم ، كما تدر الباقية إذا حركوا لها حبل حوارها !

(١) الحوار ، بضم الحاء وقد تكسر ، ولد الناقه ساعة نصحه ، أو إلى أن يفحص من أمه

وجاء كذلك في أشيع الأقوال أنه هو الذي أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح ، ودعوة أنصار على إلى تحكيم كتاب الله فيما عمل بهذه المشورة وقعت الفتنة في جيش على ، بين قاتل بالمضى في القتال ، وقاتل بإجابة القوم إلى التحكيم ، وأوشك الفريقان أن يدعيا جيش معاوية ويشنكا بينهما في حرب ، أو يبطش جماعة منهم بالامام على نفسه ، إذا هو لم يأمر شيعته المقربين بالكف عن حرب وإلقاء السلاح

وإذا صح ما يعزى إلى هذه المشورة من الأثر الحسيم في تمكين معاوية وحلّال على ، فهي كلمة أفع من جيش ، ومكيدة أمضى من قوة ، وهي خبيقة أن تعبى في حرب صعب عن جهود الشجاعة والاستبسال . إذ الواقع أنه لم يكن في تلك الحرب عهد من جهود الشجاعة والاستبسال ، ولم يذكر أحد من حرره أنه برز في ميدان قتال ، مع أن الحرب في تلك المعركة خاصة كانت حرب برار ونزال . أما حصومه فقد ذكروا له تلك الفعلة التي سارت بها الأمثال بعد ذلك ، وأصبح من الأقوال الشائعة عن كل من يرد المكروه بالمهانة أنه رده « كما ردها يوما بسوته عمرو ! »

ويظهر أن حصومة ومناصيه كانوا يلحطون منه التقاعد عن مخاطر البر ، فقال الحارث بن نصر الجشسي من أبيات :

يس عمرو بشارك ذكرة الحرب مدى الدهر أو يلاق عليا
واضع السيف فوق منكبه الأيمن لا يُحسب العوارس شيئا
ليت عمر يلقاه في حتمس النقع وقد صارت السيوف عصيا
فرعموا أن عمر تعبط من قوته ، وأقسم : « لو عمت إلى أموت ألف موة
لأردت عليا في أول ما ألقاه »

وكان على رضى الله عنه كثيرا ما يتقدم بين الصعوف دحيا إلى المبادرة . فبدا له يوما أن يدعو معاوية لمباررته ، فأبها غلب فالأمر له ، وتغنق دماء الناس ، فنادى يامعوية ، يامعويه ، فقال هذا لأصحابه . أسألوه ما شأنه ؟ قال أحب أن يبر لي فأكنمه كلمه واحدة . فبرر معاوية ومعه عمرو ، فلما قارباه لم

يلتفت إلى عمرو وقال معاوية ، ومثت ا علام يقتل الناس بيني وبينك ؟ ابرر إلى ، فأبنا قتل صاحبه فالأمر به . فالتفت معاوية إلى عمرو فقال . ما ترى يا أبا عبيد الله ؟ أبارره ؟ فقال عمرو : لقد أنصفت الرجل ، وأعمم أنك إن مكنت عنه لم تزل سئة عليك وعلى عقيك ما بنى عربى فقال معاوية : يا عمرو ! ليس مثلى يجذع عن نفسه . والله ما بارر ابن أبى طالب رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه . ثم تلاحيا . وعزم معاوية على عمرو ليخرج إلى على ، إن كان حاداً فى صحبه ، ولم يكن معروا به طمعاً فى مآل أمره . فلما خرج للمساوزة مكرها وشد عليه على شدته المروية . رمى عمرو بنفسه عن هرس ، ورفع ثوبه ، وشعر برجله فبدت عورته ا فصرف على وجهه عنه . وقام معترأ بالراب هاريا على رجله ، معتصبا بصمومه .

وليس فى هذه القصة من موحى بلشك فيها إلا أن عمراً كان أشجع من ذلك فى معارك كثيرة قبل هذه المعركة ، ولكنه شئت ضعيف غير قاطع فى إنكار القصة بمخادعها ، لأن عمراً لم يبارر قط رجلاً فى قوة على وبأسه ، ولم يكن قد دلف إلى الثنائين وهو يحارب فى المعارك الأخرى ، وهم من ذلك أنه كان يحارب فى تلك المعارك ، وله أمل فى الشهادة ونعيم أخرة ، وإيمان بحقه وباطل خصمه ، ولكنه لا يحارب على وله أمل فى الشهادة قاتلاً أو مفتولاً ، أو ثقة بالحق تعوصه من حسارة الدنيا . وليس بالعجيب من طبيعة عمرو أن يلود بالحيلة ، غير حافل بمقال الناس إذا حاف على حياته ، ويقى من ضياع دينه ودياره .

ومها يكن من مبلغ المصنف فى هذه الرواية ، فالتفت عليه بين ولاته وعداته أنه اشترى صفين بجهاد الحيلة والدعوة ، وم يشهر فيها بجهاد السانة والبلاء أما جهوده فى مسألة التحكم^(١) بين على ومعاوية ، فقد أفادت معاوية

(١) يشئت بعض المؤرخين المحدثين فى مسألة التحكم ، ويدكرون لذلك أسابا ليس فيها سب واحد يعادى الرويات التى تؤيدها

بالمطاوله والمرأغة أصعاب فائدتها إياه بالنتيجة التي انتهى إليها قرار عمرو وقرر
أنى موسى الأشعري ، لأن تطاول الأيام أعان على تفريق جيش على وتديد
شمه ، وشيوع اللغط بين طوائفه وأصحاب المذاهب المعايه من المتحريين عليه ،
ولاسيا الخوارح والقاتلين بتحريم القتال ، وكل ما أعان على تفريق جيش على فهو
معين على تحرير جيش معاوية ، وتقريب طلاب المعاصم ونباع العرص من دوله
وسلطانه

وقد اختار معاوية عمراً لتحكيم وهو لا يأمنه كل الأمن ، وربما كان
اطمئنانه إلى أنى موسى الأشعري صاحب عى أكبر من اطمئنانه إلى صاحبه
ووكيله . لأن أبا موسى كان يجهز باجتناب القتال واعتزال المريفين ، وكان
اختياره على الكره من على ، وعلى هوى الأشعث بن قيس ، الذى كان منها
بالتخذييل من على ، وترويج كل رأى يرصده معاوية ، ولاسيا بعد ريادة قيس
لمعاوية في إبان معركة صفين .

والذى حدث في أوائل المفاوضات حقيق أن يسوع قلق معاوية واستراته في
نيات صاحبه ووكيله ، فإنه قال لأبى موسى : ما يبعث من أبى عبد الله مع
قصه وصلاحه وقديم هجرته وصحته ؟ فقال أبو موسى : إن اسلك رجل
صديق ، ولكنك غمسته في هذه الحروب صمما .

وطالت المفاوضة . فأوجس معاوية وعظم حوجه ، وجاءه داهية العرب
المعيرة بن شعبة فألقاه قلقا يتسمع ويستطلع . فقال له : قد أتيتك بخبر الرحيل
قال معاوية . وما خبرهما ؟ قال المعيرة : إلى حنوت أبى موسى لأحلوما عنده ،
فسألته : ما نقول فيمن اعترف عن هذا وحسن في بينه كرهية بدماء ! فقال
أولئك حيار الناس ، حمت ظهورهم من دماء إخوانهم ، وبطوهم من أموالهم
فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ! ما نقول
فيمن اعترف هذه الحروب ؟ فقال : أولئك شرار الناس . لم يعرفوا حقا ولم ينكروا
باطلا .

ثم عقب قائلا . أنا أحسب أبا موسى حالما صاحبه وجاعلها لرحل لم يشهد ، وأحسب هو في عبد الله بن عمرو بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيطلبها نفسه أو لابته عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه .

والذي نراه نحن كذلك أن عمراً لم يكن ليظن أن معاوية أحق بالخلافة منه ولكنه كان أكيس من أن يطلب الخلافة له أو لابته باتفاق رأيه ورأى أن موسى الأشعري ، دون ما يستنزمه طلب الخلافة من اخيه والدولة والعصية لئلا عساه أن يعم بالاتفاق مع الأشعري على المباينة لابته عبد الله ؟ إنه يحسر عصف معاوية ، ولا يكسب أحدا من أنصاره ، ولا يصل هو ولا ابنه عبد الله إلى مأرب وإنما يعتقد أنه ذكر سم عبد الله ليعرر بأبي موسى ، ويبقى في روعه أنه غير جاد في خدمة معاوية ، وأنه يعمل لنفسه ولأعقابه من بعده . وقد أصابت هذه الحيلة عمرها ، فصدق أبو موسى أن عمر بن الخطاب يجمع معاوية ، وأنه إذا قام على المنبر ليخلع عليا ، قام عمرو من بعده فحط معاوية ، وترك الأمر شورى ليطفر به ابنه فيما يرضيه . فلما اتفقا على حلق الاثنين ، وأن بدأ أبو موسى يجمع صاحبه ، قبل هذا الاتفاق ولم يتردد في إيماده ، وهو بحسب أن خذلان عمرو لمعاوية غير بعيد ، مادام يطمع فيها لنفسه من طريق الدعوة إلى ابنه

وإن جهد عمرو في مسألة التحكم لجهد يسير عليه ، ولكنه حقيق من معاوية

بجزء غير يسير

ولقد تطلع عمرو لهذا الجزء الذي طاب اشتياقه إليه ، وهو ولاية مصر جامعة موروثة في عقبه ، فاطله معاوية رمنا ، واستكثر عليه هذه « الطعمة » لتي اشتهاها ، وأسرى نفسه إذا هو رضى له بشيء منها أن يرجع فيما أعطاه بدرية من الدرائع التي لا تعيبه . فكتب في وثيقة نصالحا عنيا إلى ولاية مصر لعمرو « على ألا سفص شرط طاعة » ، وهو يريد أن يتعلل له بالخروج عن طاعته

فيظل شره ، ومضى عمرو لما وراء هذا « القيد » المقحم في الوثيقة فأكره ،
وكتب . « على ألا تنقص طاعة شرطاً » يريد أن الطاعة لن تكون معاوية
الرجعة فيما اتفقا عليه .

وكان معاوية يتهم عمراً بالعجلة كلما ذكر له مصر وأغراء بالرحف إليها
فجمع حاصته يوماً يسألهم هل تدرون ما أدعوكم إليه ؟ قالوا . لا نعم العيب
إلا الله فقال عمرو « نعم » أهتت أمر مصر وحراجها الكثير ، وعدد
أهلها ، فتدعوننا لشير عبيك فاعزم واسهم . في افتتاحها عرك دعر أصحابك
وكتب عدوك » ، فقال له معاوية يا ابن العاص ! بما أهتت الذي كان
يسا ، يعني طعمة مصر ، وانتفت ل صحبه يستشيرهم ماترون ؟ عوافقوا
عمراً ، وعاد هذا بقول « نعت جيشا كثيفا ، عليهم رجل حارم صارم تثق به
فيأتي إلى مصر ، فإنه سيايته من كان من أهلها على رأيا ، فيضامره على من كان
بها من أعدائه » ، فحالسه معاوية وقال له . « بك يا ابن العاص ، يورث
لك في العجلة » .

غير أنه لم يلبث أن تلقى من أنصاره بمصر كتابا يستحثه إلى عروها ، ويسأله
« أن يتعجل بحيله ورجله . فإن أعداءنا قد أصبحوا لنا هائلي »

فندشد قل بصيحة عمرو ، وأشخصه على رأس جيش عدته ستة آلاف
رجل ، وخرج يودعه ولا يراى يحدده العجلة . ويوصيه بالرفق « فإنه يمس ،
والعجلة من الشيطان » .

ولولا الكتاب من أنصاره بمصر لقد كان معاوية يؤثر أن يفتحها له أولئك
الأنصار ، وأن يولى عبيها رعيها من رعيائهم ، وله الحجة الناهضة في ذلك ، إذ
كان القائد المنقلب على البيت أولى بولايته من الطارق الوعل الذي يقبل عبه
ليبارعه ثمة جهاده .

على أن مصر لم تكن إلى ذلك الحين طعمة سائمة ، ولا طعمة عصية ، فقد

كان فيها محمد بن أبي بكر لا يرد والياً عليها من قس على بن أبي طالب ، وكان قد ولّاه حكمها بعد عزل قيس بن سعد ، أقدر رجاله وأخبرهم بشئون الولاية والسياسة ، فكان قيس وهو يسلمه مقاليد الأمر : « ليس عزله إياي كما يعي أب أصبح لث وله . وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وأنا أدبث على الذي كنت أكاد به معاوية وعمراً وجماعة العثمانية المقيمين بحربنا ، فكابدتهم به ! » إلا أن محمد بن أبي بكر لم يستمع له . واستعشه ، وبطش بالعثمانية بطشة عبيمة ، فثاروا عليه ، وثار معهم من لم يكن على رأيهم ، وأبوا أن يقيموا على حكمه ، فصالحهم آخر الأمر على أن يحقوا معاوية في الشام ، فحق به العلاء منهم . وبقيت هم بقية تطوى على مصص وتزبد الفرصة ، وتزداد أملاً . ويرداد الأنصار من حوها كلما نصاء أمر على ونعاطم ملك معاوية

فلما أقبل عمرو بنى مصر قبل عليها فحاً قبل أن ينالها وابتاً مكين الولاية ، وكان « عمرو الفاتح » يعمل معاوية كمن يعمل « عمرو الوائى » إذا لم له الفتح كما اشتباه

وأوشك الفتح الثانى أن يكون نسخة مكررة من الفتح الأول عمرو يستعجل عمرو مصر ويتهم بالعجبة ، ثم يدخل مصر وفي حكومة وشعب لا يتعمقان . ثم يسلك الطريق الذى سلكه أول مرة ، ثم يلتقى بجيش محمد بن أبي بكر ، كما التقى بجيش الرومان من قس ، في حيرة طليس ، على مسافة قريبة من الوقعة الأولى عند قرية تسمى المشاه

أما محمد بن أبي بكر فقد دافع عن مصر دفاع المستميت ، وصعد لأنصار معاوية المقيمين والقادمين صمود لأبطال ، ولكنه أحقق في دفاعه ، لأنه لم يلبث أن رأى حدوده يتفرقون عنه ، يأساً من الدولة المولية ، وأملأ في الدولة المقللة ، ثم تعقبه أعداؤه حتى طفروا به قتلوا به شر تمثيل !

ومن الإنصاف لمصر أن يعلم أنه كان يرى اليد في هذه المشنة الدميعة ، فقد

كان عمرو يشير على معاوية بقتل الأسرى والنفقة من أصحاب عليٍّ ، حيث كان معاوية هو المستول على قتلهم والنفقة منهم فلما نفرد بالثقة في أمثال هذه المشورات أفصاها عنه جهده ، ووقف بها موقف من لا يدفع ولا يدفع فكتب إلى محمد بن أبي بكر يقول له « نفع عني بملك يا ابن أبي بكر ، فإن لا أحب أن بصييك مي طمر » ثم وقع محمد في أمر معاوية بن حديج ، وهو من أسفه العثمانية عصيةً لحربه ، فأرسل إليه عمرو أن يأتيه به كرامةً لأبيه ولأخيه عبد الرحمن بن أبي بكر وقد كان من عجائب التفرق بين الأحرار أن محمدًا يشايخ عليًا ، وعبد الرحمن بخاره في جيش الشام ! ! فلم تنفع وساطة عمرو ، وقسم معاوية بن حديج لقتله شر قتلة وجاه به ، فطلب ماء فقاى ابن حديج لا سقاني الله رب سقيتك فطرة ! ! إياكم معكم عيان الماء ، لم تقتلوه صافي ، فلقاه الله بالرحيق المختوم والله لأقتلك يا ابن أبي بكر ، فليقت الله من اجمعين !

ولم تفارق محمدًا أخته بين يدي أسريه ، فأغلظ الحجاب لهم ، وتلفت قائلاً والله لو كان سبي بيدي ما يلعم في هذا ، فقتلوه : « وألقوه في جيفة حمار ميت . لم حرقوه بالنار ! !

وبعض عمرو يده من هذه المثلثات وأشباهاها ، وجهد في تهدئة الزعاجر عاصر ، وعهيد الأمر فيها لنفسه ولأعقابيه من بعده ، وسرعان ما تمهد له بعد مقتل عليٍّ وبجانه هو من القتل في السابع عشر من رمضان (سنة أربعين للهجرة)

وددت أن ثلاثة من الخوارج تأمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو في ليلة واحدة فأما صاحب عليٍّ فقد أصابه . وأما معاوية وعمرو فقد نجوا من صاحبيهما . وقتل حارثة بن حذافة صاحب الشرطة لأنه حرج بصلابة في مكان عمرو ، إذ كان هذا يشتكي بطله في تلك الليلة فقال عمرو ردتني وأراد الله بخارعة ! وأمر بقتله .

ولم يعرض له في ولايته الثانية حادث دوابل بعد هذا الحادث فقد هدأت
مصر ، واجتمع الناس على مديعة معاوية في سنة إحدى وأربعين للهجرة ،
فسميت « عام الجماعة » . وحكمت الشيعوكة حكمها ، وهول جسمه ، وتتابع
سقمه ، ودبت له الدنيا ، وهو يقول إن سئل عن حاله : « به حال من يدوب
ولا يشوب » !

وابه على هذا مخلود مسعود .

هنا آية الجدة أن يتنعم لإنسان بما يصير الناس ، وقد استمع عمرو بوهه
مرتين مرة حين بدا من الموت لاشتكاء بطنه ، ومرة حين سمعت له الولاية ببركة
هذا النور الذي لا يمحص عه ، فلولا ما حدث نفس معاوية له بولاية يملك فيها
الأموال ولرجان ، ولعله يعيش بعده فيتلأ أعقبه على الخلافة ، وهو شيء .
أن يسرع ابن العاص ، في شابه أو كهولته ، خلافة من يريد

على أن هذا انقراض لمتوهم سوارح الحياة ، لم يسأم العيش يوما ، وقد حاور
الغائب ، أو قارب المائة في قول آخرين ، فكفى وهو يجود بنفسه أسماً على
الحياة ، وقال لأبنائه : « إذا ورثتموني فاقعدوا عند قبري قدر بحر حرور
وتفصيلها »^(١) ، أسأس بكم حتى أعلم ما أراحح به رسل ربي »

ورحمه الله . . . به م يدع الأوط من الأمرين حيث يدع الحى بعنه ،
فكان يقول وهو على سرير الموت . « لو كان ينبغي أن أطلب لطلب ، ولو كان
يجب أن أهرب لهرب » وربما نظر إلى أمواله فقال « من يأخذها
بأورارها ؟ » وقل ذلك بعد أو عامين كأن يسأله معاوية عما بقي له من لذات
العيش فيقول : « مال أعرضه ، وحبر من ضيعني ! »

* * *

(١) فصل النصاب الحرور تفصيلاً : إذا عضاها وقطعها

وكانت وفاته ليلة عيد العطر سه ثلاث وأربعين للهجرة ، هذفر بجوار الحظم
عبد ضريح الإمام الشافعى لقائم الآن وصم معاوية حرائه إلى بيت امان .
وولاية مصر إلى أحبه عنه بن أبى سفيان .

وكذلك 'نقصت حاة حاملة ، حاة عاملة ، وحبة طائلة ، وصبح فيه .
على تباين الآراء والأقوال ، أنه رجل من عظماء الرجال فمنها يختلف المختلفون في
نياته وحسناته أو سيئاته ، فالذى لا خلاف فيه أنه كسب للإسلام قطريين
كبيرين . هما فلسطين ومصر ، وأن له سهماً واهراً في كل ما محبه للدولة الأمرية
من العظام والمآثر في تاريخ الأمة العربية والأمم الإسلامية .

من كلامه

من تمام القول في عمرو بن العاص ، بل من تمام العلم به ، أن لم بطرف من كلامه الذي يدل عليه .

وقد نسب إليه كلام كثير نسب إلى غيره ، وكان شأنه في هذا كشأن الجلة من الناس في صدر الإسلام فيما ينقل عنهم ، فرموا نعت الكعبة الوحيدة إلى ثلاثة أو أربعة من أناء عصر واحد أو عصور متفرقة . بيد أننا نعتمد في سيرة الكلام إليه مشايسته لما أتر عن حقه وسق تصكيه ، هم شيوخ الرواية ومكان روايتها من الثقة والدراية

فما يشبه في التعاطف بالسب ، أو في الخصلة التي سميها اليوم بالترعة الأستقرابية أنه قال معاوية : « يا أمير المؤمنين ! لا تكبر شيء في أمور رعيتك أشد نعماً منك لخصصة الكرم حتى تعمل في سدها ولطعها اللثيم حتى تعمل في قعره ، واستوحش من الكرم جائع ، ومن اللثيم الشبعان ، فإن الكرم يصول إذا جاع ، واللثيم يصول إذا شبع » .

وكان يؤمن بهذا الرأي كثيراً ، ولا يزال يعيده ، فقال في مناسبة أخرى : « موت ألف من لعية . أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة » .

ويتصل بهذا المعنى ، وقد يكون فيه اعتذار من حربه لعبي من أبي طالب ، قوله لابنه عن الإمامة وحكومة : « يا بني ! إمام عادل خير من مطر وابل ، وأسد حطوم خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم عشوم خير من فتنة تدوم يا بني ! مزاحمة لأحق خير من مصاحبة يا بني ! رلة الرجل عظم يحبر ، ورلة اللسان لا تبق ولا تدر . يا بني ! استراح من لا عقل له » !

ومن وصفه للرجال : « الرجال ثلاثة : عرجل تام ، ونصف رجل ،

ولا شيء . فاما الرجل التام فالحدي بكل دينه وعقده ، فإذا أراد أمراً لم يحضه حتى يستشير أهل الرأي ، فإذا وافقوه حمد الله ومضى رأيه ، فلا يرال مضيه موثقاً .
ووصف الرجل الذي يكمل الله له دينه وعمله ، فإذا أراد أمراً لم يستشير به أحداً . وقال : أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيه ؟ فيصيب ويخطئ .
والذي لا شيء . من لا دين ولا عقل له ، ولا يستشير في الأمر ، فلا يرال يحطك مديراً ووجه إني لأستشير في الأمر حتى حسمي . ! »

ووصف عبد الملك بن مروان ، فقال : « أحد بثلاث ، تارك لثلاث . آخذ بقلوب الرجال إذا حدثت ، وبحس الاستماع إذا حدثت ، وبأسر الأمور عيه إذا حوّل تارك للمراء . تارك لمقاربة اللئيم ، تارك لما يعتذر منه »

ويتعاطى وصف الأعمى على رأيه ، كما قال في أقوام زمانه : « أهل انشام أطوع الناس لمخوق وأعصاهم للحائق . وأهل مصر أكيسهم صعداً وأحمقهم كباراً ، وأهل الحجار أسرع الناس إلى الفتنة ، وأعجزهم عنها ، وأهل العراق أطيبهم للعلم وأبعدهم منه » !

على أنه كان وصفاً لا يحارى في وصف المناخر الكبيرة بالكلمات القليلة . ومن أبرع صفاته للطبيعة والناس معاً قوله في البحر : « إنه خلق عظيم ، يركبه خلق صغير : قدود على عود » !

وكان طبع النادرة ، سريع الجواب ، سديداً في توفيق لفظه ومعناه . ولا صعب أن يكون كذلك ، وهو مع ذكائه المتوقد عرضة للنسيان ، مصغر إلى إفحام من يعتمدونه بالغض والإزراء !

قال له المدر بن الحارود النعدي : أي رجل أنت لو لم تكن أملك من هي ! فسرعان باردًا عليه قائلاً : « لقد فكرت فيها البارحة ، فحملت أنفها في قبائل العرب ، فما خطرت لي عبد قيس ببال » !

وقال له رجل : والله لأتفرغ لك فقال : « ما لك وقعت في الشغل ! »
قال الرجل : كأنك هددني ؟ والله لئن قلت لي كلمة لأقول لك عشرة . قال
« وأنت والله لئن قلت لي عشرة لم أقل لك واحدة ! »

وقال له سلام بن روح الخزازي : كان يسكن ويس العتنة فمكسرتهم .
فما حملكم على ذلك ؟ قال : « أردنا أن نخرج الحق من حظيرة الباطل . وأن
يكون الناس في الحق سواء . »

ومن أشبه الأخوة به وقد مثل ما السرور ؟ فقال : « انعمرات ثم
سجى . » فهي كلمة رحن يقدم على المعامرة . ويحسن حلاء العرب .
وشبه به كذلك قوله : « ما وصعت عند أحد من الناس سرّاً فأفشاء
علمته . » فمثل . ولم ؟ قال : « أما كنت به أصيق صدرّاً حين استودعته
إياه . »

وشبه به على هذا النحو قوله : « لا أمل دابقي ما حملتي . ولا روثي ما
أحسنت عثرتي . ولا جيسي مام يصرف وجهه عني . » لأن لدى يصطع
الناس ، ويشتري الصدقات ، ويتحسن للثمنة ، لا مد له من هذه الخصال
* * *

وقد شهرت لمبريات في آداب الأمم ، وشاعت الكلمات التي حفظت عن
العطاء في ساعاهم الأخيرة ، فلو جمعت كلمات المختصرين ومن يوحهون
الموت ، لما كان في عطاء المسلمين تحمل من عمرو بن لعاص بصيباً من هذا
الأدب . الذي يدل على حظ فائليه من الحياة . وميراثهم في الخصال
والسيئات ، ومعظم المنقول عنه في هذا الصدد يوافقه أن بقوه ، ويشبه ما يستقل
به آخرته ويودع ديبه !

فكان في أحريات أيامه يدعو الله قائلاً : « اللهم آتيت عمراً مائلاً ، فإن كان
حبيباً إليك أن سلب عمراً مائة ولا تعذبني بالنار ، فسنه مائة ! وإليك آتيت

عمرًا أولادًا ، فإن كان أحب إليك أن تُشكِّلَ عمرًا ولذَّه ولا تعدي به بالدار ، فإنك به ولذَّه . وإني أتيتَ عمرًا سخطًا . فإن كان أحب إليك أن يسرعَ منه سلطانُه ولا تعدي به بالدار ، فانزعَ منه سلطانُه »

وبرحمه الله ! لقد دخلَ لإسلام وهو يشترط أن يصمَّ له إسلامه سقوط العقاب على إثم ما صبه ، وهمَّ بمعارضة الدنيا فلم يباين أن يعسرَ ماله أو ولده أو سلطانه إذ صمَّ شيئاً واحداً في الآخرة ألا يُعذَّبَ بالدار !

وكان يقولُ لبيه ، كأنه حسب نصيبه من جانيبه ، ورفعَ ميرانه بيديه « إني ست في الشرك الذي لومتَ عيه أدخلت النار ، ولا في الإسلام الذي لو مت عليه دخلت الجنة . فها قصرت فيه فإني ممسكٌ بلا إله إلا الله »

وكان يقولُ - « اللهم لا قوى فانتصر ، ولا برى فاعتذر ، ولا مستكبر مل مستعمر . لا إله إلا أنت لا إله إلا أنت » ولم يزل يرددُها حتى مات وردد في سرير موته استغفاره الذي يقول فيه « اللهم أمرتُ بأمر ، وسميتُ من أمر . فترك كثيراً ما أمرت . ووقع في كثير مما سميتُ اللهم لا إله إلا أنت . اللهم لا إله إلا أنت »

ودخل عليه ابن عباس في مرض موته ، فسأله كيف أصبحت ؟ قال « أصبحت وقد أصبحت من ديباي قليلا وأفسدت كثيرا . فهو كان ما أصلحت هو ما أفسدت هربت . ولو كان بمعنى أن أطلب طلت ، ولو كان يجيبني أن أهرب هربت . فعطيت بموعظة أنعم بها يا ابن احي ! » قال ابن عباس هببت يا أبا عبد الله فأحابه بكلمة يحوى بها لسان من يحصرون السلطان ويردون الواقعة عنده . كأنه أراد أن يستجيب رحمة الله بكلمة ابن عباس ، فقال « اللهم إن ابن عباس يقسطني من رحمتك فخذ مني حتى ترصني ! »

وبس بين العطاء في صدر الإسلام من استقبال الموت بكلام أجزل من هذا

الكلام . وأدل منه على شعور صاحبه في ممتزق الدنيا والآخرة . وحملة ما يدل عليه أنه كلام رجل ملأته الحياة ودوافعها القوية . فلم يحظر الموت ببلائه حتى حطر به مرة واحدة . وهو بين يديه لا مصرف عنه

* * *

تلك أمثلة عائرة من كلماته المأثورة عبر ما تقدمت الإشارة إليه في سياق الكتاب

وقد رويب له آثار في الشعر . والخطب الطول تسبكه بين الشعراء والخطباء . حسب إليه من الشعر هذان البيتان .

معاون لا أعصيت ديبى ولم تل به ملك دنيا فاطرب كيف تصنع
إان تعطى مصرأ فأرجع نصفه أهدب بها شيخا بصر ويجمع
وسبت إليه نبيات قاعا لهارة الذى ردد امرأته . بعد أب أوقع به في
الحشة

دا المرء لم يترك طعاما يحبه وم ينه قلبا عاويا حيث يتم
نصى وطرا منه وعادر سبة إذا ذكرت أمثالها تملأ الفها
من الآن لاسرع عن مطعم جمه وعانج أمور الموت لا تتلما
ومن الشعر المسلوب إليه وصف فرسه في قوله :

شبت الحرب فأعددت ها مقرع الحارل عموك الشح^(١)
بصل الشد بشد إذا وبس الحيل من الشد منع^(٢)

وكل مناسب إليه من شعره هو من هذه الطيقة نرى لا تسف ، ولا تعلو إلى
للدوة بين بدائع الشعراء

(١) مقرع الحارل - أى طويل النكامل من أعلاه . وعموك الشيخ أى من الظهر

(٢) الشد العدو والحمة . ومعج الهرس اسرع سيره

فما لخطب المصولة في المودح النان عني في الإبانة عن قدرته عليها . وهو شطر من حطة ألقاها يوم الجمعة حال فيها .

« بامعشر ناس . إياي وحيلالا أربعا ، وبها بدعوإلى النصب بعد نراحة . وإلى الصيق بعد السعة ، وإلى اندس بعد انعر إياي وكثره لعيال ، وانحصاص لحال . وتصنيع اناس . والتقبل بعد يقال . في غير درك ولا نواب . إنه لاند من فراع يؤول المرء إبيه في توديع جسمه ، والتدبير لشأه ، ونجليته بين نفسه وشهواتها . فمن صار إلى ذلك فبأخذ بالقصد والنصيب الأقل ولا يصيح المرء في فراعه نصب نفسه من العثم . فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال لله وحرامه عادلا . يا معشر الناس قد نذلت الجوراء . وارتفعت الشعري ، وأقنعت السماء ، وارتفع الوباء . وقل الدي . وطاب المرعى . ووصعت حوامل ، ودرجت السحائب ، وعن الراعى حسن النظر . محيى نكم على بركة الله إلى ربكم . فتألو من خيره ولنه . وخراجه وصيده . وأربعو حبيكم . وأسموها . وصوبوها . وأكرموها . فبها حاكم من عدوكم . وبها نالون معكم وأنما لكم . واستوصو من جاوركم من القصد حيرا وإياكم ولمشروعات لمعسولات . فابن يفسدن لدين ويقصرون أهمم حدثني أمير المؤمنين عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول . « إن الله سيفتح عبيكم مصر . فاستوصوا بنقطها حيرا . فإن لهم فيكم صهرا ودية » فكفوا أيديكم وهروجكم . وعضوا أنصاركم فلا أعلم ما أتاني رجل قد أسمر جسمه وأهرل فرسه وأعلمو نبي معترض الخيل كاعراض الرحال ، من أهرن فرسه من غير علة حططت من فرصته قدر ذلك واعلموا بكم في رباط إلى يوم لقيامة ، لكثرة لأعداء حولكم ، ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم . معدن الزرع والمال ، والخير الواسع والبركة لنامية حدثني عمر أمير المؤمنين إنه سمع رسول الله يقول : « إذا فتح الله عبيكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا . فذلك الجند خير جناد الأرض فقال له أمير بكر ولم داك يا رسول الله ؟ قال لأهم وأرذلهم في رباط إلى

يوم لقيامة » هاجموا رءسكم معشر الناس على ما أولاكم . وأقيموا في رءسكم
مدينا لكم . فإذا يسر العود ، وسحر العمود ، وكثر الدباب ، وحمض الس .
وصوح لعل . وامطع الورد من الشجر . فحى على فسطاطكم على بركة الله
ولا يقدم أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله . على ما أطاق من
سعة أو عسرة . قول قولي هذا ، وأستحفظ الله عليكم »

وهذا نموذج مآدر من الخطب المبيرة التي كان الخطيب فيها يتولى « وظيفة »
الوالى والوعظ والوالد والزعيم . وكان فيها مسحة من البرامج السياسية ، والخطط
الإدارية ، ومسحة من الشعر ، وقبس من الدين والحكمة

• • •

ومن لواحق هذا الدب نأتى بعض الأحاديث التي رواها عمرو عن نبي
ﷺ ، لأن عقل الرجل ودنه قد بظهورنا بحرى على لسانه من كلام غيره
كما بظهورنا من كلامه

قال رجل من بني بكر بن وائل نأى م تنه قريش ليصبع هذا لأمري
جمهور من حمير العرب سواهم فقال عمرو بن عاص . كدت ! سمعت
رسول الله ﷺ يقول « قريش ولاء الناس في خير وأشر إلى يوم لقيامة »
واحتشم رحلان إلى النبي ﷺ ، فقال لعمرو : اقص بيها فقال أنت
أولى بذلك مني يا رسول الله ! قال وإن كان قال فإد قصت بيها لئالي
قد إن أنت قصيت بيها فأصبت القصاء فلك عشر حسات . وإن أنت
اجتهدت فأخطأت فلك حسنة »

وقال عمرو : احتشمت في ليلة ماردة شديدة البرد - وكان في عروة ذات
انسلاسل - فأشعقت . اعتسلت أن أهلك فتمت فم صليت بأصحابي
صلاة الصبح ، فما قدمت على رسول الله ذكرت ذلك فقال « يا عمرو !
صليت بأصحابك وأنت حب ؟ » قلب نعم يا رسول الله ! فني احتشمت في

ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اعطسك أن 'هلكت ، وذكرت قور الله عز وجل (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فنبهت فم صليت فصحت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا .

* * *

واستأذن علي فاطمة رضي الله عنها ، فأدب له فسأل ثم علي ، قالوا : لا ، مرجع . ثم استأذن عينا مرة أخرى ، فقال كذلك ثم علي ؟ قالوا : نعم ، تدخل . فقال له علي ما منعك أن تدخل حين لم نجدى ههنا ؟ قال إن رسول الله ﷺ ما أن يدخل علي لمعيات .

* * *

وإن لرجل في حديثه مع النبي . وحديثه عن أنس . هو عمرو بن العاص . في كل ما ثبت له من رواية أو عمل أو مقال

خاتمة مفسرة

ظهرت في السنوات الأخيرة كتب عدة عن تاريخ مصر ، كتب بعضها باللغة العربية ، وكتب أكثرها باللغات الأوروبية ووجهتها جميعا تشويه لماضى . وتصوير الحاضر على الصورة التي توافق أهواء المؤلفين ، وتخدم مساعيهم التي لا تحصى . ولا تفهم أهواء أولئك المؤلفين إلا على وجه واحد . وهو أنهم يشمون لو لم تخرج مصر من حكم الدولة الرومانية . ومن رعاية كسبب التي كانت قائمة يومئذ في القسطنطينية وفي رومة وكل ما يأتي بعد ذلك من تصويرت أولئك المؤرخين ، فهو مفهوم على هذا الاعتبار

وقد أعددا هذه الصيغة من هذا الكتاب " فوجب علينا جلاء الحقيقة عن وجه التاريخ في هذه المسألة التي يشوه فيها الماضى ، خدمة لبعض المساعي لاجتنية في الوقت الحاضر ولا يجب أن يتوسع في الشروح والتفصيلات . ولكننا نحسب أن لاصحات التي عبرها لقارئ كافيه لنقص تلك الأهواء واحتساب المراتب التي يحدروا إليها من يقرأون التاريخ ، ولا يلتفتون إلى تسحيده في خدمة أصحاب المآرب والسعائيات

من حقائق التاريخ التي لا يخفى لأهواء . أن أشد المسيحية في مصر ، بما كان احتجاجا روحانيا على الدولة الرومانية . ولهذا لم يقطع الخلاف بين مصر وبالدولة الرومانية بعد دخول هذه في الدين المسيحي ، فقد ظهر سخط المصريين بعد ذلك في صورة أخرى ، فقاموا المذهب السكي الذي فرضته عليهم تلك الدولة ، وهرقوا يسه وبن مذهبهم هذه التسمية التي جعلت المذهب الحكومي الروماني في جانب . وجعلت المذهب القومي المصري في الجانب الآخر . ودار الراجح على هذا المحور إلى نهاية عهد الدولة في الدار المصرية

كذلك ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية . فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء في تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد ، فإذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك ، فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ، ودانوا بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية . ويبقى العديد الأعظم بعد ذلك سلالة مصرية عريقة ، ترجع بأبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي ، وقبل بعثة موسى عليه السلام

وحديث المظالم التي يلج المؤرخون المغرضون في التفتيش عنها قد تثبت كل الثبوت أو تثبت المبالغة فيها لغرض من الأغراض ، ولكنها إذا رويت على حقيقتها التاريخية مجردة من تلك الأغراض ، لم تنحصر في مصر ولا في بلد واحد من بلاد العالم . فمن أجل المظالم وأشباهاها ثارت الأمم في الغرب والشرق ، ومنها أمم مسيحية تثور على حكام مسيحيين ، أو أمم إسلامية تثور على حكام مسلمين ، وقد يكون الثائرون والطفأة من أبناء نخلة واحدة تنتمي إلى دين واحد ، كما حدث منذ القرون الوسطى إلى القرن الأخير .

وعصمة القارئ والمؤرخ في تمحيص الحقائق أن يلتمس هوى « الدولة الرومانية » في كتابة تاريخ هذا البلد بعد زوالها ، فكل من كتب التاريخ كأنه يضع نفسه في موضع تلك الدولة ، ويتحسر على زوالها ، وزوال سلطانها ، وسلطان عواهلها وأجبارها ، فهو « أجنبي الهوى » يشوه الماضي ، ثم لا يعنيه تشويه الماضي في الواقع ، بل يريد أن يتسلل من الماضي كما يصوره إلى الحاضر كما يشتهي ، ودون ذلك ويعتصم الحق بحمي الوطن وحمي التاريخ .

فهرس

الموضوع	الصفحة
نشأة عمرو بن العاص	٥
التعريف بعمرو بن العاص	١٨
من التجارة إلى الإمارة	٣٧
فتح مصر	٦١
البلاد والسكان	٧٨
المقوقس	٩٢
الحالة الدينية	١٣٠
الحالة الإدارية والسياسية	١٤٥
بين الأمارتين	١٥٦
من كلامه	١٨٠
خاتمة مفسرة	١٨٨

مؤلفات عماد الدين الأديب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

- | | | |
|--|---------------------------------------|---|
| ١ - الله . | ٢٧ - سفره . | ٥٣ - يوميات (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أمير الأنبياء . | ٢٨ - الإسلام مرة أخرى . | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطمح التنوير أو طوابع البيئة الحميدية . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٥ - حلم السقوط والقيود . |
| ٤ - حيدرية محمد ﷺ . | ٣٠ - مايقال عن الإسلام . | ٥٦ - مع عامل الجزيرة العربية . |
| ٥ - حيدرية عمر . | ٣١ - حقائق الإسلام ولطائف خصومه . | ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة . |
| ٦ - حيدرية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - لتفكير فريضة إسلامية . | ٥٨ - مقالات في المذهب الأدبية والاجتماعية . |
| ٧ - حيدرية خالد . | ٣٣ - لفلسفة القرآنية . | ٥٩ - كراء في الآداب والفنون . |
| ٨ - حياة المسيح . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٦٠ - دعوت في اللغة والأدب . |
| ٩ - نحو التوريتين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية . | ٦١ - غواطر في الفن والفن . |
| ١٠ - عمرو بن العاص . | ٣٦ - لتفاحة العربية . | ٦٢ - دين وفن وفن . |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان . | ٣٧ - اللغة الشاعرة . | ٦٣ - فنون وشجون . |
| ١٢ - قاضي السماء بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر وديارهم . | ٦٤ - قيم ومعايير . |
| ١٣ - أمير الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب . | ٦٥ - قصائد في الأدب والنقد . |
| ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون . | ٤٠ - حياة فلم . | ٦٦ - عهد الفلم . |
| ١٥ - خالد الشجرة . | ٤١ - خلاصة اليومية والتشوق . | ٦٧ - وجود وحدود . |
| ١٦ - إبليس . | ٤٢ - مذهب ذرى المعاني . | ٦٨ - ديوان يقطرة الصباح . |
| ١٧ - جبرائيل الفصحك . | ٤٣ - لا شريعة ولا استعمار . | ٦٩ - ديوان وبعج الظهيرة . |
| ١٨ - أبو نواس . | ٤٤ - لشريعة والإنسانية . | ٧٠ - ديوان أضياف الأصيل . |
| ١٩ - الإنسان في القرن . | ٤٥ - لصهيونية العالمية . | ٧١ - ديوان وحى الأرمين . |
| ٢٠ - لمرأة في القرن . | ٤٦ - لمران . | ٧٢ - ديوان حنا الكروان . |
| ٢١ - حيدري الإصلاح والتنظيم الإمام محمد عبده . | ٤٧ - أنا . | ٧٣ - ديوان حابر سبيل . |
| ٢٢ - سعد وطلوع زعيم الثورة . | ٤٨ - حيدرية الصديق . | ٧٤ - ديوان أحاسير مقرب . |
| ٢٣ - روح عظيم للمهاجر خلدي . | ٤٩ - الصديقة بنت الصديق . | ٧٥ - ديوان بعد الأحاسير . |
| ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٦ - ديوان حرائر وشياطين . |
| ٢٥ - رجعة أبي العلاء . | ٥١ - مجمع الأحباء . | ٧٧ - ديوان تشيخان الليل . |
| ٢٦ - رجال عرفتهم . | ٥٢ - الحكيم المطلق . | ٧٨ - ديوان من دولوين . |
| | | ٧٩ - منظر في الميزان . |
| | | ٨٠ - لثيون للشرب . |
| | | ٨١ - القرن العشرون ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - النظرة والأديان . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتتبع بالفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

